

عباس محمود العقاد

حياة قلم



وهذا وقف عن كتابة هذه الفصول أو المذكرات التاريخية التي تعد بلا شك جزءا من تاريخ مصر . ومرجعنا للمؤرخ فيما عالجته العقاد من موضوعات عن هذه الحقبة التي تدرت نحو عشرين عاما من الحياة العامة عاشها وساهم فيها بقلمه .. !

ثم يبقى ما تلا هذه الحقبة من جهاد وجهود ، وأحداث وأطوار ، لهذا القلم في الميدان العام - فهل موصفت كتاباته الأخرى ومؤلفاته عما نقص من سلسلة هذه المقالات ؟

١

الواقع أن حياة العقاد العامة ، أو حياة قلمه منذ ثورة سنة ١٩١٩ م تكاد تكون معروفة لأبناء هذا الجيل من زملاء الأدباء والصحافيين ، ومن السهل الرجوع إليها في الصحف والمجلات التي اشترك فيها ، وعالج فيها ما عالج من موضوعات سياسية واجتماعية وأدبية . وقد كان كاتب الوفد الأول منذ فجر هذه الثورة إلى أن اختلف مع زعماء الوفد سنة ١٩٣٥ كما سيجىء في هذه الصفحات ..

وقد كتب عن هذه الثورة ، وأبدى آراءه في رجلها وأحداثها كسياسي مفكر ، وكوطني كبير ، مستقلا عن آراء حزبه ، وإن كان هو كاتب هذا الحزب ، والمؤيد لسياسته التي تتفق مع آرائه في ذلك الوقت . وقد كان زعيم الوفد سعد زغلول يقدره كل التقدير ، ويقول عنه ما يرويه لنا الأستاذ كامل سليم سكرتير مجلس الوزراء ، وسكرتير الوفد المصري حين سافر الوفد إلى أوروبا للمفاوضة ، فقد كتب مقالا في مجلة الثقافة لي ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٠ م بعنوان : « سعد زغلول كما عرفت ، رجلا ، وزعيما ، وسياسيا » وقد جاء فيه :

« وسألت مرة عن رأيه في كاتب كبير - يعني العقاد - فقال :

« أديب نحل ، له قلم جبار ، ودرجة كاملة ، ووطنية صافية ، وإطلاع واسع ، وما قرأت له بحثا ، أو رسالة في جريدة أو مجلة إلا أعجبت به غاية الإعجاب ، وهو لا يعالج موضوعا إلا أحاط به حملة وتفصيلا ، إحاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد .. وله أسلوب أدبي فريد »

٢

والذين يراجعون كتاب « سعد زغلول » الذي ألفه العقاد سنة ١٩٣٦ م يستطيعون أن يلحوا بتاريخ زعيم الثورة وأحداثها ورجائها ونضرائها ومقاوماتها إلى أن توفي « سعد » في أغسطس سنة ١٩٢٧ م . ويعد هذا الكتاب من حياته السياسية و « حياة قلمه » وطورا من أطواره الوطنية

ولما توفي سعد زغلول ، وكانت الأحزاب المصرية مؤلفة مع الوقت ، استمر هذا الائتلاف سوى عام ، ثم مالبت الخلاف أن عاد بين الوفد وحزب الأحرار الدستوريين ، وتولى زعيم هذا الحزب رئاسة الوزراء ، وعطّل الحياة السياسية ، وحكم البلاد بيد من حديد ، حتى دعى حكمه باليد الحديدية ، ورأى العقاد ، أن مصر في ذلك العهد امتحنت بالحكم الدكتاتوري ، وكان موسوليني قد ظهر في إيطاليا بالكتاتورية السياسية ، فألف كتابه ، تحكّم المطلق ، في القرن العشرين ، وحمل فيه على هذا الحكم الاستبدادي حصة شعراء ، وأبان فسادة سياسيا وعلميا واجتماعيا ، وتحدث عن الديكتاتورية ونجاحها ، ونجاح الحكم النيابي ، ثم أصدر كتاب « اليد القوية في مصر » سنة ١٩٢٨ وكان الحكم المطلق وقتئذ قد أصبح عدوى في بعض البلدان الشرقية والغربية ، وظهر هتلر بدكتاتوريته في ألمانيا ، فكتب العقاد عدة مقالات ضده ، ثم أخرج كتاب « هتلر في الميزان » ، ثم كتاب « النازية والأديان » .. !

وكانت سنة ١٩٣٠ م وقد أميدت الحياة النيابية ، وكان العقاد وقتئذ عضوا في مجلس النواب ، ثم أشيع أن الملك فؤاد سيقبل الوزارة ، ويعطّل الحياة النيابية ، فوقف على منبر المجلس في إحدى الجلسات ، وتحدث عما يشاع من تعطيل الدستور ، وحل البرلمان ، وأحدث في خطابه ، ودفعته وطنيت الجيرة الصريحة إلى أن قال كلمته المشهورة :

« إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ، ولا يصونه ... »

وكان لهذه الكلمة دورها في جميع الأوساط ، واتخذها المنافقون والبلطجيون حجة ضده ، وحياة ينصبرونها للإيقاع به والانتقام من جرائه ، ولما كان وقتئذ

عضوا في مجلس النواب الذي أعيد بعد استقالة رئيس الأحرار الدستوريين ، وكان يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فقد أخذوا يترصدون له حتى عطلت الحياة النيابية في وزارة صدقي باشا ، وكان ما يزال يحذر موضوعاته السياسية ، ولم يكن قد اعتزل السياسة .. وذهبوا يجمعون مقالاته المعرصة لسياسة الحكم ، ثم أحيل للمحاكمة بتهمة : « العيب في الذات الشكية » ، فحوكم في أكتوبر سنة ١٩٢٠ م وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ، قضاهما بين سجن الاستئناف ، وسجن قره ميدان بالقاهرة . وحينما أفرج عنه في شهر يوليو من ذلك العام قصد قورا ضريح سعد زغلول وأنشد في مستقبله من الجماهير الوطنية « على ضريح سعد » التي يقول فيها :

إلى الذاهب البالي ذهاب مجدّد	وعند نرى سعد مثاب ومسجد
إلى مرجع الأحرار في الشرق كله	إلى قسلة فيها الإمام موسى
نحیی من الدنيا التي نستعيدّها	مكان من الدنيا له المود أحمد

ثم ختمها بقوله :

وكت حين السجن تسعة أشهر	فهيذا في ساحة الضد اوند
ففي كل يوم يولد المرء ذو العجب	وفي كل يوم ذو الجهالة يند
عدائي وعصي لا اختلاف عليهما	سيعهدني كمن كما كان يعهد

وبعد خروجه من السجن ببضعة أعوام استكتب لمجلة « كل شيء » في « حياة السجن » . فكتب لهذه المجلة عدة مقالات جمعب في كتاب بعنوان « في عالم السود والقيود » .

ولا ريب أن هذه المدة ، وتلك المقالات ، كانت فترة هامة من حياته وحياة قلمه . وقد استكتبته يوما لمجلة « المنصور » عن تجاربه في الانتخابات ، وقد دخلها ومارسها ، ونجح فيها . فكتب مقالا ضويلا ، نقلت منه مايلي :

« مارست الانتخابات بأنواعها التي عرفناها في مصر منذ إعلان النظام الدستوري الحديث ، مارست الانتخاب على درجتين ، ولانتخابات على درجة واحدة ، واخبرت الإخفاق في هذه التجارب ، كما اخبرت النجاح بالتركية ، والنجاح بالكثرة الساحقة .

« وفي وسمى أن أقول كلمة محققة عن كل نوع من هذه الأنواع ، وإن كانت الكلمات المحققة لي شتون الانتخاب أقل من القليل . . . !

« فالمحقق عندي في الانتخاب على درجتين أنه نظام لا مزية له على الإطلاق ، وإنما تظهر صورته في حالتين غير محصودتين : إحداهما تدخل الإدارة ، والثانية شراء الأصوات .

« أما اللون بالتركية ، فقد طعن فيه بعض الباحثين الدستوريين ، وأشاروا في علاجه إلى إعادة باب الترشيح مرة أخرى في كل دائرة لم يتقدم لها أكثر من مرشح واحد .

« أما النجاح بالكثرة الساحقة ، فقد عرفت صعوباته الكثيرة ، وعرفت أصعب هذه الصعوبات ، وهي بذل الوعود الانتخابية والسعي في تحقيقها ، وإذا قلت الوعود الانتخابية فإنما أعني الوعود العامة ، ولا أعني الوعود الشخصية . لأنني أعلنت في كل دائرة قدّمت فيها أنني لن أقبل الوساطة في مسألة شخصية ، إلا أن تكون تقرير الحق أو دفع لمظلمة . . .

٢

عاش « العبد » منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ م - ومنذ قامت الثورة القومية في سنة ١٩١٩ م بقيادة سعد زغلول - في جهاد وطني عنيف ، مؤيدا لسياسته ، فقد كان يقدره ويؤمن بإخلاصة ووضيعة . وكان سعد يحبه ويحترمه على صغر سنه بالنسبة له . وكانت جريدة البلاغ في عهده هي جريدة الوفد الأولى ، فكان هو كاتبها الحري ، وسهبا النافذ الذي يرمي به الوفد خصومه ، ولم تر كاتبها سياسيا منه يكتب كل يوم مقالة سياسية طول اشتغاله بالسياسة إلى جانب ما يؤلفه من كتب أدبية ، وما يكتبه من مقالات في الأدب والفن والفلسفة والترجمة والتاريخ كل ثلاثة .

وقد عانى العقاد ما عانى الوفد من شدائد ، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد ، واستمر مع خفاء سعد في الوفد مدافعا عن آرائه ، مناهضا للاستعمار والاستبداد . محاميا عن الأهداف التي قام الوفد من أجلها وهي

الحرية والاستقلال والدستور ، ولم يكن في تأييده لسياسة الوفد يدافع عن حزب ولا عن أراء زعيم ، لأنه كان يكره الحزبية ، ولم يكن كاتباً حزبياً . وقد كان يرى أن الوفد في ذلك الوقت الذي يخوض فيه المعركة يمثل عقيدة وطنية ، و « فكرة سياسية حرة » ، وأن الصحافة الوفدية التي يكس فيها هي وسيلة التعبير عن هذه العقيدة ، وتلك الفكرة ، وقد كتب عن العقيدة الوفدية ، فقال : « نحن لا نحسب أن نعرف العقيدة الوفدية من طريق الجراميم والأقوال ، وإنما نعرفها من طريق الوقائع التي تنطق بها أعمال الخصوم ، نل أن تنطق بها السنة الأصحاء والأنصار ، وتتلخص العقيدة الوفدية في هذا المعنى في عبارة وجيزة هي : « المحافظة على القومية المصرية بقوة » ، أما المصرية ومن أجل هذا يفضيها أشد البغض كل من يكرهون أن تكون لهذه الأمة قوة تعتمد عليها ، وتقف بها في وجه أعدائها ، ولو لم تكن الوفدية هي مأساة هذه القوة لما أبغضها الصامعون في ضعفنا وعجزنا عن المقاومة ، واستندت بالإرادة ، ولو كان للعقيدة الوفدية شركاء في هذه المزية لأبغضهم مستعدين ومنكرو إرادة الأمة .. »

إلى أن يقول عن الصحافة الوفدية التي كان أكبر كتابها

« .. إنما تؤدي الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة ملاد سياسية ، لا واجب الدعاية الحزبية وما إليها ، وما من مبدأ أصيل تدبر به صداقة مصرية بريئة إلا والأمة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه إلى إقناع ، أو تدليل .. »

هكذا كان رأي في « الوفد » ، وعلى هذا المعنى كان يدافع عنه ويؤيده ، وهو في ذلك كان يدافع عن عقيدة وطنية ، ويؤيد مبدأ وطنياً كان يؤمن به كل الإيمان ، وهو : المحافظة على قوية الأمة بقوة الأمة ، لا بقوة أحد سواه ..

ولم ينصرف العقاد يوماً عن تأييد هذه العقيدة ، ولم يفرج عن سياسة الوفد الذي تأسس وقام على هذه العقيدة ، حتى أصاب الوفد ما أصابه من الانحراف وانتقل من هيئة شعبية وطنية إلى حزب ميسر يقوم على برامج ، ويمثل الحكومة وسيلة لتحقيق هذه البرامج ، ويسمى به استعاع إلى تولي الوزارة ويتجهت عليها نهافت المستوزرين .. !

وفي أوائل عام ١٩٣٤م نظم العقاد « نشيده القومي » وكان وقتئذ يحرر مقالاته السياسية في البلاغ . وقد جاء في مطلع هذا النشيد :

قد رعبنا العلم للعلا والهدى

في ضلالت السماء

أرض الله — حرم من مهد الهدى

حرام البقاء

وعلى أثر نشر هذا النشيد اجتمع طائفة من كبار أدباء مصر ومفكرها ، وأقاموا له حفل تكريم في مسرح حديقة الأريكة - برئاسة زعيم الوفد - حضرها جمهور كبير من أعلام الفكر والبيان ، وأعضاء البرلمان والوزراء ورجال التعليم ، وكرام السيدات ، وكان في مقدمة المتكلمين عن العقاد الدكتور طه حسين ، فألقى خطبة ضافية عن « العقاد ولواء الشعر » قال فيها : « إنه مهما كرم العقاد ، فإن مكرمه أن يبلغوه حق من التكريم بالقياس إلى إحسان العقاد إليهم .. »

ثم يستلرد ، فيقول : « تسألونني لماذا أؤمن بالعقاد في الشعر الحديث ، وأؤمن به وحده ، وجوابي يسير جداً ، لماذا ؟ ، لأنني أجد عند العقاد ما لا أجد عند غيره من الشعراء .. وإن شئتم ، فإنني لا أجد عند العقاد ما أجد عند غيره من الشعراء ، لأنني حين أسمع شعر العقاد أو حين أدخل إلى شعر العقاد ، فإنما أسمع نفسي ، وأدخل إلى نفسي .. » إنما أرى صورة قلبي ، وصورة قلب الجيب الذي نعيش فيه ، وحين أسمع لشعر العقاد ، إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ، وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربي الحديث .. »

وبعد ذلك يضرب الأمثلة من « ديوان العقاد » ، ويشيد بقصائده ، ولا سيما قصيدة « ترجمة شيطان » التي يقول فيها إنه لم يقرأ مثلاً لشاعر في أوربا القديمة وأوربا الحديثة ، ثم يقول في النهاية : « ضعوا لواء الشعر في يد العقاد ، وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظفروا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه .. !! »

وكان خريف سنة ١٩٣٤م . وتألفت وزارة محمد نسيم باشا الثالثة في ٢٠ نوفمبر من ذلك العام . بعد استقالة وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التي سارت على سياسة إسماعيل صدقي باشا ، وكانت الأمة غير راضية وقتئذ عن سياسة صدقي في الحكم والحياة النيابية التي قامت على دستوره الجديد - فلما تولي نسيم باشا الحكم ، وأوقف دستور صدقي باشا ، انتظرت الأمة منه أن يعيد دستور ١٩٢٢م ونظامه النيابي ، وانتظرت من الوفد أن يطالبه بذلك خصوص وقد أعلن تأييده الوزارة النسيمية ، ولكن نسيم باشا كان متباطئاً في الاستجابة لرغبة الأمة . وكلما ألحت عليه بالرجوع إلى الحياة النيابية ودستور سنة ١٩٢٢م الذي كان خيراً من دستور صدقي باشا ماضٍ وتغافل ، وأخذ يحكم الأمة حكماً فردياً غير دستوري ، وأثارت سياسة نسيم باشا «كتاب الوفد الأول» منذ ظهرت جواهر هذا الحكم ، ولم تمض على نسيم باشا ثلاثة أشهر فأخذ يند سياسته ويحذر رجال الوفد من أطاعه وتوابعه ، قام يوافق الوفد على معارضة «العقاد» للوزارة النسيمية التي كان يؤيدها ، ويعلم صلتها بالإنجليز ، ومحدث مشادة بينهما في بيته انتهت بخروجه على سياسة الوفد التي كانت تعالي ، هذه الوزارة وكان العقاد يكتب مقالاته وقتئذ في جريدة «روز اليوسف» ، فاشتدت حملته على هذه السياسة وعلى زعيم الوفد وصحبه راضل نسيم باشا أن يصدر في ١٥ مايو نوفمبر سنة ١٩٣٥م بياناً سياسياً جعل عنوانه «بيان للناس» فكتب عباس العقاد مقالاً نشرته روز اليوسف في اليوم التالي بعنوان «قصة الدستور في بيان نسيم باشا» جاء فيه :

«وإن الدستور في بيان نسيم باشا - على حد تعبير صديقنا الدكتور طه حسين - لقصة ، وإنها تختلف عن كل ما أذاعه الفطبولون للوزارة النسيمية والمزمرين ، حين طلعا علينا بأسطورة منتصف شهر مايب الماضي ومنتهاه ثم بأعجية الخريف والشتاء .. لكن ما لنا ولإلشاء الذي يتلرق إليه التحريف والتخصيف أو الشدة في التعبير والإساعة في التصوير .. وأمامنا بيان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع ما يكفي سرده في ترتيب لتقديم القصة للقراء أصدق تقييم ..»

ثم سرد هذه الوقائع التي أحصاها فكانت ثلاثاً وعشرين واقعة . وفي مقدمتها «تولي نسيم باشا الحكم» . وفي لاية صدر إلى إعادة دستور ١٩٣٢م بالذات ، إذ اكتفى الأمر الملكي الذي أصدره في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤م بأن يشير إلى أن البلاد سيوضع لها قدم دستوري ، ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الأمر الملكي الصادر له أبلغه الفتوى السامي أن الحكومة البريطانية ترى «إن البلاد قد تستفيد من تأجيل الحلة . ومن مصلحة البلاد تقتضي عند سنوح الفرصة أن يكون شكل الدستور الجديد . موضوع درس مهم يتناول جميع وجوه المسألة ..»

وقد علق العقاد في نهاية مقاله على الوقائع التي تضمنها البيان . فقال «وبعد .. أليست هذه القصة التي استخرجتها بكل أمانة من بيان نسيم باشا ، مؤيدة للتأييد كله ، لكل ما سبق ذكره من نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الإنجليز ومن الدستور ..»

«وفد فلنا منذ الساعة الأولى أنه قد ولي حكمه يتفاهد مع مستر بيترسون على أن يحكم مصر من غير دستور سبب كاملين .. وأن الدستور الذي يقدم لمصر بعد ذلك لا يكون هو دستور ١٩٢٢م .. بل دستوراً جديداً محدثاً ..»

لقد أقسم «العقاد» لزعيم الوفد في أكتوبر سنة ١٩٢٥ وهو يشير إلى قلمه الرصاص الذي كان يكتب به مقالاته - وكان يحمله وقت جداله معه في بيته بالإسكندرية - ألا ينتهي هذا القلم حتى تنتهي وزارة نسيم باشا من دست الحكم ، وقد صدق .. فما كاد يمضي الياء الرابع من يناير سنة ١٩٢٦م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة أشبه ما تكون بالإقالة وفوت الحكم بعدها وزارة «علي ماهر باشا» !

وأصر «العقاد» على مخالفته لزعم الوفد في سياسته التي كانت تهدف إلى تولي الوزارة في تلك الحين ، مع مهانة الاستعمار ، ومعالجة مندوب المستعمرين في مصر ، واشتد في حمت على الوفد في معارضته ، وأخذ

زعيم الوفد - وهو يجادلني اجتماع ضمه وضم سكرتير الوفد وبعض أعضائه، وذكره «بله» زعيم الوفد لمقابل العقاد احتجاده بفئده منه، وأجابه قائلا :

«إنك زعيم الوفد ، لأن هؤلاء الذين حولك أجلسوك على هذا الكرسي ، أنا ، فإن قلبي وحده هو الذي وضعني في مكان قدره رئيسك سعد زغلول وقدرته الأمة .

وأخذ الوفد يحارب جريدة روز اليوسف ، ويحاربه ، حتى عطلت هذه الجريدة، وكان قد انفصل نبل ذلك عن عبد القادر حمزة ، صاحب «البلاغ» لخلاف شخص لا صلة له بالسياسة ، فاتفق مع صاحب امتياز حرية «الضياء» عبد الحميد حمدي على إصدار جريدته لحسابه ، وكان هو مدير «السياسة» فيما رئيس التحرير «كليم أبو سيف» . وصدر العدد الأول من ٨ فبراير سنة ١٩٣٦م في ١٦ صفحة افتتحه «العقاد» بمقال ملامعة الصفحة الأولى بعنوان : «عبد وذكرى» ، جاء فيه ما يوضح فيه خطته . فقال

«في هذا اليوم نحن يادئون بعمل جديد، ومثابرون على خطة معروفة معهية لزمناها عشرين سنة في خدمة الصحافة والقضية الوطنية. فمن الإطالة على حضرات القراء، أن تقيض في الشرح، ونسهب في العهود والوعود فيما هو معروف معهود. وحسبنا اليوم أن نقول أننا سنمضي على ما كنا فيه، لنكون قد قلنا ما فيه الكفاية ، واستغفينا عن الغفول والتكرار، فإن كان لابد من إيضاح لهذا الإجمال ، فإيضاح هذا الإجمال إنما سنعلن ما نعتقد من رأي في غير محاباة ولا إحجام ، وأما أن نتوعد في إبداء الرأي الذي نؤمن به ، كلما وجب إبداءه وتعزيه ، ونا منذ اليوم الذي قضت فيه هذه الخطة نفسها بأن نستتر عن جميع الهيئات والأحزاب قد آتينا على أنفسنا ألا يعوق هذا الاستقلال مناظر ولا يحجب حجاب نحن قادرين على أن نميط ونعلو عليه . فسياستنا في جميع المسائل والحوادث سياسة قديمة تنظر إلى الأعمال ، لا إلى العناوين، وإلى المبادئ القومية ، والمصالح المصرية، لا إلى الأحزاب والهيئات ..»

ثم انتقل إلى حرية الرأي والشجاعة الأدبية في إبدائه تلك الحرية التي حارب فيها زعيم الوفد وقتئذ . فقال :

«حرية الرأي والشجاعة الأدبية في إبدائه هما المثل الأعلى فيما نتوخاه من عمل صحافي ومن خلق قومي تدين به الأمة ، وتعكف عليه ، ولا تعدل به مطلباً من المطالب ، ولا برنامجاً من البرامج ، ولا وعداً من الوعد !

«حرية الرأي والشجاعة الأدبية في إبدائه أنفس من الاستقلال ، لأن الأمة اتى تلك رأياً ، وتلك شجاعة إيمانها وفكرة الخصب ، وأنبه لرائع ، وعلنه الفياض - هي مستقلة فعلاً وحققاً ، ولم احتلتها فيالق الناصيين .. فلما إذا خسرت الأمة حرية رأيها وشجاعة إيمانها ، فلا خير لها في استقلال ، ولا دستور ، ولا نياحة ، ولا انتخاب ، لأنها تساق سيق العبيد لكر من خطر له أن يسودها من الأقرباء أو البعداء ، وتعيش عبثة العبيد - ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب .. ولا فرق بين عبد مسود ، وعبد مطلق لنيلين وتخدمين ، لأن العبودية في انقياس وانحطاب لا في القيود والأغلال ..»

ثم أخذ يحسمي الحقائق التي دافع عنها ، واختلف فيها مع الوفد ، ورأى فيها آراء سديدة صدقتها الحوادث ، وأثبتت صحتها الأيام ، ثم قال في النهاية :
«... نعم ما صنعناه ، ونصنع في كل حين ، وذلك هو العبد الذي نعدده القراء عليه ، وتلك هي الذكرى التي نعيد بها إلى الأذهان والضد ..»

هذه مقتبسات من الافتتاحية التي صدر بها هذا العدد وقد وكد «العقاد» العزم على متابعة إصدارها ، ولكنه مالبث أن حاربه خصومه بأساليبهم الحربية ، واتفقوا مع متعهد توزيع الصحف على قتلها ، وهي في المبد .. فانصرف الكاتب الكبير ، عن السياسة إلى الكتابة الأدبية وتآلف الكتب كما كانت عاداته في كل أزمة ينحط فيها عن الكتابة السياسية ، فيجد في ميدان تآليف والكتابة في الصحف الأدبية والعلمة مجالاً لعلمه البالغ .

انقطع «العقاد» عن الكتابة السياسية ، أو انصرف عنها حيناً .. ثم كان انشقاق الوفد الثاني بزعامة أحمد ماهر ، وتآلف حزب «السبعين» ، وأصدر جريدة الدستور ، وطلبوا منه أن يكون رئيساً لتحريره ، فلم يغبل ، واعتذر

بانصرافه عن الكتابة السياسية ، وكان وقتئذ يؤلف كتاب «سعد زعول» الذي صدر في ستمائة وثلاثين صفحة ، ولما أصدر هذا الحزب جريدة «الأساس» كان محمود فهمي النقراشي زعيم هذا الحزب ورئيس البزرة وقتئذ بعد مقتل أحمد ماهر ، فالح على صديقه «جاس عفا» ، أن يحرر في جريدة الأساس ، فأخذ يكتب مقالاته السياسية مستقلا في أوانه التي يراها في الأحداث الوطنية والمسائل القومية كعانت في كرم ما يكتب ، وخصص «يوم الثلاثاء» للكتابة الأدبية ، ولكن جهده الأكبر بدأ تعصت جريدة اضياء في سنة ١٩٢٦ قد انصرف إلى تأليف الكتب وتحرير المصول : أدبية في المجالات شبرية والأسبوعية .

وسطيع أن نقول أن العدة اشر بدأت من سنة ١٩٢٦ إلى أن انتهت بوفاته في مارس ١٩٦٤ كانت أنصب إلتما ، وأكثر تليفا من غيرها في حياة قلته المبركة ، فقد ألفت فيها خمسة وسبعين كتاب من مائة كتاب ويك ألفها طول حياته .

هذا عندما نخدم خمسة عشر ألف مقال أو تزيد كتبها في الآداب والعلوم والفنون في الصحف العلمية والآلية وما يعلا منات من الكتب الأخرى إلى ما خلف من مؤلفات غزيرة .

٧

ولقد كان ديمقراطيا في حياته ، واشتراكية تعاونيا في مذهبه ، فقد سئل يوما : «لماذا هو ديمقراطي؟» أجاب : «لأنني لست بالمذل ولست بالذليل ، ولست بالمؤمن بصلاحيية الاستبداد في جميع الأحوال ، وهذه هي الأسباب التي تيفض إلى الاستبداد حيث كان ، وتحبب إلى الديمقراطية حيث كانت ، ولو كانت بين أناس لا يستحقونها حسن استحقاق

«فالحرية في أقبح أوصافها خير من الاستبداد .. وقد شبع العالم من عيوب الحكم المطلق ألوما بعد ألوف من تسنين ..»

وقال عن مذهبه الاشتراكي من مقال كتبه في ذلك : «إنه هو اشتراكية التعاون التي تحداها وفاة الأمر في وطننا ، لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة

العامل و قلاح ، وتحديد الثروة على أنواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الأمة وهي اشتراكية تؤتي ثمراتها على التحقيق ، كلما تدبعت بها التجربة بعد التجربة ، على أساس التوفيق بين تقييد الاحتكار والاستغلال ، وإطلاق النشاط الحر ، وكفاية الضرورية في ميادين العمل كافة ..»

٨

وقد كثر في عهد ثورتنا الحاضر مقالات العربية والعرب والسياسة العربية من حداث العامة ، وكتب عن كتاب «فلسفة الثورة» للرئيس جمال عبد الناصر ، مقلا ضلها قارئ في بين الثورة الفرنسية والثورة التركية ، والثورة الصينية ، والثورة المصرية ، ثم قال عن كتاب رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر :

وبعد هذه المغارة السريعة بين ثورتنا ، وثورات غيرنا نرى أن المفاهيم هي التفصيلات قريب كالتفاهم على الأصول الكبرى .

فقد فرت الصفحات الشائين التي كتبها الرئيس جمال عبد الناصر في كتاب «فلسفة الثورة» فخرجت منها وأنا أعتقد أن الخلاف عليها أقل خلاف في نشر هذه صفحات وفي مثل هذا الموضوع .

«صواب ولا شك أن الحركة المصرية ، لا توصف بأنها تمرد عسكري» .

«وصواب ولا شك أن الحاضر يعي بعض بقية من مساوي العهود الماضية ، وهذا هو - ب الأسف والأسى . ولكنه كذلك باب الأمل والعزاء ، لأنه يدفع اليأس من النفوس إذا عولج ، فلم يذهب به العلاج بين عشية وضحاها » إذ لم يكن يكمن في غمضا عين أن تزول رواسي قرون» .

وصواب كذلك ، أن الشك أفة معلة الجهود معلة للأفكار والآراء ، فليس الإنصاف وحده بالذي يتسلع لأصحاب الشكوك ، ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد أجيال وأجيال ، ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ شفع الإنصاف .

«يقول» «رؤس جمال عبد الناصر» (كان من السهل وقتها ، وما زال سهلا حتى الآن أن تربق دعاء عشرة أو عشرين ، أو ثلاثين ، فنضع الرعب

والخوف في كثير من النفوس السردية، ويرغمها على أن تبذل شواتها وأحقادها وأهواها..).

«ثم يقول: (.. ولكن أية نتيجة كان يمكن أن يؤدي إليها مثل هذا العمل؟.. كان من الظلم أن يفرض حكم الدم عليه حين أن ننظر إلى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوس جميعا تلك الآثار).

«نعم يمكن ذلك طالما، ويكون أكثر من ظلم، لأنه يصيب من لم يصيبه العقاب فيضاعف داء الشد والحزن، ويصير خاتمة العلاج، وينس من عقابه..» ثم يتناول العقاد بعد ذلك بأسره في فلسفة الثورة بالسليق.. ويقول في ختام المقال:

«... على أن الصفحات الثمانية التي تحمل في فلسفة الثورة لا تنحصر بالقارئ في حدود الأفق المصري، وإن كنت لا تخرج به من أفق المسألة المصرية في أوسع حدودها، فالمصري في عصره هذا لا يهتم بوضعه هنا إن لم تشغل علاقاته بثلاثة أقدار أو عوامل... فخص لنا من وضعه، وهي العالم العربي والعالم الأفريقي والعالم الإسلامي من أنفسه إلى أنفسه.

«... أين نحن من العالم العربي؟

«أين نحن من العالم الأفريقي؟

«أين نحن من العالم الإسلامي؟

«نحن في قلب كل عالم من هذه العوالم فليس في وسعنا أن نجعل علاقاتنا بها ومستقلنا معها، يقول الرئيس جمال (إن نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية فنحن أقوياء أقوياء..).

«ويقول (إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المحتف الذي ينير اليوم في أحشائنا إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض، ومائتي مليون من الأفريقيين، إذا في قلب أفريقيا، والنيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب قارة..).

«ويقول رئيس عن العالم الإسلامي (حين أسرح بخيالي إلى ثمانين مليونا من المسلمين في أندونيسيا وخمسين مليونا في الصين، وبمئة ملايين في الملايو - يسام ويوزما، وما يقرب من مائة مليون في الباكستان وأكثر من

مائة مليون في منطقة الشرق الأوسط، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتي، وملايين غيرهم في أرجاء الأرض المتباعدة - حين أسرح بخيالي إلى هذه مئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة أخرج بإحساس كبير بالإمكانات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع، ولكنه يكفل لهم وإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة).

يرتبط العقاد على كلام الرئيس، فيقول:

«وهذا كله صعب في الجملة والتفصيل، وليس الاهتمام به من ضروب الشياطين، كما يتخيل المتحيل الوداع في عقرب داره، بل أخشى أن أقول إنه من أعباء الشيوخة قبل أوانها.. بل من همومها في أوانها، إن كان حمل الهموم البعيدة وفد على شيوخ.

«وماذا صنع أن جنى البترول على العالم العربي، فضيعه بدلا من تزويده بأسباب القوة والندوة.

«وماذا صنع أن أصبحت أفريقية المستعمرين الأوربيين ولم تصبح في الغد أقرىب أفريقية للأفريقيين.

«وماذا صنع أن تهدم معنى الحياة، كما تهدم الحضارة الحيوانية، أو كما تهدم الحضارة الحسية، ولم نعتصم من التيار الجارف بفصمة شريفة نغمر نفوس السلاطين، وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة، أو غمار الغنوط والحيرة؟

«فروض حسام ولكنها فروض واقعة لا نهذا ولا تنام..»

٩

ذلك يعني ما جاء في مقال العقاد عن «فلسفة الثورة»، وهو مقال يعد من عيون مقالاته التي لم نجدها في كتاب، وقد أثرنا أن نتحدث عنه في هذا التقديم.

أما مقالاته الفلسفية والأدبية والعلمية الأخرى فقد أضفنا بعد الفصل الثامن إلى هذا الكتاب فصولا أخرى تتنوع على «ذكريات شخصية» ومقالات عن

«أرض الميعاد» هي بحوث كتبها بعد زيارته للسلطين قبل التسميم ، ومقالات أخرى في الأدب والفلسفة والشعر والدين ، وهذه المقالات اخترناها مما لم ينشر في كتاب من كتبه ، وفي عزمنا أن ننشر من هذه المقالات مجموعات أخرى في كتب ملائمة لموضوعاتها المتعددة ، أو المتجذسة في الفن ، والفلسفة والعلوم والآداب عما قريب ..

وقد أنتج في الأثنى عشرة سنة الأخيرة أضعاف ما أنتج في غيرها من السنين السابقة لعهد الثورة ، فمنذ قامت الثورة المصرية في سنة ١٩٥٢ إلى أن غلبت ما يربو على أربعين كتابا ، وهذا يدل على تشغله الكبير في شغلته بعد أن بلغ الثالثة والسبعين من عمره .

ولقد كانت الدور العلمية والأدبية تتسابق إلى نشر مؤلفاته ، كما كانت الصحف والمجلات تهتم بنشر بحوثه ودراساته ، وكان من عاداته فيما عدا مؤلفاته ومقالاته السياسية أن يفضل اقتراح الحريدة أو المصحف في الموضوع الأدبي أو العلمي الذي تريده ، أما الموضوعات السياسية فهو صاحب اقتراحاته ، لا يقبل من أحد أن يعنى عليه اقتراحا سياسيا سيق فيه ، ولو كان سعد زغلول الذي كان يقدره ويحبه ، وفي ذلك يقول :

«أبى أفضل اقتراح المقالات الأدبية للمجلات والمصحف الجيدة لسببين

أحدهما أنه يريحني من حيرة التردد بين الموضوعات الكثيرة ، فلا أضيق الوقت بين المناسب والأنسب ، وبين الحسن والاحسن ، وثانيهما أن ممروري المجلة أو المصحف أولى باختيار موضوعاتها وتبويبها ، فإن الكتاب قد يكررون الموضوع إذا اختار كل موضوعه مستقلا باختياره من غير مشاوره ولا مقابلة ، فلا محل للاعتراض على ممرر المجلة إذا اقتراح موضوعا لكل كتب يعاونه على عمله ، ولا مساس بكرامة الكاتب من الاقتراح عليه ، بل هو يتخير ذلك دليل على الثقة ، وتحقيق لقول القائل : «أحب تجد ، ويخلصين به القدرة على الاستجابة لكل سؤال .

«وأتى على ترحيبي بالافتراح الأدبي ، أرفض كل اقتراح سياسي بكتابة في مسألة من مسائل السياسة وقد كان سعد زغلول رحمه الله - وهو رئيسنا الذي حبه رحمه - يعلم ذلك ، فلا يقترح على كتابة ولا لك عن المسألة

وغاية ما يستتبعه من طلب الكتابة إذا أرادها أن يبسط المسألة المناقشة ، ويسمع ما تقوله فيها ، فإن وجد أن الرأي متفق مع وجهة نظره قال : «أود أن أقرأ لك شيئا في هذه المسألة» .

«وقد حدث أن المؤيد جورج لويد ، المندوب السامي في ذلك الحين طلب إليه أن يكلفنا عن الحملة عب ، وأسل إليه من يلفه أنه يحسبه موعزا بها ، فما زاد على أن قال قوله الشهيرة : «هذا شرق لا أريه ، أو تهمة لا أدفعها» .

«ولم يفض إلينا ما حدث ، بعد خضاع الأزمة ، وقد سيرت فيها الأساطيل للإنذار والإرهاب ، أو تهديد والتعتيل ، وإنما نحمد الله على ما فرق به بين الأدب والسياسة ، فبلا ذلك ما طفت بأنفسنا اقتراحا في الكتابة الأدبية ، ورفضنا الاقتراح لي سببة وأكره ، وإن تحركت له الأساطيل» .

هذا ما أودنا أن نقدره بحبه قدام ، وأن نشرع أحداثه ونفحاته السياسية والأدبية بالإجمال - بعد ما وقف الاستبداد العقاد عن ابتداء ثورة سنة ١٩١٩م ، فقد كان لي عزيمة أن يكمله ، ولأمر ما رلق به هذا الموقف .

ويرى القراء فيما قدمت من صفحات هذا التقديم صغيرة واضحة - وإن كانت مركزة في لمحات - عن حبه هذا القلم وصاحبه في نحو خمسة وأربعين عاما من حياته القذة .

فمسيبة قلم العقاد هذه عظمة بلا ريب ، ليست كحياة أي كاتب أو أدبي في عصره ، ويزيد هذا الحبة قيمة ومكانة أن صاحب هذا القلم كان عصاميا في نشأته وجهاده ، وأنه في كل ما حص من علوم وفلسفة وآداب ، كان أستاذ نفسه وولي أمره ، ومدرسة فنية جامعة ، ومكتبة نفيسة بالاطلاع الواسع .

وقد زود اللغة العربية وعظم آداب بثروة قيمة إلى ثروتها الكبرى ، ولو أن كتب العقاد ومؤلفاته ، ففتت من المكتبة العربية لخسرت خسارة فادحة لا توضع ، لأنها عصاره فكر قدير ، وحسنة قريحة خفية ووليدة ثقافة أصيلة ، وإنتاج ذهن عبقري ، عيش صاحبه أدب مجاهدا ، وعالما مفكرا ، ومؤلفا غزير الإنتاج واسع الاطلاع ، فيليرد - من المبادئ - عقيد الأمل .

صفاة أحمد الطنجاوي

... ولاؤكم لهم ...

لا أعرف عيسى

سؤال سَمِعَهُ كُلُّ يَوْمٍ وَلَا تَجِيبُ عَنْهُ ، وَلَا يَجِيبُ عَنْهُ ، لَئِنْ فُرِ عَرَفَ
مُتَبِعًا غَيْرَ عَنِ الْحَرَابِ ، أَوْ جَوَابَهُ لِبَسَاتِ الْحَالِ يَقْنِي عَنْهُ بِالسَّارِ حَقًّا
وَكُنَّا نَقُولُ كُلُّ مَنْ يَسْأَلُهُ : مَقُولًا .. كَيْفَ لَا نَعْرِفُ نَفْسَهُ ؟ .. تَعْرِفُهُ
مُحَمَّدُ

ويعود أقوي بعد تجربة هزيمة البوارجة الجميلة التي عرفتني إلى كبر
الأعداء وصغر الأعمال على الماء :

إن الإنسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق ، وأنه كثير ما يكون تخبط
عنده غرب يبحث عن سر غريب ، ولا يفرق في هذا بين سطح عن -
وابحث عن أعماق غيرها إلا في الزجاجة والحقارة . بحكم العادة والتكرار

مدد پت مع نفس!

بحسب تقرير المهندسين من مسيرته^{١١}، فقد سبى في حربه
نبل ذات سنوات قليلة.. وأزيد القارئ نقول إنني منذ كنت من حشوه
وقهوت^{١٢} في عروصه، لم يعبه في أواخر الحروب صناعه خدمه
ولم تكن تسمى صناعه الصناعات المهمه في أول الأمر غير صناعه الصحافة

ولكنني مع هذا أصل نفسي الآن كما سألته من قبل - ماذا اخترت فـ
الصناعة بين غيرها في طفولتي، وجعلتها أصلاً من أصل الحياة الكبرى . ير
أصل الحياة الأكبر ؟ فلا أدري - عت هذا الاختيار على مسر التحليل . و
أستغني فيه عن التحسين أو التخصيص الكثير ، بعد المقارنة بين تذكيرات طفولي

(١١) مكيه - الفصل - : هو ذل لفصول حياه قم - في أغسطس سنة ١٩١٨

وملابستها وبعد أن رجع من هنا وانتك من هناك ، كما يفعل الباحث في
السيرة والتراحم حين يعمد إلى التفتت عن حياة الآخرين .

وأكثر من هذا إنني أضيفه نفسي، هي تروى مني وتداول أن تقمنى بوجهة غير الوجهة التي تعبت أو تعسني، ثم تلافى منسبين وأكاد أسألكها : أنت هنا؟ وتكاد تسألني : وما أنت يا صاح ؟ ثم لا تلبث أن تعلم أننا لم يفهم بعضنا بعضاً من الكلمة الأولى ، وإتة نحتاج بعدها إلى كلمة أو كلمتين شوب بعدها إلى التذرع والخلق .

• • •

قلت: إني لم أعرف لي في طفولتي، فعلا غير ساعة الغم.

2000 2001

وهذا غير صحيح

صحيح إذا نظرنا إلى الوجهة القصوى من نهاية الطريق

وغير صحيح إذا حذرت إلى عطفة عنا أو متعرج هنا - أو لفتق بين بين في
شأن خاصة

كَلَامٌ لِّمَنْ تَعِبَ حِينَ أَنْ أَكُونَ جَنِيًّا . وَتَمَنَّى حِينَ أُخْرَى أَنْ أَكُونَ عَالِمًا
رَاجِعًا . وَهَذَا فِيمَا بَيْنَ صِنَاعَتَانِ مَبْعُوتَانِ !

وكتبت أم أبيك أن علمت أنني تغتبت بالحنية لأني أريد صناعة القلم ،
 وبقيت بالطول الزراعية لأني أريد صناعة القلم ، وإن صناعة القلم كانت
 مخزى بين شيوخ السحرة من وراء القباب وإن أعجبني أعزّل صناعة السيف
 أو أعزّل صناعة الحمل والحراث

حادث مع قومندان (نعلیز)

كانت لغة الجيوش في أواخر القرن التاسع عشر لغة الأضداد المنفصلة في أسوان ، وكانت دروب الملية وحيضان العدائي والمكاتب ميادين قتال لا ينتهي بين جيش مصر وجيش السودان وجيش اخراويش وجيش الترك وجيش الإنجليز .. وكثرت قيادة وجنود من صلب الأضداد الذين لا يجاوزون العاشرة ، لأن المسألة كانت حادة - ولم تكن عب فمصب - مع الأضداد في

هذه نحن على الخصوم . إذ كانوا يسمعون أن الدراويش إذا دخلوا قرية قتلوا رجالها وسبوا نساءها ، وحملوا أطفالها مطعونين على أسنة الحراب . فلاحية تشعب هذه الحرب عن شواغل الخطر والخوف فضلا عن شواغل الأكل .

ومع أتمت أمامي حتى الساعة ، وأبتسم كلما تمثلك - منظر زميت المقام - عبد المعطي فرج ، قائد المييش السوداني المغير على مكتب « الخوارج » في المعسكر الإنجليزي ومن يصيح وأنه في يد اغريمان اجبر .

بنت في هذه الهجة زودها حنين ، وعلف زادت في الحقيقة أكثر من حين .

قريب - من قادة الجيوش المصرية - وسودانية - أن يبحر حقا على بعد من الإنجليزي في معقله بجانب المدرسة . وكان هذا القويون ربح . صديق يخدم الإنجليزي من درويش به من درويش من درويش الخاضعون لحكمه العرفي ، فقد هو لا أن سمع دبة عبد المعطي تحت السر حتى وثب إلى باب مستدير ان يجترئ أحد على اقتحام مكتبه هذا الاقتحام في وفتح الباب ، وفتح له على قائدا المفوار - عبد المعطي - باوذر الوحيد الذي لا يقبل تصديق في هذا الحرج الشديد . إذنه بين أصبعي لرجل ولسته بسمي . إنه من هو المتبوض عليه .

على إربابنا :

هذه اللعبة لعبة الجيوش - كانت شغلنا الشغل في المدينة التي لا لعب ولا هور فيها ، وكانت من جانبك أن على الأقل لعبة عسكرية أدبية في وقت واحد لا تترك قائد الجيش مصري الذي يطلب الخبرة من الأعداء ويطلبها على الطريقة العنصرية الهلالية الخيرية المشهورة في ملاحم شعراء لربية : فلابدا الصداقة قبل - من الدور - من حسن - من حسن - من حسن -

وكان وملاؤنا - أو أعدائنا - يستقنون في تحضير هذه الحديسات بشعراء الردية الذين امتلأت بهم قهوات البلدة في أيام الحملة السودانية وأغثوا عن المصارح وملاعب البهوات والغرفيزات ، لآدمحام المدينة بالنور والباغة من أنشاء الصعد - ملاب هذا الضرب من القصص والأناشيد - ومن لم يجد من الطلاب بغيته عند شاعر الرابة طلبها في بيت هنا أو قطعه هناك من كتب المحفوظات أو روايات التمثيل ، وفيها الكثير من مواقف الفخر والحماسة أو مرافق التخريف والتبريل .

وكانت أن قد جريت نظم لشعر في بعض المقاصد المدرسية ، فاشجعتني التجربة على نظم الأناشيد الحماسية لميدان المبارزة ، وأدت من كنت للسبعين أننى صاحب لك الأناشيد فلنرت في نظمها أن من اسم كمالا في كل قصعة منها ، واستمرت بها انتمارا أعظم من انتة رالف - إذ أوتست الدوثة كلها أن تنحصر في الاستماع إلى قصائد غرور والحداثة بنبر قتال

و انتهت مدتي في الجندية نهاية هذه الجندية المتطوعة ؟ ثم يعسر على أن أقوم أن حصاة لتسديد في بيت القصيد عددي من اجندية ونجيد ، وأنه كانت منفسا للملكة الناشئة التي لم تستقر بعد على قرر ..

سرتولع بالزراعة :

اما النوع بالعلوم الزراعية ، فلم أبحث أن علمت أنه في دجبتة ولع بتطبيق الأشعار التي أنراها عن الأزهر والعصافير والحدائق وجدود لعاء والأشجار .. وربما كان مدخها إلى نفسي أعمق من كنت وأخفى مكانا على النظرة الأولى التي نظرت بها يوم ذاك ، فلن علوم الزراعة معين على مراقبة أطوار الحياة وغرائب الحيوان والنبات ، وليس أوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك الغرائب والأطوار ، ولا أراى حتى الساعة أوثق كتاب في سيرة علم من أعلام التاريخ على كتاب في طبائع الأحياء والحشرات أو أثرها القديمة في بذي المعريات ..

كانت أمية الجندية وطيم الزراعة إذن ترجمة لأمنية الكتابة مستعارة في صور الصناعات الأخرى، وبذخيرة حين نذكر أنها كتابة لا تخلو من تضال، ولا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والأحياء.

ومثل هذه الترجمة فيه، أذن معهودة في كل محاولة دشنة قبل أن تستقر على قرارها، فلا يزال الحس بمعنى شينا بعد شئ ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه على القرار الأخير، ويؤمنذ يعلم أنها كتب جميعا أمنية واحدة في باطنها، وانه كان بينه وبين نفسه في هرب ولذة كأنهم في مرد البحث والاستحفاء.

أول مجلدة:

وأما سائر ما نحن عليه لم اسم من، ورده الباعث الصحفي في نفس مبلغ ايقين الحزم الذي لا رجعة فيه ولكني على يقين جازم من أنني أنشأت صحيفة في صفولتي البكرة، والتي لم أنشأ قبل أن أطلع على ورائه دولا المنشرة في جني، وأكثر في صحف أسبوعية أو شهرية قيمة، وأكثر هذه اصحف القديمة من مجلات المذمومة، وليس بينها أكثر عددا ولا أكثر حقوة عندي يونذاك من مجلة الأستاذ.

ودولاب المنشرة مستودع عزيز يعرفه أبناء لريف ولا تخلو منشرة في بلدة ريفية من دولاب منه على الأقل، يفرغ في جوف الحائط ويقام عليه باب بمفتاح أو بغير مفتاح، ويغلب أن يكون الباب بنير مفتوح لأن الدواعي التي يحرص عليها أصحابها لا تدع في المنظر على مقتول الداخل الغريب.

وعلى تعداد الصحف في دولاب المنشرة عندها أم تكن بينها صحيفة أبرع في العناوين من صحف عداها، وكان هذا الصحفي المضبوط أستاذ زمانه، بل لعله أستاذ من أساتذة لعزوين في كل زمان.

من عناوينه عنوان «كان يكون للترجمة» وعنوان «التنكيك والتبكيك» لاسم صحيفة، وعنوان «المسابير» لكتاب فجاء، وعناوين أخرى بهذه البراعة لعشرات من القاصين والأخبار.

معارضة التمدد:

وافتتنى لعزوين البراعة فقرأ، كل ما وجده من صحف التمدد، ووجدتني ذات يوم أطلع الرق قطعاً على قدر المجلة وأعد إلى مكن العنوان منها فأكته بضمي متلفاً وأعارض عنوان «الأستاذ» بعنوان «التلميذ».

أما الدقة الافتتاحية فقد كانت أيضاً من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التي تردد صداها زمناً في السبب المصرية، وهي المقالة التي حمل عنوانها «في كتبه مثلاً للعلم فعلمنا» وافتتح بها الجزء الثاني والعشرين من السنة الأولى.

فكتبت مدلى الافتتاحي وجعلت عنوانه «لو كنت مثكم ما فعلت فعلكم».

وكان قصوى مدل التمدد أننا نطلب الاستقلال وتدعى أننا والأوربيين أسياد وأمثال، ولكن الأوربيين يتكرونها هذه الدعوى، ولا يكفون أنفسهم غير بل واحد يشترى به الفارق الجعيد بيننا وبينهم، فإذا قلنا لهم نحن مثكم قد كنا تلك دعاكم، ولو كنتم مثنا لفعلتم مثنا.

واستغرقت مقالة التمدد أكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله «إن آخر من الكس وقد بلغ السيل الوبي فإن وقتنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا، أن نقول لأوربا نحن نحن وأنتم أنتم، وإن بقينا على هذا التضاد والتفاد والتياذ بالأجانب فربما بعد هريق حق لأوربا أن تطردنا من بلاد إلى نفوس الحبال لتعلمنا بالهمم الوحشي وتصديق في قولها: لو كنتم مثنا لفعلتم فعلنا».

وتناولت في مدلى فقرات التمدد واحدة واحدة برود لا أنكرها الآن، ولكني أذكر «ما يدل عليه العنوان» رفحوا إسا نحن الشرقيين لو كنت مثكم - أيها الغربيون - فاحسن متصرفين لما فعلنا فعلكم من تهب الأموال واستباحة الحقوق وغشراء الأكاذيب والتعلل بالمراعي، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد أن نفعل فعلكم، وسرور فعلنا عما قريب.

ثم أصدرت من صحيفة التلميذ لمخطوطة بضعة أعداد لم يكن لها من قراء غير زبائن في المدرسة وأقارب المشجعين أو المتتدرين المتفكرين - ولا يكن لها من ترك غير يعب الضحك لمن يراه مستحقة لهذا الشئ.

عبادة.. من أيامها!

أخافني الآن على حق إذا قلت إن هذا السر - سر دولا ب المنظرة - هو كذلك سر لاتحاد الأول عندى لى صناعة القم ، ورس هذا لظن الراجع أننى تعودت من أيامها عادة لم تفرقنى إلى اليوم فى تجهيز ورق الكتابة الصحفية بصفة خاصة .. فهذه الورقة التى أكتب عليها الآن مقصورة على النحو الذى اخترته لصفحات مجلة « التلميذ » ... وستر كتبت صوتها طولا كما تصوىء المجلة روضتها فى غلاف مستطيل كغلاف الذى توضع فيه المجلات . وقد اتخذت من هذه الأوراق ومن ذلك الة آلاف ذخيرة - صورة أومى بصنعها إذا نفدت من السوق ، كما تنفذ أحيانا فى بعض أيام - غروب لعالمية .

وعلى هذا النحو من التخمين نعرف أنفس باحثين مترددين ، قبل أن نصل إلى اليقين إن وصلنا إلى يقين

لكننى لا تنوئنى كلمة سمعتها من صديق كى - نسى كل نسأت عن سر اتجدهى لى صناعة القلم فيقول وير من حدة لى البحث عن رة الاتجاه ؟ لا يكفى أنك أنست من نفست القدرة على الكتابة مايجت لى صناعة الكتابة ؟ ..

ولست على رأى الصديق فى هذا التعليل لانجودتنا القارة ، لة إن السلطة النفسية نحو فينا قبل أن تخلق لنا أدواتها ، وربما كانت سهولة الكتابة عندى نتيجة مستمدة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئا لة لأننى سيكون كتيب يوم من الأيام متى تيسرت الأداة .

على أن شعور الطفل بقدرته على الكتابة لا يثر عليه أن تمنى المذاكرة أن يتمنى الوجة الاجتماعية أو يتمنى صناعة اقم سبتدنا بعض من الأعمال الكتابية غير الصحافة ، ولست أعتقد أن مئات الامباء والمهندسين والمناغ وذوى الملكات المصوغة الذين ظفروا من أيدء جب قد استلهموا اختيار صناعاتهم من وحى القدرة على علم من علمهم اسريسة ، بل لعلهم توجهوا وجهتهم فى مستقبلهم على الرغد من جيب ات اند

جيل وجيل

كن عبد لكه اخبرم تاذ سرسته فى اصحافة والدعوة الوطنية ، وكان كل من نشأ بعده بظليل بين واحد من اثنين : إما تلميذ يقتدى به ، وإما خصم يعضه ويغشى له

وإنشأ مصطفى كمر فى هذه المدرسة . وكان خصوم النديم يزعمون أن لثريو لم يدرس عن : استة يقبل على التسيه إلا لأن اباء الأسرة الضربية نفسوا لثريو رذا كن يصرهم فى الثورة انغرايية ويعمل على تفويض عن : فخر من تلميذه شاب بعيدا عن هذه اشبهة وميزه على سناد سرقة : لة ذخيرة . وقال لى الذين يكن فى كنية «المعلوم و جيل

من أجل هذا قل كنى الان - من الاسرة الحكة ه على ممر ان مة ام الإمارة لا يفرق منه - يد لة عو سرته وجنسه ، وبهذه السيسة الصحكة ال الامر لى الاعمد على «كس» وقد كان كامل من يرددون نغامت اخبرم وإنما ميز العقائد عن امحتبه لمامه باللغة الفرنسية واستطاعته بيان آرائه لثريبين ولم يفن النديم بثل ذلك

إلا أن الأمر لم يكن فى هذه مسألة خاصة أمر اللغة الأفرنجية ، لأن الخديو قرب إليه النصح على يرسف لثريو وهو من أنشأوا الصحف منافسة للنديم وتطلعوا إلى محاكاته فى النصح والأسلوب . ولكننا مسألة المدرسة الصحفية لنى كانت تحمل طو دعوة نام الصحافة المسفرة للنداية الأجنبية . ولم تكن هناك مدرسة تضر هذا نجم فى أول عهد الاحتلال غير مدرسة النديم .

ويصدق هذا على جيل النذب والجيل الذى تلاه ، ولكنه لا يصدق على الجيل الذى نشأ بعد ذلك ستات . ففى هذه الفترة قد اتسع لعوامل جديدة فى لندسة و تفكير لخدغ انرمل التى غلبت على الثورة انغرايية أو على جيل المحضرمين بين الثورة و لاحتلال .

أنا.. والتدبير

ولهذا أرجع إلى ظواهر كثيرة صاحبت نشأة الصحافة فلا أستطيع أن أقول إننى على الجملة من تلاميذ مدرسة النعم . وإن كان الشبه أول من لفتنى إلى العمل فى الصحافة وكانت مطالعته أول مطاعة وحسنتى إلى هذه الصنعة .

لا بل هناك مشابهاة عديدة بين النديم وبينى لا أبى فى هذا من وحدى الخنوة الخفية أو حاتم مصافحة بلبلر قصد منى ولا من غير

فقد بعثت صناعة التفكر كما تعلمها النديم . وتحت بالنعم فى مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ، وجربت الاستخفاف على الصرخة الساكنة أكثر من مرة فى إبان الحرب العالمية الأولى ، وكذلك نصر النديم عن مصروفه فى أعذب الثورة العراقية .

ولكنى - مع هذه المشابهاة - لم أشعر من قبله . أشعر أن بينى وأرجل مديونى اختارة بين أمثلة السوء التى أنعمها أوبى . شخصيات ضالين التى أحب وأحب أن أنتهى إليها ..

وأحسب أن المراجع فى هذا الاختلاف إلى سبب أحسن يرجع إلى الأحوال العامة ، والأخر يرجع إلى المزاج الشخصى الذى فطرت عليه

فالأحوال العامة فى عصرنا تخالف الأحوال العامة قبل . نحن فى الفترة بين الثورة العراقية والاحتلال ، لأن دخول الإحسين مصر كى مسترة دولية تعطل فيها الدولة العثمانية عملاً «قانونياً» يصح الاعتد عليه باعتبار صاحبة السيادة القانونية على ليدار المصرية . وكانت مناورات الدول المتنافسة على فتوح الاستعمار باباً مفتوحاً على محمد . مع منع للتساومات والسنس والمعاصكات ويتفق الأمل به من جانب المصريين . وفى حين

وهذا فيما نظن أحد الأسباب التى تحوّل بانظار - الله حليم وتلاميذه إلى الثورة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر . ركناً مهماً فى برنامج مصطفى كامل والحزب الوطنى الذى قام على يده ..

أما فى عصرنا - نحن الذين ولدنا بعد الاحتلال - فقد أصبحت مسترة الاحتلال عن أعيننا الوطنية التى لا عمل فيها للدولة عثمانية ولا مصروفات

الدولية . ونما يقع العمء الأكبر فى طرقاتنا نحن المصريين .. فلا يجوز لنا أن نقرط فى مبدأ الاستقلال من أجل صيغة «شكوية» لا تفيها فى جهادنا إن صح أنها كانت تفيها قبل ذلك . هذا هو سبب الاختلاف بين حينا وحيل النديم فيما يرجع إلى الأحوال العامة .

وأما سبب الاختلاف الذى يرجع إلى المزاج الشخصى فخلاصته فى كلمتين . إن الرجل كان يتربع كثيراً أو قليلاً على من التهريج ، وإننى نشأت على بيتى البتية بين أرباب محافظين . شـ . صدقته على سمعت الوقار واللباقة . ونقلت هذا الخلق منهم ما رواة كـ . خنوة والمحاكاة ..

كل الناس .. ولا عباس

ومما يحضرنى من كرياتى بعد حوز عشرة أننى رفضت كل الرقص أن انس النطرون القصر يوم دخلت حرمته فى نحو السابعة من عمرى . وإننى رفضت أشد الرقص أن أجيب . . . ثم بعد حين دعانى باسم «عباس حلمى» حديقاً على تقاليد ذلك العهد الترى حيت . . . لأن فى أسماء المعاصرين .. فلم يكن أحد من أتلاميذ يدعى باسم أبيه . وكانوا يلقبون بالقباب حلمى وصبرى والمافى وحسنى وشكرى وما شاكلها على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو المرافقة لجروس . لب ورت فى الاسماع ، فلبقت واحداً من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين بناء من الجيل . ولولا إصرارى على رفض اللقب المستعار لكان اسمى البية «عباس حلمى محفوظ» كما كتب فى قائمة «التصنيف» أى توافق الأسماء والذخ

والى اليوم يذكر شيخاتنا ونيوخ فى الأسرة كلمة الأمهات التى كن يرددن لأطفالهن كلمة أصابهم . يسرع من لتبرط فى المزاج معى راء الحد الذى أسبغ ، فإذا ذهبوا إلى أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذى يقال بين الضحك والغضب . أصبح مع من شئت ما بنى .. ولكن «كل الناس ولا عباس» .

ومن الطبيعى لظن فى هذا مزاج . ينظر إلى مثله الأعلى فلا يره فى صاحب التكت والتكت وصاحب المدسر . وأحسبني لم أفضل الأمهات

إمام محمد بنده على صاحبنا الخديم إلا لسبب من جنة أسباب ترجع إلى هذا المرح ، فبن وقار محمد عبده هو اقدوة التي ارتضيها حين أعر إلى سليم فبخر مني بالثناء ولا يظفر مني بالافتداء ، وكلاهما فما عدا من الخلق متوان بتيمان إلى الثورة العرابية وإلى مدرسة جمال الدين وإلى عصمة رئيسة زهرية ..

مصر سنن ! ..

ولما كانت أسباب الاختلاف بين الخديم وبينى ، فالعصر الذي نشأ فيه لا يسبح لمدرسة واحدة أن تطنى على أفكار الناشئة فى كل بقعة من بلاد مصرية . لأنه كان عصرا مزيجا ، مضطربا بين مصريين ، هب أحدهم ولد بحقه عصر تقالم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من الناسب وما في قلبه يوافق من التفكير الحديث .

كان عصر سراج بابل يبنى ويعد بناؤه بين عام وعام

كانت تعيش فى عصر الجامعة الإسلامية على مذاهب ، يعيش فى عصر جديد وطنى ، أى مذهب ، ويعيش فى عصر التجديد الفكرى على مذاهب ، ولا يرى عامنا مذاهبا واحدا فى قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات .. فالجامعة الإسلامية مدرستان ، مدرسة جمال الدين ومدرسة محمد رشيد

مدرسة جمال الدين تعنى بالجامعة الإسلامية أن تكون حرة ، شجيرة ، متيقنة مسئولة عن شؤونها مرعية الحقوق مع ملوكها وأموالها ، فعلا عن حقوقها مع صعب لمريضين بها ..

ومدرسة الدعوة الرسميين تعمل الاموك والامراء وتريد من الجامعة الإسلامية أن تكون وحدة سياسية برعامة هذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وعلاوة على ذلك فى مصر من كان يعمل لخليفة بنى عثمان

وعند ربة الجدد الوطنى على هذه الحال :

مذهب يعتمد على مناويزات الدول وحقوق السيادة الشرمية ، ومذهب يستصنف هذا الرأى ، ويحسب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة فى أمر لتمويل على السيادة العثمانية ، لأن حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتد عليها ، بل كان مجرد الانتداء إلى الرجل المريض صاحب التركة المنتظرة - كما كانت الدولة العثمانية تسمى فى ذلك الحين - ذريعة إلى ضيق بلد فى معركة النزاع على التركة أو فى مسنومات لتقسيم واقتريق ! ..

بلبلان !

يزيد البرج بلبالا خايط الأصوات المنومة من جفعة الدعاء للأجودين المسخرين لخدمة الدساسس الاجتبية .

فمن هؤلاء من كان يضرب المعول فى أركان نخوة العثمانية جامدا مكابرا باسم الإصلاح والثورة على الاستبداد ، وهو فى باطن الأمر صنيعة للدول وسعمار من سمارنة لامتصاص الدينونة فى النوق إلى هدم الإسلام وتمكين المستعمرين من الدولة المسقة الباقية بين بلاد مسلمين ..

ومن هؤلاء من كان يعلن النيرة على حقوق مصر والنوة العثمانية ، وهو فى باطن الأمر صنيعة السياسة الفرنسية فى الشرق يذوق الاحتلال بأفورها ويورط البلد فى المشكلات تحقيقا لمأربها

ومنهم من كان يشر دعوة الجامعة الإسلامية ليتخذا وسيلة إلى إيقاع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، تسيلا لدعوى الخول التى تستفيد من تهمة التعصب الدينى ، وتلوح بها لإفئاع الأجانب بدجتهم الدنة إلى الحمية من دونه اوزبيه

ومنهم من كان يطلب الدستور ، ولكنه لا يطلبه حيا للحية ولا إنسانا للامة بل تمزيقا للسنان الخديق .. وتمهيدا لإطلاق يده فى ميزانية الدولة ووظائف الحكومة بمعزل عن دار المنسوب البريطانى ومستش ريبها فى الدواوين

بلبال ، وأى ببال ..

وأشد منه اختلاف بلبال آخر في ميدان الفكر والثقافة ، ويضطرب فيه التول بين تكفير عن بعض بالثقافة الحديثة وبين اتهام من يزورها بالجهل المطبق والبهيمية تعجب . . . وسوف نعرض لهذا البلبال الفكري في مكانه من الفصول القادمة . نكتا نداء بالكلام عن الصحافة وموضوعاتها الغالية عليه قبيل اشتغالي - تحرير سبها . ثم نقفوه بالكلام على غيره من الموضوعات . .

بلبال بحث إلى جانبه ضرساء برج بابل . . فأين يذهب الطفل الناشئ في دروب هذا - فيه ودياه بين مهايطه ومراقبه . . ١٩

وان في السادسة عشرة !

لا أعيد ب كل د عرض في في هذا الضربة من حيرة وشك وعترات وأزمات لكنني قد علمت ببحين أشي كنت على قرر واضح في كل قضية من هذه القضايا حين بعد السادسة عشرة . ثم عملت لأول مرة في تحرير صحيفة الدستور

الجامعة الإسلامية عندى في جامعة جمال الدين ، أو جامعة شعوب مدنية متعاونة : جاء . . ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخفيف ذلك السلطان

الدولة التركية تسمى بقاعا وصلاحيها ، ولكننا لا نتعنى سيادتها ولا نستمع لمن يحارب باسم شعوري والفتنة على الاستبداد .

الأولانية لا تفعلنا إن لم نفع أنفسنا وسياسة مصر للمصريين هي أقوم سياسة تعجب المصريون ويهملون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجب

الحزب - وحتى حزب مظمس مجتهد ، ولكنه مفرط في محاماة «بلدن» و«عابدين» - مصر في مسعيا نحو «مصر للمصريين»

الملوك والنسراء يخدمون القضايا بمقدار ما تخدم عروشهم ، فإن تالقت مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وإن تسببت الطريق بين هذه المصالح وقت نصحهم فلا خفاء بالطريق القويم

الحكم الدستوري لا غنى عنه ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الأحوال . .

داخل النطاق

منذ كتبت في صحيفة الدستور لم تخرج كتابتي عن هذا نطاق في قضية من هذه القضايا .

لم أمدح الخليفة «عبد الحميد» إلا في مناسبة واحدة وهي إعلان دستور ، ويومئذ كتبت أريانا أفئدة بها وأسجل تاريخ الست بحساب حروف جديدة ، فكان التاريخ هذه اشطرة

«قد نشأ الدستور عبد الحميد» .

ومجموع حروفها بحساب الجمل «١٢٢٦» ، وهي السنة الجبرية في أعلن فيها الدستور .

ولما توفي مصطفى كامل شيعه صحيفة الدستور - وهي من صف الحزب لوطني - برثاء أبيغ من رثاء صحيفة اللواء ، وتكنني أحضت عن رثاءه بثناء خلو من النقد وأحضت في ذلك المقام من نقد سياسته في الأمانة وقبل الخديو وقبل السيادة العثمانية ، وكاشفت الأسا قريد وحدي بخاخي وخرج صحيفته وهي لسان الجامعة الإسلامية الأولى ولسان الحزب الومي الثاني بعد اللواء ، فقال لي رحمه الله أنه ينهم هذا الحرح ووه يقويه على بما أتجاشاه ، فأثرت الصمت عن الرثاء على ثناء بغير نقد - وقد سحفت ، شمرج ، بين مضطرب الآراء

وانقطعت الصلة بيني وبين الصحيفة بضعة أشهر لا كنت قيب ولا أكتب إليها ، ولكنني كتبت إليها مقال الرعيد من الخارج بيد أعلن الدستور في إيران ، وقلت فيه مهننا للتشاه الصغير : لو كنت في فرنسا ذكر مصيرك كمصير الصبر ابن لويس السادس عشر . ولكنك تسم الله لك في بلد إسلامي وتحمد لشبك - ولا ريب - حميل هذا الصنيع

والآن - بعد نصف قرن كامل - أقول إنني قد جربت هذا البرنامج السياسي، الصحفي، في مشكلات هذه الحقبة وأزماتها جديدا . فحمدت مغبة هذه التجربة ، ولم أجد فيها وجدته من الحوادث المتناقضة برنامجا أصبح منه ولا أصلح للقضية مصر وقضايا الأمم الشرقية ، ولا أعلم أن الحوادث بعد الحوادث كشفت لنا عن خطأ أهدى منه للعالمين وأحق منه باتباع المتعصبين ..

وبعد ، فإنني لا أحب أن أتفق الفرضي بأصمذع لتواضع الكاتب طالبا للثناء الأكذب ، فأقول إن الحكاية سهلة على كل من يطمح ، ونها حكيمة يطلبها كل من شاء بغير عناء ..

لاستقلال ..

كلا ! .. ليس من السهل على كل - شيء في العشرة الثانية من عمره أن يملك سبيلة بين تلك النقائص والسيئات حين أن يروض نفسه على استقامة المقصد إلى الحقيفة واستقلال الرأي بين شتى الظروف والتعريفات .

ولكنني أعود فأقول إنه لا استقلال انفرادي . ولا استقامة المقصد . كانت كافية لهدايتي إلى سبيل لي لو لم أستفد من ظروف الآونة التي نشأت فيها وظروف البلد الذي نشئت فيه ..

أقد كانت الآونة في مصر آونة ذرية ، لم تمتحن فيها العقول بعد بمحنة المحن في العصر الحديث : محنة تكوين الرأي جماعات جماعات ، فلا ينطوي الشباب في جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على تقديمها وتقديمها ، فهو مع جماعته التي انطوى فيها يقبل خصمها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الأخرى يرفض صوابها كما يرفض خصمها ، وأنه لخاسر هزال في كلتا الحالتين ..

وكانت البلدة التي نشئت فيها يلتصق أسوارها بقصى الصعيد . يكاد الناس في مثل سني أن يأتوا بها إلى صومعة من صومع الفكر يطلب فيها وجود النظر في كل ما يسمع أو يبصر من الشؤون العامة ، بغير تضلل أو تبديل ..

وتلك المروعة القرون الثلاثة جنباً في وسط عناينا فنعمى الصنائع عمدها .
وإن تقدر هذا روياء روياء فلا يصل إلينا حتى تنكشف علم جلاء ..

عن نيت غيرة

بعد .. عن قريبة فيما نرى ، فخير ما يصنعه الشباب في فترة تكوين انفرادي أن يروض نفسه سنوات على الخنوع إلى ما حوله مستقلاً عن هوى الجسد .
فخير من جماعة منها بعد ذلك عرفها بمحبة .. أنها وعيها معرفة سبيل وتبديل ، وهو يعمل فيها آلة من الآلات ..

والواقع أن «الاستقصاء» الذي عولت عليه لم يكن يعبر عن المضي فيها
• نويت . وإنما هو مسألة شكلية على حكم العادة في الاستسرة والاستفارة ..
وليقول صاحبنا ما يقول : فإننى أعددت لصحيفة كذبة وتقسيم وتريب وتسمية
واختصارا للحكومة ، ولم يبق من معداتها شيء غير خبث وتزوير

...

وكنيت أتردد بين اسمين : اسم «البيرق» واسم «رجع الصدى» ، ولا أحسبني
بومضة قصت الفرق بين الاسمين وعنت ما فيه من دلالة على الصحيفة التي
نقود اقراء ولنكف بها الشعراء كما يلتفتن بالبيرق أو عند ما فيه من دلالة
على صحيفة التي ترد أصداء الآراء ولا تزيد على عرض حوادث والأشياء .

لا أحببني قصدت إلى هذه التفرقة ولكنني اسبت على غير قصد مني إلى
نقضي اسم «رجع الصدى» على اسم «المسرق» . وكنت اتعنوان بخطر
ليخرجنا حذر كما كتبت ، بدعه من بدع التجديد في العصور .

ولست تسي نظرة الكتب العتيق إلى من تحت حذيتك - سومة في موضعين
أو ثلاثة .

• • • : ترك خدمة «المبرى» يشتغل بالفرايز والجراي : إن كنت لا تدرك
ما أنت مقدم عليه فانظر هنيهة لترى مائة من هؤلاء «المنتمين» الضائعين
يتمنون شراب تحت قدميك في وظيفتك ولا يصلون به . : يا صاحب . إننى
أراك أعتر من هذا يا بنى .. فلا تخيب أملى فيك .

ولم يفتنى كلامه ، لأننى لم أسمع منه جديدا عن خدمة «المبرى» وقد استنها
في عرفته جيله . ولم يزحزحنى تحذيره فيه شعرة عن نية المضي في
الاستمرار والتقليد .

وانم يزحزحنى عن هذه النية قيد فرسخ - لا قيد شعرة وحسب - منظر أو
منظران من المناظر التي كانت تتكرر في كل حلقة صحف ولا يستغربها أحد
من المنرجين لأنها من أنوار البهنة المتفق عليه ومن «أروها» اثر تمام في
كل قصة فلا يجهلها إلا اثنين جهلن المصنف والمحسن أو الحرف لجية
وجمعة عز ربط وتجار انجريس واحتبيب .

كانت بجوار المكتبة مطبعة صغرية تطبع فيها الصحف الأسبوعية وكان
• مديره إحدى الصحف يرجو صاحب المطبعة أن يجعل بإصدار العدد رئيس
صاحب المطبعة أن يخرج العدد . ما لم يحصل على أجرته وأجرة العدد
السابق الذي صدر قبل أسابيع . يوقف المدير ينتظر كيلا له أرسله إلى
المشاركين للتخصيص وعاد الوكيل عن صورة بقصر عنها أمل المتسول الذي
يريد أن يبالغ في إثبات صناعة التسول واسترداد شفقة المحسنين ،
والمستثنى ! ..

فصاح به المدير : ما وراءك ؟

فأخرج له الوكيل إيصالا معادا من أحد المشتركين . وقال إن المشترك
مسدد قبل الآن .

فسأله المدير : وأين الإيصال الآخر ؟

قال الوكيل : إن الرجل قطعه ورده في خلقتي !

فهم المدير بغضبه وهو يقول مستثقت من الغيظ : وماه في خلقتك ؟
ستحيل .. إن مضجة بيته معروفة يخشى من الإشارة إليها بكلمة ، فلا تقل
نه قطع الإيصال وماه في خلقتك شريفة . بل قل أنك سكوت بالاشتراك
كما لك وجنتنا برائحة الخمر تنوح من فيك ..

وكان هذا أول الأبرار التقليدية المحفوظة ولم يكن آخرها ولا أقبحها . وفي
واحد منها الكتابة لعدول على الأقر عن الخطوة الأولى ، وقد عدلت عنها إلى
الآن .

وتكن لم أحترق انصافا

إن هذه المناظرة المخجلة حفرت في نظري طائفة من المتطفلين على
الصحافة . ولكنها لم تحترق صناعة الصحافة ، ولا نزلت بأعلامها الناهبين إلى
منزلة أولئك المتطفلين . ولست أعتقد أنني كنت مستطيعا أن أحترق هذه
الصناعة من أجل ذلك المنتظر المخجل . ولو كنت من المستغلين بها
والزاهدين فيها . لأن قوة الدعوة قلمية في تلك الفترة قد بلغت في القاهرة

بلغت لا يذاته ما بلغته في عاصمة من عواصم المشرق والمغرب . في أخاليه
تبعه ليوه على علم الفارق بين صحافة اليوم وصحافة مصر وشرق قبل
خمس

كانت القاهرة مركزا لكل دعوة تهتم بها دول العالم ثوات المعاصم في
الشرق الأدنى والأقصى ، ومركزا لكل دعوة يدبرها دعاة اجماعة اسلامية
ودعاة لوجسة العربية ودعاة تركيا الفتاة ودعاة الإصلاح في إيران وأواسط
سيا . ودعاة لحركات الوطنية في مصر نفسها وفي سائر الأقطار الأفريقية
من شارب في بلاد المغرب إلى جنوبها في بلاد السودان وزنجبار

وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى رواجهم
وإيمانهم ولا تمهلهم أن يتجاهلوا طرف من عن أخصاصه وبواقبها ،
وقد حدث أن حركة في القاهرة ولزمت عرش عبد الحميد في الأستانة ، وإن
رحلا خبرته دعوة القلم واللسان ذهب إلى إيران لإشمام هذه الدعوة فطوره
شبه وأنه أشان من وزراء ، فقتل الثلاثة جميع . وقال قتلهم لم قضوا
عليهم بحق انتقاما لذات الطريد . جمال الدين . كانت هذه الحقيقة من وقائع
حزب نخبة عن المقال ، ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان
يقيم في قصره وميناء في شارع محمد علي بالقاهرة ، واتفق يوما أن حويلي
تكبير صاحب « مصباح الشرق » - يخل مكتب المؤيده ويوجد فيه نخبة من
كتاب عموره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقيل وهو يرفق يديه في سقف
نحجره . فإبر أنت يارب أن تسقط هذا السقف على من تحتك ليستريح
عبد الحميد . قال محمد عبده . وكان من زوار الحجرة . نعم . لو تدمت أنت
خضرتين . تلك نادرة من نواير الحكامة التي تخلقها الحقيقة الواقعة ، وما
يكون لها أن تخلقها لو كانت محض مزاح . !

تهيات القاهرة لاجتماع هذه القوة فيها لامتيازها بين عواصم المشرق
بمركزها التاريخي ومركزها الحديث ، ولم تنهيا له مدينة أخرى على مثلها من
أستانة عاصمة الخلافة إلى ما دونها من عواصم الولايات المتحدة و محكمات ،
ولا تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادقة ولا لغة من اللغة العرفية

مصر . رجم المؤيد صاحب « مصباح الشرق » .

فالأستانة هي عاصمة الثلاثة . ومركزها بهذه لستة أهم المراكز في العالم
الإسلامي وعالم السياسة الشرقية على إجماله . ولكن قيام الدورات القلمية ،
أو اللسانية فيها أمر لا يخطر على بال الدعاة لندة الحجر فيها على الأقاليم
والأكنسة ، وحظر الاجتماع فيها وتآليف الجماعات لمقاصد السياسية .

وعواصم المشرق الأدنى مهمة بشهرتها وموقع . ولكنها لم تكن قلبا مركزا
يتلقى منه العالم الشرقي دعوة عامة على نطاق واسع ، وحكمها حكم الأستانة
في حرية الدعوة والاجتماع

لما القاهرة فقد كانت ، منذ بنيت في أيام الخطميين مركزا داعي الدعوة ،
أستاذ الأستانة في فنون الدعوة بالقول والإشارة . أي بالخطب والرسائل
والرموز السرية والدواول والزفات

ثم أصبحت مركز الإعلان الاقتصادي والسبسي في الحقيقة التي اشتدت
فيها المنافسة بين أصحاب التجارة من طريق بحر الأحمر وأصحاب التجارة
من طريق رأس الرجاء

ثم جمعها احديو إسماعيل فطمة من أوروبا بمدكمها المستطلة ، وامتيازاتها
الأجنبية ، واشتباك المصانع المتعارضة فسد بين الدول ، وتلاطم التيارات
حولها من داخل البلاد العثمانية في شقين الحكم أو شقين الثقافة .

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتماع ، فتمت فيها معدات الدعوة ،
وترافق عندها نمط الدعوة القديم ونمط الدعوة حديث .

تاريخ الشرق مرتبط بصعافته .

وفيما تقدم من العوامل والتهيآت كفاية . . وكنا نحسب أنها لم تكن لتفعل
فعلها بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لو لم تكن الدعوة
في هذه الفترة مطلوبة من كل صوب ، ولو . . . تكن بلاد المشرق متعطشة
الأسماع إلى كل صوت ينادي بكلمة الأمل ، أو كلمة النصيحة والتحذير . .

ولا ننسى سحر الكلمة المطبوعة ، في جددت قبل أن تبذلها كثرة التداول ،
وتدخلها الألفة في عدل البويات الرتبة التي تنظر في أوقاتها ولا تحتاج إلى
لهجة الانتظار . .

صحيفة الدستور:

كانت صحيفة «الدستور» التي أصدرها الأستاذ «محمد فريد وعدي» منذ نصف قرن أول صحيفة يومية عملت في تحريرها ..

ولا أقول أنه كان «عمل ضرورية» ..

ولا أقول كذلك إنه كان عمل اختيار ..

وبكنه كان ضرورة مفترقين ضرورات ، إذا صح هذا التفسير ، وأبادر بقول أنه صحيح غاية الصحة ، لأنني في أعمال التي نعرف من مدام حياتنا نستطيع أن نقول عن عمل واحد أنه كله اختيار ، أو أنه كله ضرورة ..

وكان في راسي قبل العمل في تحرير الدستور أن أعمل في تحرير «الوقت» أو في الترجمة بالثناء على الأصح .. لأنني علمت أنهم يطبقون مترجمين يعرفون الإنجليزية أو الفرنسية ، بعد تكبيرهم في إنشاء «لغات» غير الله «الوحي» تصدر باسم «الأستاذ» .. ويتدبر ..

سحر وأثر الترجمة:

وكيفت الترجمة الصحفية من أعمال تلك الفترة التي كان أمثالي يستطيعونها ، وكانت ظروف التعليم والنشأة «الأسوانية» مما يرشحني لأدائها ، ويجعني من مفضلين في «امتحاناتها» ..

فقد كنت تعلم دروسنا المهمة باللغة الإنجليزية ، ومنها دروس «جغرافيا» و «معلومات العامة» أو الأشياء ..

وكانت صحف المدارس المعقودة في إنجلترا بين «المضامح» لإضاعية عقرة غلبا في السنة الرابعة الابتدائية ..

والتي هنا تتساوى جميعا في مدارس القطر كله ، ثم ياتي دور النشأة الأسوانية سزية تنفر بها مدينة أسوان ولا تشاركها فيها سائر المدن في الوطن ..

كانت مكتبات الأفرنجية تفتح في موسم الشتاء لبيع الكتب والمحلات لصحف الأجنبة المطبوعة ، وكان كبار الزوار لا يتفحصون عن زينة المدرسة ..

وإن تعجب لسر من استمرار تلك الدعوة في نفاذها ، وبعد مداها ، فمجب لبون الشامع بين ضخامة أثرها وضآلة وسائلها ، وانظر إلى اللون السبع مثلا في صحيفة كصحيفة «العروة الوثقى» أو «أبو نضارة» أو «المطائف» أو «الأستاذ» ، وربة ذات مقال وبضعة أخبار من قس الأخبار المولسة أو البريقبت حقتصة ، وتحاول أن تتبع أثرها لى أقصر مداه فلا تستنصب لأنك قد تسمع صاه في تخوم الصين وعلى منون الرمل في جوف البحر ، ولا محل للمقارنة من الوجهة الفنية بين تلك الصحافة وصحافتنا اليوم ، ولكن لا محل كذلك للمذرة بين دعوة يطلبها الناس ويتشرفون إليها ودعوة نصيب وتحال عليهم بأحسن الترغيب والتقريب ..

إن مختار السب بين مدير الصحيفة الأسبوعية ويكيلها قد يصح أن ينسب من طبع العدد الأول من صحيفتي المطوية وأن يصنف أملي في تعجب تكليفها بعد عدة و خدين ..

ولكن هل نراه يفتنى عن هذه القوة الهائلة وأنا أحسها من حولي كل من من النبوية في نجة البحر الزوار بالأمواج والرياح ؟ ..

إن ألك بحال باسم الطرق الصوفية لا بمسحون من الضمان قداسة الدين ، وإن ألك لجال باسم الصحافة لا بمسحون قداسة الكلمة الحية بين أناس يحتاجون إلى الكلمة حاجتهم إلى العمل في ساعة اليقظة من سباتهم الطويل ..

إن الصحف التي تستغل مخاوف الملوك وفصائح الدول لا تستطيع أن تملأ الجور من أعلاه إلى أدناه ، ولا أن تستوعب بجميع زواياه ..

فإذا وحست هذه الصحف ، فهي الشفاعة المقبولة أو غير المقبولة لوجوب طمقات في لجر اصحفي إلى حننها ، تنزل من أعلى إلى الوزير ومن النهر إلى الرئيس الصغير ومن الرؤساء إلى عمد القرى ومشايخ الحارات ، ومن هؤلاء مابون ذلك في طبقات ذلك الجو الفسيح ..

وليفل العجب العجيب ما شاء ، فإنه لن يستطيع أن يتبل في النهاية شين عن تاريخ الشرق الحديث من أن يقول معه شيئا عن الدعوة الثلبة وعن الصحافة واصحفيين ..

خلال الموسم الذي كان يمتد من ديسمبر إلى مارس ، وتتبع رباتهم أحيانا دعوت خاصة تجلس قيا مع آبائهم ولا تتكلم أثناءها بغير اللغة الأجنبية .
وتضاف إلى تلك حداث مارتان على أسوان - في ذلك الحين - لم نجسنا لك من بلدان المسيحية ، وهم حملة السودان وبناء الخزان .

ففي أثناء حدة السودان ، كان الحاكم العسكري ومحافظ المدينة وقاضي المحكمة وقادة الفرق الموزعين على المصالح ، طائفة من الإنجليز العكسريين أو المصلين لا يعرفون العربية ، وكان كل بيت فيه «وئد من أولاد المدارس» مرجعا نفعنا لقراءة الأوراق الرسمية أو ترجمة المراسل إلى «الحكام» على حسب الاحتياج . وكان «نصف القرية» نفحة سخية يحصل عليها «الولد» المترجم الذي يستطيع أن يعد في الورق بضعة سطرين تدل على معنى من المعاني مفهوما بالثورة أو تخمين . فلما «وئد» الذي تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنهضت الفرق قد يصعدني معاشه إلى نصف ريال ، ويرزاد الضيق مع زيادة الخدمة أو الخزان .

فما كان هذا من غير أن يفتخر من سيرة من السيرة والخير . واغتصبني غيري من الصحف الفرنسية ميل بدو . ويسعدني حب الاستطلاع إلى النظر في هذه الصحف إلى صحف الساجين ، فلا يفوس - مع سابع التخلل - أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها . وأن نختطف عبارته هذا وتعلينا هناك فلا يحق علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح .

مع مصطفى كرم :

فلما علمت أني سأكون مترجمين يعرفون الإنجليزية خماري أن أستعمل من وظيفتي وأن أضع نفسي للعمل فيه ولكني تريت وطال التردد حتى أحجم ، ثم فضلت ترك هذه «الفرصة» وانتظار فرصة غيرها سيبين

«أولهما» نسي إذا أهدت من هجر الوظيفة الحكومية مفضلا عيها الصحافة فليكن ذلك لا يكتب لا لأترجم . ستنسى أحبيبت الصحافة لأنها مزود رزق أفضل

من موارد الوظائف الحكومية ، ولكنني أحببتها لأنها مجال لكتابة أو صناعة القلم بغير مساهمة من صناعة النقل أو الترجمة !

والسبب الثاني شخصية مصطفى كامل رحمه الله ، فإن محابتي الأولى له لم تشبني على مزاملته في عمل دائم ، وصورته لي رجلا معتدا بذاته ، ضيق الحظيرة . لا يسمح حتى للفكاهة أو «لقافية» أن تفتح عليه باباً لتصحيح قوله قنبا أو يارثه ..

كنت أترع بالتعليم في المدرسة الإسلامية بأسوان ، وحضر مصطفى كامل متفقد المدرسة وهذه الكتابة الفرنسية مدام «آدم جوليت» وسبحة إنجليزية وكانت الحصة حصة محفوظات ولغة . فأطلى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأخي العلاء :

والصبر ماله تفد نصا إقامته غيم حمى الشمس لم يمتطرون يسر
وترحله للسيتين بطلاقة وإيقاع ، ثم طلب من التلاميذ أن يشرحوه ويعلقوا
«...» لم يربو ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ..

وكتب مصطفى كامل إلى «إبراهيم الأستاذ» محمد شلبي عبد ، متسابلا فادركه قائلا إن التلاميذ معنورون .. لأنهم في أسوان يعلمون أن الغيم الذي يطرأ إليهم شيء نافع لا يضربون به المثل لقلة النفع . فإياه أذاع لهم من تدفع الشمس ومن المطر .

أحسن تخلي ، كنت أقدر من «خطيب» مثله أن يتقنيه بالاستحسان ، لا التبع ، ولكن تحم وزوى وجهه . وبدأ لي أن الاستدراك به . ولز من باب الفكاهة - أمر كثير على طاقته الفكرية والتفسية ، وأرى الآن أنها لم يكن منه قلة عارضة في زيارة عاجلة ، لأن حياة الرخص كلها لا تعرض لنا لحصة واحدة فيها شيء من ساحة الفكاهة أو ساحة الترفيق بين الآراء

فريد وحدي .. والدستور ..

ولم يسر بي الانتظار حتى أعلن الأستاذ فريد وجاني عن عزمه على إصدار

ولم يكن اسم «فريد وجدي» شريفاً عني ، و عن قراءة ذلك الحب من طلاب الثقافة الإسلامية الفلسفية .. فقد كانت له كتب ضافية يرد به على كتاب العرب وفلاسفته المبكرين لحقوق المسلمين وفصل الإسلام ، وكنت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثمة العصر الحديث ، قد بقيت ودائته لم يكن أيسر من الاتفاق معه على العمل في صحيفته . وخرجت أقول لنفسي إن أكبر خلاف بيني وبين كاتب كبير أن يعوقني عن سر معه لأنني سميت لحرية فكره مع اشتغاله بالتعصب وحفاظته ، بل .. ربما .. وخرج في سنون ثلاثين والدنيا .. فما من فكرة كان يرى أنها قضية مئة ، وأنها لا تقبل مناقشة

وأصل يوم أن غرط الثقة بقوة الحجة والقدرة على الإقناع هو الذي سبوغ له أن يسمح كل رأي ، ويقبل كل تحد ، ويجيب عن كل سؤال . و .. عملي في صحيفة الدستور من عدد أول إلى عدد آخر .. أشهراً قبله فارقها فيبثت إليها .. فأكاد أقول إن ما خالفت فيه أثناء هذه المدة أكثر مما وافقته فيه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبها ستلخه رأيي .

كان شديد الإيمان بالجامعة الإسلامية على سطح قريب من مناهج لوستينين ، ولم يكن كغيره من طلاب اكتسب واجه من وراء هذه الدعوة ، بل كان يخسر الكثير في أحوال أوقات الحجة إلى المال .. ومن ذلك أنه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار «الدستور» - ليس حال الحزب في سياسته المشددة بعد أن تكفل الحزب بالاتفاق على صحيفة وسداد ديونها ، لأن الحزب كان مضطرباً أن ترفع من عنوان الصحة كلمة «السن» حال الجامعة الإسلامية .. ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن بخس ثم يوزن من أوراق ليؤدي مرتبات الموظفين واليد

وعلى هذا التثبيت بهذه الدعوة كنت أخافه ، ورأى أنها تفسد نفسها ، ويعسر لها أن ترمي أضغاث ما يحمله المنقطعون .. من دعايتها المخلصين وغير المخلصين .. فلم يحاول قط أن يفرض على رأيي في قضية من قضاياها ، فيؤثر الإقناع أو السكون

وكانت صحيفة «الدستور» أساساً ثامناً للحزب .. يعني هذا «اللواء» .. وكان موقف الحزب .. يعني معروف من سعد زغلول وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على

تحرير اللواء ولكنني كنت قيد سعدي وأرد على ذهبيه في الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبت في هذا الموضوع .

وكان من غلواء الأستاذ وجدي في محاربة الاختلاط الجنسي أنه كان يشجع الهواة على إنشاء فرق تمثيلية يتم فيها التمثيل بغير ظهور النساء على المسرح ، وهذه هذلة تغري بالسخرية حتى في تلك الآونة .. ولم يكن الرجل على جهل بتاريخ التمثيل في غرب الحديث أو القديم ، فكان إذا لمح مني بأدبه من برادر السخر الخفية لم يزد في حديثه على أن يقول : «لقد أجازها شكسبيركم لضرورة من ضروراته .. قبل وفقت ضرورات الدنيا كلها عند شكسبير» !

الغاضبون

وأعتقد أن حبيب اسم صحيفة وحده كان ميزانا لنزاهة هذا الرجل ولحرية الفكرية والدستورية ، يفرض عن كثير من الموازين .. وماذا في «اسم» على رأي شكسبير أيضاً ؟

في كثر وكثير ، ولائيد في العصر الذي سميت فيه الصحيفة باسم الدستور . كان اسم «الدستور» يفضي بقصر «يلدز» ، ويضرب قصر عابدين ويضرب «قصر الخديوة»

وكان الحزب الوطني يعطب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة إليه ، لأن ينكر مقاسم المطالبين به من رعايا الدولة العثمانية ، ويشفق من غضب السلطان عبد الحميد . ويراجع القارئ اليوم صحيفة «اللواء» فيرى أنها كتبت عن المطالبين بالدستور في تركيا . قبل إعلانه هناك بيوم واحد ، فقالت أنهم قوم يسبحون في الخيال

وكان الخديو يحرض على طبع الدستور سرا كلما أراد بالتحريض عليه إخراج الإنجليز واحد من سلطة السنوب الريسائي والمستشارين ، ولكنه كان يرفض الإصغاء إلى هذا الطلب كلما ثاب إلى شيء من الوفاق بينه وبين المحتلن .. ولهذا كان حزب اقصر يسمى نفسه «حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية» .. ولا يخفى الفرق بين الدستور وإصلاح النواوين على مبادئ

وكن حزب «الأمة» كمد يدل عليه اسمه يعرض الحكم المطلق للعرش في مصر وللعرش في عاصمة الدولة العثمانية وكان يدعى باستقلال التام نيهدده «المزيد» بحكم القانون أن السيادة العثمانية مقررة فيه ، وكن حزب الأمة على مذاقه بحصر الحقيق كلها في الأمة لم يخل من أتعاب مخلصين كانوا يحسبون الصغرة في الحكم النبأى خطرا حقيقيا ، فحذر ، واحتدب .

فبدأ ظهر من بين هذه الصفوف رجل لا سنده من أصحاب العروش ، ولا من جبهة الأحزاب ، فاحتار كلمة «الديمقراطية» حين غيرها اسم لصحيفته «الوفاة» ، غير اسم يدل على كثير وإن غضب صاحبنا شكبير

صحافة المتطوعين :

في هذه صحيفة بدأت على الأول ، فمضى كل على الأول ، فما ؟ أو بماذا نسميه في «تسمية» الصحافة الأخيرة ؟

لا يريد اسم واحد ، وقد يحيط به على جملة في كنت نصف هيئة لتحرير برمتها ، إذا لم يكن في قام التحرير غير كاتبين تسمى أحدهما أنا والأخر صاحب الصحيفة !

ولا تخسر في هذا المقام فضل «التطوع» في تحرير صحيفة الدستور ، ولا في تحرير غيرها من صحف تلك الفترة .. فقد كن قوام المقالات الصحفية من تحرير أمثال ، وكانت أشهر الفصول على الإطلاق في ذلك عهد نصيولا كتبها المحررون المتطوعون ، وكل حامل قلم في البلد محرر متطوع ، عدا الجالسين في مكاتبهم في دور الصحافة المحسودة ، وهو سعيون على الأصابع .

ولقد كان نصيب «الدستور» من التطوع أوفر نصيب . إذ كان فيه «محرر متطوع» داند يكاد ينهض بعمل الترجمة الفرنسية وحده ، ويكتب إلى جانبها التعليقات وحواشي الأخبار ولادة فترة

كان الأمت «أحمد وجدي» شقيق الأستاذ فريد صاحب المصيفة هو ذلك المحرر المتطوع الدائم ، وكان رحمه الله تبا أسمى الذكاء كريم الحق

مستقيم التمن مجتهدا في كل عمل تولاه . وقد تولى عملا قليلا في الصحافة ثم تولى عمله في المحاماة أمام محكمتي ارقارق والمقصورة ، فاشتهر في الإقليمين أيما شهرة ، وقامت شهرته على الذمة والعفة كما قامت على البرامة والبلاغة ، ولو أمهلته المنية بضع سنوات لما عرفت مصر اسما أشهر من اسمه في عالم المحاماة .

«كان زملاء «الأستاذ أحمد وجدي» يتبعون معه بالكتابة والترجمة من حين إلى حين ولكنهم أضربوا جميعا - أو كادوا - بعد الخلاف الذي حدث بين فريد وجدي ومصطفى كامل . وكان فحوى هذا الخلاف أن صاحب الدستور اعترض في مجلس إدارة الحزب على اختصاص وزارة الخارجية لبريطانية بالاحتجاج على الاحتلال ، وقال إن من الإخصاص ريب أعطاهما لصفة «الاستثنائية» التي تدعيها في مصر ، ولا ضرر من نعيم الاحتجاج على صيغة من الصيغة إذا كانت الصيغة المكتوبة : تسمح بتوجيهها إلى أكثر من دولة واحدة ، فاعترض مصطفى كامل عن اقتراحه وأعرض معه أكثر الأعضاء . وكتب فريد وجدي خلاصة المناقشة في الدستور ، في الموقر بين الأربون متسغا على الحزب وقاضيه ، ومنهم بعض أولئك الطلبة «النحاة» الذين كانوا يتطوعون للكتابة في صحيفة الحزب الثانية !

إلا أننا نحن هيئة التحرير - المؤلفة من صاحب المصيفة ومتى ، كنا نعمل في التحرير والترجمة والنصح وتهديب الرسائل والأخبار .. وكان الأستاذ وحدي قليلا من بيرح داره ، فكنت أتوب عنه في أعمال المصيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الأخبار وعنى الأحاديث ، وبينها أول حديث للوزراء المصريين ..

والأخبار لم يكن خطبها في ذلك العهد - لأمر العسير ..

كان لها مكتب بديوان الداخلية ترسل إليه المنشورات من جميع الدواوين ومعظمها عن التعيينات والتقلات وصرق الأموال في المشروعات العامة .. وقد تكن هناك حاجة بالمخبرين إلى استمداع انتات والتقاط الأسرار .. فن استياسة الكبرى كانت في عم المنوب البرياني ومستشاريه وبفتشية وليس لأحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير أصحاب «المقنم» وبعضهم وكلاء

الصحف الأوروبية ، وصلاتهم جميعا لا تفيدهم شيئا من أسرار السياسة العليا ولا تطلبهم على أخبار الميزانية قبل أوانه .

فالمخبر البارع ، والمخبر العاجز ، في النهاية على حد سواء إلا أن طائفة من المخبرين كانت تسروم الإدارة ، على تكليف المهنة وتقوم وكلاء الحسابات فيها أنها تحصل على أخبار الترتيب والتعيين والاعتمادات المالية من قصاصات المسودات في سجل المكتب المهمة ، وظلت هذه الحيلة تروح عند بعض الصحف حتى ما بعد أمام الثورة في أعقاب الحرب العالمية ، ورأيت بعيني واحدا من هؤلاء المخبرين يبيع هذه القصاصات ويجمع متفرقاتها ويلصقها لمزج يدعي أنه قد جاء بالخبر العنوني به على غير المجتهد الأريب .

كنت أذهب إلى مكتب الأخبار الصحفية بديوان الوزارة فترى هناك على تتاب عشرين أو ثلاثين صحفيا من مندوبي الصحافة ، الأوروبية

ونسرى هؤلاء جميعا ، وقد فردي يذكر اليوم أو يعرفه السامعون إذا ذكر ، ولكن الذين قد يعجب لأختلاف مقاييس النظر والتقدير إذا علم أنني كنت في تروهم جميعا فضوليا متطفلا على احصاءة ، وسمعت أحدهم يتكلم عن « غير منصور » مندوب المؤيد ، وه عبد المؤمن الحكيم » مندوب الأحرار ، وه ساسي تسيرو » مندوب المقطم ، وه جورج طنوس » مندوب الوطن .. فإذا هو يشيعني - لإشارة ساهرة ، وهو يسب لزم أن لأنه قضى عليه بالعمل في الصحافة مع مثالي

« يحرق بين ها » لبريس » Press ما عدا ، غيرها الزمران يسود وزقتها ..

... الصحافة قبل خمسين سنة ...

بعد شهرين من العمل في داخل المصحف المصرية ، مكتفى أن أخص حياتها عند أوائل القرن العشرين في كلمة واحدة

تتبع

لله لا ضرورة قضت بوجود الصحافة يومئذ على صورة من الصور لكن من أعجب المصادف أن توجد صحيفة واحدة ، « أن تفتت » - إذا وجدت - أكثر من بضعة شهور .

كانت موارد المصحف كلها من الاشتراكات ، وتضمن النسخ لموعة ، وأجور الإعلانات .. وكانت هذه الموارد لا تكفى من حاجة المصحف إلى صحيفة إلى أمد طويل ، ولكنها مع ذلك لم تكن ضايق من عتبته .. من حرار لخلل الدائم في رسائنها ومواعيدها .

فلم يكن للمصحفة ، المنتظمة ، بد من مورد آخر غير الاشتراكات وغير أبيع وغير الإعلانات ، وهي كذاك مورد مضطرب معرض بصيغته للقوضى وتبدل الأحوال ، ونعني به مورد « الإعلانات » السرية من أصحاب الدعايات ، ومعظمها دعيات تصدر من قصور الملوك والأمرأ أو من دواوين وزارات الخارجية ..

فلا اشتراكات الصحافة قبل خمسين سنة - كانت من الموارد الشبث المنتظمة ، بلقيس إلى موارد المصحف في العصر الحديث لأن المصحف في العصر الحاضر اعتمد على البيع في الأقاليم ولا تعمل كثيرا على الاشتراكات ، ولم تكن وسائل البيع في الأقاليم ميسورة للمصحف اليومية ، فضلا عن الأسبوعية أو الشهرية إلى زمن قريب

وكانت الاشتراكات خلقة أن تمد المصحف بمورد دفع لو يخلت من « واذنوب » وعثرتها ، ولكنها كانت في لوائح مولودة بموت عجب وعثراتها .. إن صح هذا التعبير ..

كان أعيان الريف يحبون أن يشتركوا في الصحف اليومية لأنها تظهر من مظاهر الوجاهة والأهمية في القرية أو البلدة الصغيرة .. ولم يكن بالقليل من مظاهر الوجاهة اليومية أن يحضر ساعي البريد إلى الدار يوميا ليترك الباب على مسمع من الجيران وينادي بصوت يشبه صوت المنادى باسم المحكمة في ساحة القضاء «برسطة» !

فإذا بالحي كل يقرب «سما» جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بإنشاء الأرض والسماء ، ويحدث عن المسكف و «الانجلطيرا» وملك «الفرنسا» أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتغلبها بالأسطورة الطويلة التي تسمى بالترنسفال .. بينها وبين السودان في الجنوب أنوف الأميل وباله من «واق» وراء الخيل

ولم يكن المصداق على سائر الناس المصداق ، بل كان السمع والسمع .. اشتراك حب محال .. ولكنه يجوب به عن طيب خاطر لي وجد أمامه من مذهب له حساب الصحيفة .. بين هذا الذي يقضيه لحساب الصحيفة ويؤديه بالامانة والوفاء

لقد كانت الصحف تنشر ، بين أونة وأخرى ، خيرا مكررا عن الوكيل ، فلان الذي ألقى توكيله وأصبح غير معتمد في تحصيل الاشتراكات ، وكانت هذه الصحف تنشر قبل ذلك إعلانات يوجهها إلى وكيلها في هذا الإقليم أو ذاك تنبه إلى موعد السداد وتلوح له بالتهديد والإنذار ، وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه بعد ثم يعاد ، ويتعدى مع الوكيل الحديد تارة ومع الوكيل القديم نارات ، ولا تستعنى الصحيفة من مراجعة الوكيل القديم لقة الوكلاء ، ~~المستعنى من السداد~~ المستعنى من السداد ، ~~وغيره من السداد~~ المستعنى من السداد ، والمشاركين والمبطلين وأفراد «الجمهور الصحفي» على التتبع ..

حق الصحيفة

وكانت للوكيل فنون في مدانة الموظفين وإغرائهم بإنشاء أو تهديدهم بالتشهير والانتقام .. ولا عني .. عن هذه الفنون لأنه كان يسعى على الدوام

بالموظف الكثير والوفاء الصغير في تحصيل «حق» الصحيفة و «حق» هو في ساحة السداد .. من وراء الستار ..

ولا مضم من الوكيل لتحصيل الاشتراكات ..

ولا حياة في قبول الوكيل على علاته ، لأن معاملات الصحف لم تكن في ذلك العهد قد شئت ذلك الشاب الذي يسمح «بكرين» طائفة من الأعوان المدرعين يتقطعون بها ويشابرون طلب ، فهذا نجح من الوكلاء واحد من عشرات فربما ينجح بعد هؤلاء الصحيفة بخمسة هؤلاء العشرات ، على ذلك

ونذكر أن الوكيل - على عيه هذا - لا يستطيع أن يعمل في بلاد بجهل ولا طبع بين ظهرانيها ، فلا بد له من موطن في إقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الإقليم محن .. يكثر من «تشي» مشترك في أكبر تقدير

وكم يجر من هذا الحصول إلى خزنة الصحيفة بعد العمل والمعرفة و «يق» سوداء

بل عند قليل

كل صحيفة احتجت إلى هذا القليل ، فقد كان عليه أن يغلب ويست و «تجوع» نصمه ، ونفسي عند تغلبه من عيوبه ومخاطراته ..

عدة مصر

وسب - بل في بقائها - أن تنشر صحيفة كل ما يعرض إليها من رسائل وكيل .. من مدائنه وأهاجب في أوقاف ، لأنها «عدة الشفر» التي يعمل بها ، لا «عدة» بغيره .. بين الأعيان والموظفين .. فمن تصدى لتحصيل الاشتراكات - وتحصيل غيرها في السوق السوداء - فلا بد له في محصله بضعه ويقع الصحيفة بغير تخويل وإغراء ، ولا ضير بالتخويل والإغراء في «سبل» «عدة» ونقصه «عدة» .. وكنت «تسرك» «تسرك» «تسرك» الذي يستطيع أن يجمع «مئات» من لذة هنا وأكثريه هناك ثم يترك خلفه «عشرات» و «عشرات»

ثم يختر الرصيف ، لا من العلم عكريشة وكتبه وينضدته وقدمه الذي بحماه
وراء أنه ، إلى أن يوسع مكانه في الدواة النحاسية الصفراء ، متى خلا
الرصيف هناك لم يبق مكان في القاهرة خلوا من صبي من صبيان العلم
الكبير تكاد تحسبهم أسرع من الترام لأنهم يصلون حيث لا يصل الترام ،
ونكاد تختلط أصواتهم بأصوات بانغى الخصر والتذكئة ، ومت النداء على
الوطن وبصر العال .

وليس عامي إحصاء دقيق لتوزيع الصحف في تلك الأيام ، ولكن على الحد
المقصر لا يزيد على خمسة آلاف للصحيفة الواحدة ، لأنه الحد الأقصى الذي
تبلغه مدة المكثات الضباعية قبل وصول مكثات البحار والكهرب

الاعتمادات:

ولا نعرف اليوم كيفية تسطيع أن تسقط إعلانات من حاسب ثم تلعب
في السند ، واستيفاء جوار الأخبار والتعليقات ، ولكن مدة إعلانات كانت
تسقط بلا تردد أن تسقط إعلاناتها من عدد أول ثم لا نفقد شيئا بعوض
أسود عن الصدور

وكانت لتقاييد المرونة - بالأمية معا - عتبت طبيعيين لظن . الإعلان
احصم إلى سنوات قليلة مصدر . عليها هي سنوات التي تميزت فيها
سركة - إعلان لصحفي في هذه البلاد .

كان من اتقيد السيرة أن يشتري الإنسان لم يمس المهمة من تحت انشراح
أوهو .

وكان الرغى بنزل القاهرة لشراء لوازم الخرج ، أو لوازم الداء والأثاث
فيذهب إلى أمكة معروفة بأسمائها لا تتغير من حين إلى حين . ركبهم يعرف
«ناوين» كور والماوردي والجمال الحصني ومخازن العداء والتطاب في
باحية قففة ووق السراح ، ولا نظن أن متجر من متاجر القاهرة المشهورة
تسهر إحداهن وحدها ليكتب به «يونان» لم يكن يعرفه قبل ذلك لإتلا

أما المناجر الصغيرة التي تباع فيها لوازم لبيوت اليومية ، فقد كانت
معروفة في أحيائها ومراه بعير حاجة إلى إعلان مكتوب .

ولهذا بقيت إعلانات الصحف سنوات عدة وفي مقصورة على إعلانات البيع
القضائية وإعلانات الوفيات أو إعلانات «ختمى فقد متى وليست على نيون ولم
أوقع على سندات أو كمبيلات . . .

وإعلانات «الامتياز» وحدها عنوان صدق حصيب الصحف من قراء
الإعلانات . لأنهما عنوان للأمية حتى تعجز عن كتابة الأسماء . ومع هذه الأمية
لا إعلان ، ولا قراء لإعلان !

الإعلانات السرية:

ونحن الآن نكتب ونتذكر لا نرجع إلى الصحف التي عاشت في مصر
وانطوب بعد حين . ولكننا لا نجازف إذا قلنا أن مصاريقها كانت على التحقيق
كبر من مواردها التي يدل عليها حساب البيع والشراء والإعلان . ولولا أنها
اعتمدت في وقت من الأزقات على مورد الإعلانات «السرية» لما طال بها الأجل
شهورا ، فضلا عن سنوات

وقد تعلم مبلغ الحاجة إلى هذه الإعانة إذا علمت أن شركات ابرق - كشركة
روتر ، ومافاس - كانت تتلقى إعانة رسمية من الحكومة المصرية ، وأن
سلطات الدواوين والسفارات كانت تحال - علانية - إلى بعض الصحف
لطبيعتها ، مع وجود الطبعة الأمرية .

ولم تكن مصادر الإعانة مجهولة بين العاملين في الصحافة والسياسة ، وإن
لم تبلغ من الصراحة في زمن من الأزمان مبلغ الاعتراف المكتوب .

وربما انقضى من هذه المصادر في جملتها إلى مصدرين اثنين على شيء من
الدوام والانتظام . وهما التصوير السكية ودواوين السفارات ووزارات
الخارجية . وتصور «يلز» في الأسبانية كن مصدر القسط الأوفر من إعانات
الصحافة والصحفيين المتطوعين . .

وقصر «عابدين» بمصر كان المصدر الآخر الذي ينافس يوما ويعمل معه بدا
بيد في عامة الأيام .

وكان بخر عباس المشهور ينل يده عن التبرع بالمال من خزائنه الخاصة ، فكان يحيل عوانه من الصحفيين تارة إلى الأوقاف وتارة إلى ديوان الرتب والتباشير
أسماء الرتب :

وكانت للرتب أسعار مفرقة من الباشوية إلى البيكوية من الدرجة الثالثة . فكانت رتبة المبرامون الرفيعة تباع بألف جنيه ، ورتبة البيكوية من الدرجة الأولى تباع ثمن يتراوح بين خمسمائة جنيه وسبعمائة جنيه أو ثلاثة جنيه ، وتقدر أسعار التباشير والأسمه بمقدار قيمتها من المعدن والجوهر وقيمتها من الأولية في ترتيب التثريات .

وقد سعت رتب كثيرة في القبوات ، وسعت رتب مثلها في مكاتب التحرير والتوكيل ، ولكن لم تهبط في السوق - على ما نعلم - إلى ما بين مكاتب الخيش في خدشة والإسكندرية .. ولو أن سارا من سمارتها خدشة الخدشة أو غسة الصع قباع رتبة من هذه الرتب لرحل محكوم عليه في حربية لسانة بقيت هذه خبيرة موزدا للصداقة إلى ختام عهد الخديويين .

والأكلة مريطنة وسفارة مريسا كانتا في هذا المجال تدين كفتين - أو أكثر من كفتين - لقصر الملوك والأمراء ، ولكن الوكالة البريطانية كانت تكافئ خدامها بأشرف الجزيلة من الرواسات والشفاعات في دواوين الحكومه ، وقد تحددت لهم من مصروفات التميزانية ومن مصروفاتها هي إذ اقتضى الحال ، ولا تقتصر السفارة الفرنسية عن زيلتها في بذل هذه الإعانات على احتوائها ولكنها كانت تموئ الخدمات الحكومية بالمصنفات التجارية ومساعدات حصارف والشركات ، وقل فبيب ما لم تكن للفرنسيين مساهمة فيه .

ومن الوظائف التي كانت تسو للنظر - مرسة - من هذه المنصبات وظيفة المبرم العام لدار الكتب المصرية التي كانت موقوفة - باتفاق العرف - على علماء الألسن . ولكن هذه الوظيفة عملت في الدعاية الخفية أحيانا ما لم تعمله وظيفه في سفارات السياسة ، وكان اتصال الخديو العام في سفارة

الصحفيين وحملة الأعلام أمرا لا غبار عليه ، لأنهم كانوا يقتصدون إلى دار الكتب لمطالعة والمراحة والنسخ في جميع الأوقات ، وماذا يحول بين الانطلاق على حملة منظمة في الصحف خلال مقابلة أو مقابلتين لنسخ هذه الورقة أو استعارة ذلك الكتب ؟ .

ونعود إلى الدستور :

ونعود إلى صحيفتنا التي بدأت فيها عملنا فسأل : كيف عشت من مواردها الصحفية ؟ وكيف كانت ترجو أن تعيش كما عشت الصحف في أيامها ؟

نقول اليوم أن مهورها برسائلها التي عهدناها ، ولا يخافنا الشك فيها . كان عجبنا من العجب ، وخاصة ما يقال عنها أن قلة مصروفاتها كانت هي السند الأكبر لقائها لمزعزع في عمرها القصير .

ضاع الأمل في لاشتركات بعد شهر أو شهرين ، ولم يكن صاحب صحيفة - على شهرة بالنظريات ، محرودا من المراهة الحسنة في تنظيم الأعمال ، فاخترع طريقة لاشترال الشجرى بالأذونات مع خصم رؤس البريد من بعض هذه الأذونات ، وأفادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تأجيل لقضاء المحتوم .

وكسدت سوق البيع بعد الخلاف بين المستر والمراء ، فقتضت الإدارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومي ، ولم يزل هذا الطلب اليومي يتناقص من أسبوع إلى أسبوع ..

ومن لطائف الأساذ فريد وجدي - وكان يمزح أحيانا ولا يقول إلا صدقا - أن موظف الإدارة فاته في نقص أجور الإعلان فقال له متعلما ألا تحمى الله لأننا لا نغرم حتى الآن إعلانات في الصحف عن ظهور دستور ؟

أما الإعلانات السرية فقد كان الدستور خليقا أن يجمع منها الكثير أولا أن الأساذ فريد وجدي رحمه الله كان يحسب أنه يسخر أصحاب الدعايات برسالة الدسنة ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية . وقد حصل الأمر إلى تبرعات الأفراد ، فلا يقل منها الرميل ما يزيد على قيمة لاشترال المكتوية

على الصحيفة ، وحدث من ذلك أن السيد «توفيق البكري» أراد أن يعرب الصحيفة عن شكره لموقفها منه أمام الخديو في مسألة «زفة المحمل» وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل إلى الأستاذ وحدى مبلغا لا أنكره على التحقيق ، ولكنه يزد على قيمة الاشتراك بكثير .. فأمر صاحبنا كاتب الحسابات أن يكتب للسيد إيصال بقيمة الاشتراك ، ويعيد إليه بقية مبلغه مع الإيصال .. وماذا تكون النتيجة ؟

تكون هي ما سمعنا مكدرة في المقدمة ، ولولا أنه المحضرون ، كما أسلفنا - تحلت النتيجة بالمقدمة في أيام ، أو على الأكثر في أسابيع !

سنة جنيت :

كانت مصروفات القليلة سبب من أسباب بقاء الصحف المصرية في سنواتها الأولى

وتظهر في المصروفات من تكاليف التحرير في الصحف اليومية الكبرى فقد كان يتم التحرير في الجور الصحف لا يزيد على خمسة من المحررين والمترجمين والمخبرين وملخصي الأخبار من الأقاليم ، يبدأ مرتبهم من خمسة جنيهات في الشهر ويندر جدا أن يجاوز العشرين ..

وكان قد التحرير في صحيفة المستور يشتمل على محرر واحد غير صاحب الصحيفة

وهذا المحرر الواحد هو كتب هذه الأسطور ، يشترك في التحرير والترجمة وتلخيص الأخبار ، ويتناول في الشهر مرتبا لا يقنع به الآن أحد يعمل في الصحف من الجواب إلى السدية ونقل الأوراق بين المكاتب ، ودع عنك التحرير والترجمة ، طلب الأخبار ..

ذلك العرب مبلغ وقدره مئة جنيهات ، ولم يكن يزيد على مرتبي من وظيفة الحكومة بكثر من جنيه واحد .. فلم تكن زيادة المرتب إحدى المفريات لى على ترك الوظائف الحكومية للاستئصال بالصحافة ، لأن المرتبين مثقاريان مع الفارق في الضمان والترقية ومستقبل المعاش

إلا أن القيمة في هذه المرحلات لا تحسب بحساب الأرقام ، فبذ السنة .. ساوت ثلاثين في الوقت الحاضر أو أربت على الثلاثين ..

كانت خمسة مليئات في ذلك الحين تعطيك مائدة إفطار حسنة في الصباح وقد ترخصت هذه المائدة عند الضرورة في طعام الغداء أو العشاء

مليم ثمن نصف رغيف (شقة من الخبز) يساوي وزن الرغيف في منتصف القرن العشرين ..

ومليمان ثمن الفول والزيت ..

ومليم ثمن صفحة من السلطة

ومليم ثمن برتقالة أو يوسلية أو أصبع مرز أو أربع بلحات

فإن أربت التتويج أمكنك أن تقير هذه الأصناف بالحلاوة الصحية أو عسر واخصية والجب أو البيض ، ومن هذه الأصناف ما يعيد عن الفكة والحلويات

وإن أن توسع في طعام الغداء ، فلا تنفع بالأصناف التي تقدم على مائدة الإفطار ، ولك لا تحتاج إلى أكثر من عشرة مليئات للصفحة من الخضار المعبوخة وعشر مليئات للصفحة من الأرز ، وعشرين مليما نصفحة من الخضار ونها قطعة من لحم البقر أو الضأن

وقتي من ذلك سائر المأكولات ..

دروس التعريف :

وكانت مشكلة السكن يومئذ أيسر من مشكلة الطعام ..

فكنت أن من سكان الضواحي الخالية ، لا يكلفني السكن في أشهر كثير من ثلاثين نريشا لحرارة ذات توافد مطلة على الطريق ومروج الخلاء ، ولم يقع اختيارى عن الضاحية التي سكنتها - بجوار حدائق القبة - لأنني كنت من طلاب الترف وسكان العنازل الخشبية ، ولكنني كنت أتعلم بروس التعريف بعمرته من ضاحية لدمرداش ، فاخترت السكن إلى جوارها وضمت لحر

دوسر خصوصى لتاجر قمشة يتولى تفصيل الخماش وتعليمة كسوة كاملة ،
ريونير الأجر - بذلك - كسوة كل ثلاثة أشهر . ولم تزد مدة التعليم كله على
كسوتين ، نشاط التلميذ أو لبراعة الأستاذ أو رغبة الخريجين مما فى المسخ .
العقد بسلام !

حصة مشتركة :

وأحال ، بعد هذه النخبة عن الكفاية . لننى نسيت أن أقول إن قلة
المصروفات كانت خصلة مشتركة بينى وبين صحافة لنى عملت فيها ، فقد
كنت فى سن الحاجة إلى المصروفات قبل الحاجة إلى المصروفات ، وأصح
من أن أقول إن مطالبى فى حياتى نيلت - لقلية ولكنى يست كذلك من
الذى يتوقف على الحال .

كفدة العرتب ، على أية حال . سبعة حاد فى كل عمر جعله تعيش من رزقه
فى شيء مهم جدا ولا كلام .

ومن من ترائنا نفهم إنها هى الشيء المهم الوحيد . ، أن شئ آخر لا يهنا
مشب على تفوت المرتبات والأجور ؟

من يفهم ذلك فى تجاربه نقص يتعب فى عمله ويتعب فى عيشته ، فالرغبة
فى العمل الذى تتوفر عليه مهمة جدا كالمرتب الذى تتقاضاه منه ، ونحن
نستريح ستة جنيهات نتناولها من عمل نرب فيه ولا نستريح بشئ عشر
نتدرب من عمل نبغضه ونساق إليه ولا بد . أن نحزنه محسنين أو غير
محسنين .

قد سألت على فى الصحافة راغباً به مقبلاً عليه

ووجبت من اللحظة الأولى أننى أريد أن أفرد فيه جملة المعرفة التى حصلتها
من مطالعاتى الصحفية ، ومن مطالعاتى فى الكتب ، وفى الحياة .
وبعض هذه المعرفة صبيانيات مضحكة لا تقدم ولا تؤخر فى الموضوع .
ولكن تمل على حكم العادة وتواتر النثر والسرد .

عمم العقاد :

كيف أوقع مقالاتى الأولى ؟ وكيف يكون توقيعى الملزم فى جميع المقالات ؟
وقعتها كما توقع المقالات التى أقرأها فى المجلات الأجنبية ، فكان توقيعى
بالتق وبالحرفين الأولين من الأسمين ، ع ، م العقاد .

ومثل هذا التوقيع لا ينجو من أسنة الزملاء الهازلين فى بلد الغش ،
والقافية . فسرعن ما نهر لى مقالان أو ثلاثة حتى دغموا الحرفين فى اسم
واحد ، وراحوا يتحشون عن مقالات عم العقاد .

وماذا قال عمك ؟ .. وماذا تقول يا عم ؟ .. واكتب لنا يا عمنا بما نراه ..
وقس على ذلك بقية القافية فى مختلف الأوضاع والشاعات ..

ويأبى العقاد أن أرجع عن عم العقاد ..

أو لعله لم يكن غذا منغضا ولا صبراً على السخرية بغير مبالاة ، فليس من
الكسب الرخيص للكتب القش أن ينكر وأن يكون فى توقيعه إغراء بذكره ..
وأما السخرية فهى شهرة مادية فى جميع الأسباع ، ولكنها تهون إذا أصابت
القطاحل الذهبين كما تصيب الخشيش المبتدئين .

وهكذا مضى عم العقاد يكتب بهذا التوقيع من العدد الأول إلى آخر
الأعداد !

أما الموضوع فقد كان المقالة الأدبية ، فى المرتبة الأولى ثم تليه المقالة على
الإجمال فى مختلف الشئون ..

وكان أدب المقالة فى تلك الآونة يستوعب مطالعاتى الحديثة أو يكاد ..

كنت أومن القراءة فى كارليل ، ومكولى ، ومازلت ، وللى هنت ، وارنولد ،
وغيرهم من أئمة فن المقالة فى القرن التاسع عشر .. وكان بعض هذه المقالات
مما ينشر فى الصحف اليومية ، لأنها تمتد حتى تبلغ فى المجلة ثلاثين أو
أربعين صفحة ، وبعضها مما يصلح لنشر فى الصحافة الأسبوعية كما يصلح
لنشر فى الصحافة اليومية ، ومن هذه المقالات كنت أترجم ما يصلح للنشر

في الصحيفة السيارة ، وعلى غرارها كنت أكتب ما أكتب عن أبناء العرب والمغرب وسبلات المد والتفليق ..

فن المقالة

وتم يخطر لي أن أخترع جديدا في فن المقالة الألبسة ، إذ كانت الصحافة المصرية تكتب قد قدمت على فن المقالة منذ إنشائها قبل الثورة العربية ، وكانت تحريرة قد سبقت «المستور» في تاريخ المنور ، وكان من كتبها المتقدمين «محمد السباعي» تميزت في فن المقالة على أسلوب المدرسة الإنجليزية ، فكان رائد هذا الفن في تحرير الصحف غير مدافع ، وكان له فيه إسهام يعرفه قرء كتابه الذي سماه «بالصور» وأراد أن يعرض به مقالات لترسيم واتخطيط المعروفة باسم الاسكتش Sketch في أدب القرب الحديث ، فلم أحول في كتابة هذا جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم أحرق غير التحيل من موضوعات الحق الاجتماعي أو موضوعات المقالة الوصفية والحالة العاطفية ، لأنني كنت مع اشتغالي بالكتابة مشغولا بنظم الشعر في موضوعاته ، وهو أوتى بالوصف الدلفي من نغلات ..

على أنني أحمد الله ، لأن المتقدمين على في الصحافة لم يفقدوا على جميع الأبواب ، فوقي لي في الصحافة المصرية باب واحد أستطيع أن أقول أنني كنت أول السبقين إليه ..

وذلك هو باب الأحاديث مع الوزراء والساسة .. فلا أعلم أن أحدا من الصحفيين المصريين سبقني إلى إجراء حديث عام مع وزير مصري أو رئيس شرقي يسمع له قول في السياسة ، وأخالفهم معنورين بعض المثر في هذا الأخير ، وأخالفني محفوظا بعض الحظ في هذا السبق المتصور ، فن الأحاديث أسر مرعون بثرانه لا يدركه أحد قبل مواعده ولا بعده ، ولا هو بمسقول في صحافه مصر على عهد الاحتلال قبل حادث دنشواي وقيام الأحزاب

من كن يحدث الوزراء المصريين في شؤون السياسة العامة وماذا يقول الوزير كأي العلم إذا أراد المقال ؟ وأي براد مع له يعرض على الناس ؟ وأي رأى كان له بعد رأى المستشار ورأى قصر اسبارة من وزراء المستشار ؟

أحاديث الوزراء

إن حديثا يجري مع وزير لا يملك من أصل وزارته غير التوقيع والسكون لهور الفنو يمينه ، فلا حرج على الصحفيين المصريين إذا تجنبوه .. وقد تجنبوه معنورين حتى خطر لي أن أقتحم هذا الباب لأول مرة ، فكان اقتحامى إياه في الحق عنانا لصفحة جديدة في تاريخ الرضية المصرية ، ولم يكن محرد سسق في الصحافة يتكرر كل يوم ..

وجرى الحديث الأول مع سعد زغلول في وزارة حمارك ، وجرى غيره من الأحاديث مع الفارزى أحمد مختار ، قوميسير ، الثورة عثمانية كما كانوا يسمونه في زمانه ، وكان على ضاة نفوذه في مركزه شخصية من أقوى الشخصيات العسكرية والسياسية التي عاشت في ذلك الزمان ..

وكنت أعلم أن حديثا متطرق إلى نظام الجيش في عهد الاحتلال ، وفيه به أكبر القادة العثمانيين في مركزه الرسمي بالدير المصري - لن يخلو من ضربة نقص مضاجع المحللين ..

ولقد كان ما قدرت ، فإن الرجل خبطه خبطة عيفة ، وقال لي لما سألته عن العنوان على المحمل المصري في جزيرة العرب : أن الذنب ذنب النظام لا الأمن في الجزيرة العربية ، وأنه كان يستطيع أن يفتح الجزيرة كلها بغرفة كالغرفة التي تعرس المحمل في كل عام !

يا خير ! ..

إن كلمة بون هذه الكلمة في المساس بنظام الاحتلال العسكري قد أوشكت أن تطيح بعرش عباس الثاني ، وقد حركت الدولة البريطانية بهذا المبرها لتهدده وإرغامه على الاعتذار ..

فكيف تراهم يصيرون على تلك الضربة من قائد عسكري يمثل الدولة العثمانية ؟ ..

إلا أنهم مكروا ولم يجهروا ، وبدأت بينهم وبين القائد الكبير أزمة متواترة .. نصرهم فيها عليه ساسرة الخذلان في الأسته ، فكان الفارزى مختار خانم القوميسيريين ، في هذه الخيار ..

ثورة على الخديو:

إذا كنت قد خرجت من صحيفة "الاستور" بأولية من أوليات الصحافة المصرية، فيده هي "أولييتي" التي خرجت بها من أول على في صحيفة يومية أول ممفنى مصرى حصل على حديث من وزير عامل فى الوزارة، أو من رئيس شرقى كبير يسمع له رأى فى السياسة ..

وقد كنت أن أضيف إليها "أولية" أخرى ذهب غير محسوس بها، قبل أن تسمع من مهبها

كنت أكون أول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة إلى سياسة الأمير فى شئون مصر وفى شئون الإصلاح الأزهرى علم التخصص ..

كانت سياسة الوفاق يعمد فى عقوباتها وكان مدار هذه سياسة على التعاون بين السلطة القطبية، سلطة الاحتلال، وبين السلطة الشرعية سلطة الأمير .. وقامت السياسة فعلا - بعد عزل الخرد كرومر - على إطلاق يد الخديو فى مسائل الحكم لثى تعنيه، ومنها مسألة الأزهر والأوقاف ومسألة الرتب والنشئين ..

وفى هذه الفترة تنمر الخديو للحركة الوطنية، وأدار ظهره لطلاب الدستور، وعمل جهده على استئصال نهضة الإصلاح فى الأزهر بعد وفاة الأستاذ الإمام، وأعلن عداوه لمدرسة الخضاء الشرعى وكاد يقضى عليه ..

وثارث اثائرة على الخديو من داخل الأزهر وخارجه، فتكلم مرة عن نهضة الإصلاح الأزهرى وأقسم أنه يغار على الإصلاح غيرة أصدق من دسوى الدعين لعبرة عليه ..

وكتب يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الأولى من صحيفة "الأخبار" لثى كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ويمررا الأستاذ توفيق حبيب، قلت فيه ما فحواه، إن الملوك لا يحتاجون إلى القسم لأنهم يشبهون نياتهم بالأعداء لا يقول !

براءة المشايخ:

وكان فى وسعى أن أكتب هذا المقال فى صحيفة "نستور" لأن صاحبها - الأستاذ فريد ومبى - كان كما أسلفت من أرحب خلق أتم صرا لحرية الرأى وحرية المناقشة، ولكننى قدرت به حريته هذه فم أتم أن أخرجه فى مسألة ترتبط بالأزهر والإصلاح الدينى، وقد كانت له فى العدد الإسلامى مكانة تشبه مكانة الأقطاب الذين ..

فلما ظهر المقال فى صحيفة "الأخبار" بدقيق "ع الاسرى"، قلت له الحاشية الخديوية، ونظرا أنه من إحياء بعض المشايخ الأعيان، فأكبروا هذا "نورد" من معقل الخديو الأمين فى أيامه، فاستدعت "ندبة صاحب الأخبار" واثته عن اسم صاحب المقال، فذكرت له أن يطعمه على ولعلم اطمأنوا فى هذه النتيجة بعد أن علموا ببراءة المشايخ من شبهة قاططت المسألة بوقتت عند هذا الحد، إشفقا من إثارة قضية الأيمرية فى ألوام التحقيق وعحاكمة والدفع وتعليقات الصحف وأحديث المنحنيين ..

ولولا ذلك لسبقت نفسى بثلاث وعشرين سنة، فكنت أول من حوكم على تلك غيرت الملكية لثى يحملها أصحاب العروش ويحاسب عيها أصحاب الأقلام ..

يومية وغير يومية:

كانت الصحف المصرية عند أوائل هذا القرن تنقسم إلى يومية وغير يومية، ولم تكن هناك صنف أسبوعية بالمعنى الذى نفهمه من الصحافة لثى تصدر مرة كل أسبوع .. فإن لم تكن الصحيفة يومية، فالصحف لثى يقال عنها أنها أسبوعية قد تصدر مرة كل شهر أو مرة كل شهرين، فى تنظم على الصدور بما فى كل أسبوع إلى أمد محدود، ثم تنقطع دفعة واحدة، أو تعود إلى الانقطاع على دفعات ..

وكانت مراعي الانقطاع على الجمعة أصدق من مراعي العيد الصدور .. لأنه كان تكرر على التحقيق حيث يتعذر التحقيق من موعد لصير ..

وبينا انتظمت الصحيفة "الأسبوعية" خمسة أسابيع أو ستة أسابيع متوالية، فكأنها تظهر مرة إذا انتظمتها فى يوم معلوم من أيام الأسبوع، فإذا ظهر

هذا العدد معاً يوم الأحد لا مانع أن يظهر العدد التالي يوم الخميس أو يوم الجمعة ، أو بعد يومين اثنين فقط من ظهور العدد الذي سبقه ، ولا معمول لميعاد من هذه المواعيد على شيء غير «ترافق المادة اللازمة للحصول ..»

شيء لزوم الشيء :

وما هي المادة اللازمة لتفصيل ؟ ..

حملة على مشهور أو فضيلة في أسوة تخاف التشهير ، أو تهديد مفنور عن حسب المناهات وبصالح أصحاب المعارضين لتهديد ، أو ضجة سياسية أو اجتماعية تشتت فيها انعام والدعايات وتتعد فيها الفرص للمتتهزين من هنا ومن هناك ..

وكان أفضل هذه المصممة الأسبوعية التي يسرع إلى الاحتجاب وتمتد عليه وسائل الثبات والاستمر ..

وقد ظهر من هذه الصنف المضطرب كثير لم يبق منها بعد حين كثير ولا قليل ، ولم يبق أحد من الصنفين الأفاضل أو غير الأفاضل ، أنه يصدر صحيفة لمصلحة خاصة ، يصدرها لمحض تشهير وتهديد ، ولكنت تراخي الأسماء فلا تروى بها من علماء ، وماذا يبقى من الخفايا وراء اسم كـ «الكرياح» أو «البقية» أو «حاسوس» أو «الجم» أو «الصاعقة» أو «المرصاد» أو «العقريت» أو «عقريت المقربين» على التفصيل ؟ ..

هذا إلى أسماء أخرى كـ «السلامة» و«الصبرة» و«الفطنة» و«السرستان» والفوضى وما أشبهها من أسماء يذورها أصحابها وهم في سعة من الاختيار ، وفي سعة من الامعاء كما يشعرون بما اختاروه من كـ «...»

ولم يعض غير يسير عن المثلث الكفايات اللازمة لإصدار الصحيفة الأسبوعية على هذا المنوال :

فقد يكون الرجل من أحد أجهلهم ، ولكنه من أقدر الناس على التشهير والتهيب واستغلال الغفاه والإشاعات

وقد يكون الرجل عاجز عن كسب مليه من هذه الصناعة ولكنه قادر على تسويد الصلحات وتطبيق «...»

ولدت من الكفايتين لإصدار الصحيفة في موعدها الملائم .. فإن لم توجد الكفتين في رجل واحد فقد توجدان في رجلين ، وقد بهتدى أحدهما إلى الآخر بحكم المصادفة إن لم يهتد إليه بحكم الضرورة ..
وهكذا كان ..

سنة الفحالة :

فقد جئت في الخامرة ثلاثة مكاتب أو أربعة لتحرير المقالات حسب المص والافتراح مقرها حانات ونهوات موزعة بين باب الخلق والعتبة الخضراء والخفة وحى الحسين ، وفي الأماكن التي كثرت فيها الطابع الصالحة لمع نصيب الصغيرة ، لأنها تكف القليل من الأجور وتتقبل المقالات ..

وربما من هذه المكاتب قهوة في العتبة الخضراء يجلس إلى صاحب مشير يكاد يرتجل المقالة في دقائق معدودات ، وقد يكتب المقالات في قترتها على وجهين متناقضين ، أحدهما للمدح والتأييد والآخر للفرج والتسديد .. ويجلس بهذه المقالات على ثقة من الطلب في حينه ، وقد يابى لغير عى التقيض من طالب واحد في ساعة واحدة ، ولا يعجزه في اللحظة الأخيرة أن يدخل التعديل المطلوب في انقياس والتفصيل ، إن كان لابد من تعديله ..

كـ المكتب العام من «مكاتب التحرير تحت الطلب» ، في قهوة على مفترق شارع محمد علي وميدان العتبة الخضراء ، وكان المطعم الذي نعوت به تدوير فيه الغداء إلى جوار تلك القهوة .. فكنت أجلس فيها هنيهة قبل الغداء ، وبعد ، وكنت ألقى لبها بعض الصحفيين والأدباء ، وأحضر محالهم ومحرراتهم وأسمنع إلى أحاديث غزواتهم وأحاييلهم في تفصيل تناوتهم ، فرأيت صاحب صحيفة من أشهر الصحف الأسبوعية في أيامها يجلس في «مكة» الشيخ المحرو وبيادته يطلب من «البار» على حسابه ، ويقفاته فل حضير الطلب في موضوع مقالين مستعجلين ، يثنى في أحدهما على سري مدير من أصحاب القصور الباذخة على مقربة من حي عابدين ، لأنه بشر في حل البر وإسداء المعونة إلى الجماعات الخيرية وإصلاح المساجد في

تجاوز قصره وإطعم الفقراء الذين يتدربون على تلك المساجد لوجه الله الكريم، ونحى في المقال الثاني على ذلك السرى بعينه لأنه مبتذل العرض والكرامة يعبر بالأبرياء فيسوقه إلى ساحة القضاء، ويطالبونه عما أصابهم من الأواء ..

تمن الغزو والنساء :

وخرجت من القاهرة إلى مطعم ولمدة أربعين يوماً . ولعلها عرضاً في ساعة واحدة على السرى المصلح المقرب ، دفع أضرار المحمود المذموم .. ولعله قد يشكك ضعفين ثلث ألف وثلثه وثلثه وثلثه من الخزي والذناء .
محتمل ما يقال في هذه الصحافة أنه كتبت في مجموعها على هذه الفترة .. بين صدقة صالحة تسرع إلى الاحتجاب ، أو صحافة فاسدة تعيش متطلعة متسكعة ، وينقص لها الحذلة من خفيات أبط . وقر أن تعتمد على بضعة غير بضعة الحبل والاحتبال

... نذل في كتب أنباء صناعة مربية ولا حرج . وطلبت أن تذكر أننا نكلم عن الصحافة . وإن لصدقة يومئذ كنت ضاهرة اجتماعية تبحث عن مكافأة . ومن أعجل الأحكام أن تارة لظهور الاجتماعية بحكم واحد في فترات النشوء والانتقال على نحو خاص ، فلابد من استثناء في هذه الفترات ، بل لابد من حكم متشدد يقابل الحكم العاجل ويلقيه أو يكاد ..

صناعة مرذولة محتفزة ..

هذا هو الرأي المفضل في صحافة مصر غير ابومية منذ خمسين سنة .. ولكن لا تستطيع أن تبخل بوصف الاحترام على صناعة الصحافة يومئذ في مصر إذا التفت من ناحية الصحافة غير اليومية ، إلى ناحية الصحافة اليومية ، لما كن في مصر يومئذ من صناعة تضم بين أبنائها أناساً أحق بالاحترام من على يوسف مدير المؤيد ، ومصطفى كامل مدير اللواء ، وأحمد لطفي السيد مدير الحرية ، كذلك كان القريس لاجتة من ي تقاس به الصناعة ..

طبقة من المجاورين :

ولا استثناء في ذلك لمقياس الدولة والحكومة ، فإن الرتب والألقاب التي حصل عليها أقطاب الصحافة المصرية من الدولة لم تكن ثقل في قيستها الرسمية عن ألقاب الوزراء .. ومن حصل منهم على « البيكوية » فإنما كان يحصل عليها من لصف الذي ينادي صاحبه بلقب الياشوية ، ويؤلا أن الأستاذ « أحمد لطفي السيد » كان من المعارضين للسيادة العثمانية لجماعته الرتبة التي أنعمت به الدولة على صاحبي المؤيد واللواء .

ومن الملاحظات التي لا يفهم في هذا الصدد مسائل الزوجية التي تعرض لها كبار الصحفيين في تلك الآونة ، فإنها تدل على إحساس عميق داخل أصحاب هذه الصناعة أودع في نفوسهم الثقة بمكانتهم الاجتماعية في شؤون متقلب فيها المرأة الكبد على كبر اعتبار حديد ، فلولاً « الاحترام الاجتماعي » الذي كان يحسه نعيم النام في الصحافة اليومية لما خطر لمصطفى كامل أن يخطب « لأميرة شوكار » ولا خطر في يوسف أن يتزوج بسلسلة بيت السادات ، وهو طموح أبعد من الطموح إلى مفاخرة بيت الإمارة ، لأن اعتداد بيت السادات بشرفه الديني كن في ذلك العهد تنوى من اعتداد الأمراء بهوانهم الدنيوية .

ولا يرجع شيء من هذا الاحترام الاجتماعي إلى مزية من مزايا الطبقة أو مزايا الثروة .. فإن مصطفى كامل كان في طبقة الموظفين الصغار ، وعلى يوسف كان من طبقة الفلاحين الفقراء « لمجاورين » للجامع الأزهر ، ولم يكن لهما من الثروة قسمة يذكر بعد أن بلغنا في الصحافة قمة النجاح .

من الكلمات التي قرأتها ولم أسمع منذ قرأتها كلمة الروائي العنقري « شارلز ديكنز » في « مقدمة قصة المدينة » حيث يقول عن عصر الثورة الفرنسية :

« إنه كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان .. كان عهد اليقين والإيمان وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور وكان أوان الظلام .. كان ربيع الرجاء وكان زهر القنوط ، بين أيدينا كان شيء وليس في أيدينا أي شيء ، وسبيلنا جميعاً إلى سماء غايين ، وسبيلنا جميعاً إلى قرار الجحيم .. تلك أيام

كأبائنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقافتهم أن نأخذها على علائها ، ولا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيجب أن تشمل عليه من طيبات ومن أقات ..

فقد قرأت هذه الكلمة فتخطر لي يوم قرأتها أنها لعبة من ألعاب المجانسات اللفظية لا تصدق على زمن من الأزمان ولا على حالة من الحالات ، فما برحت منذ قرأتها أعيدها أو تعيدني إلى ذكرها كلما صادفتني مرحلة من مراحل التاريخ الكبرى ، لأنها وصف بصدق على كل مرحلة من هذه المراحل وبصدق على كل جيل .. ومنها فترة النخبة المصرية في أوائل هذا القرن العشرين ..

حزبين الاثنين

وطالما حيرتني وحيرت غيري هذه المتناقضة بين الصحافة اليومية المحترمة ، والصحافة غير اليومية التي لم يكن لها حظ من الاحترام ..

وليس مما يدفع الحيرة أن تعلم أن خترات خائفة ، بطسفتها متناقضة مشتتة على المعادلة من طرفيها إلى حجاج ، إلى الإخفاق ..

وكنيت أحسب أن الصحافة في أوائل هذا قرن قد أصبحت هامة ، ولم تصبح هامة إلا بعد حين ..

وهذا فيما أحسب هو علة التناقض بين صحفنة يومية محترمة - بمقاييس المجتمع - وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقاييس من هذه المقاييس ..

فإنصحفة إذا كانت وظيفة هامة ، أثبتتها النخبة الاجتماعية التي تعرف لها أهميتها وتحترم إهمالها ، وهذه النخبة الاجتماعية تنتمي من قمة المجتمع ومركز القيادة فيه ..

وأما الوظيفة العامة فلا غنى لها عن رأي عام ، يستند لها ويراقبها ويعيدها ويتكفل لها كما تتكفل له بالحماية والرعاية ..

ولم يكن لهذا الرأي العام وجود في أوائل القرن العشرين ، ولم تكن الصحيفة الأسبوعية قد بلغت من القوة أن تؤسر الوظيفة الهامة التي تؤدبها الصحيفة اليومية ونهتج بها قيادة اجتماعية تعرف لها عملها وتتقن مراقب الإمداد فيه ..

كانت الصحيفة اليومية توجد لأنها لازمة مهمة في اعتبار طائفة تتولى القيادة الاجتماعية ..

أما الصحيفة الأسبوعية فإنما كانت توجد لأنها لازمة لصاحبها ومن يعمل فيها ، فإن لم يتكفوا بتغيير أمرها فما من أحد غيرهم يتكفل بتغييره ..

وعلى كلتا الحالتين كانت صحافة - يومية وغير يومية - عارضا غريبا على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يلمسها الصحفيون لأنهم صحفيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها .. فربما سمى الكاتب في الصحيفة بالتحريرجي ، أو لجورنالي ، أو الماريتشي ، أو المهر من صناعة التحرير في المطابع والدواوين التي تكتب فيها الرسائل .. فأما كلمة «الصحافة» فهي بدعة مستحدثة خلطها لغويون على وزن «فعالة» كالتجارة والحدادة والملاحة والتجارة وكل ما يتنى على هذا الوزن للدلالة على الصناعات.

ولو سئل الصحفي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة بحسب ما من سأل ونفيس السال والنسول

صناعة بغير عنوان ، أو عنوان بغير جهة ، ولا فرق في هذا بين جهة المكان وبين الجهة المعنية ، إذا سئمتنا هذه العبارة من لغة القانون ..

في سبلند دياره :

لقد ترى في سبلند بي ، أناسا من الصحفيين ، ولكنهم لا يقصدون لأنهم صحفيين مشغولين بهذه صناعة .. وإنما يقصدون لأنه ملتقى المهاجرين من سورية ولبنان والعراق وغيرها من الأقطار العشائية ..

وقد ترى أناس آخرين في قهوة الشيشة ، أو القهوة الوطنية ، أو قهوة يلدر أو قهوة متاتيا ، أو قهوات الحمى الحسيني ، وياك الخلق ، وانجباله .. ولكنك لا تراهم هناك لأنهم يعملون في هذه الصحيفة أو تلك ، وإنما تراهم حيث كانوا لأنهم يبخنون الشيشة أو يشجعون قهوات المصرية في أول عهدها بمنافسة القهوات الأجنبية ، أو لأنهم يلعبون الشطرنج والنوبسة ، أو لأنهم تناقلوا سن

الجلوس في هذا المي أو ذال من أيام الطليعة الأولى بين الأدباء رواد الأندية العلمية .

وعلى هذا الاختلاط بين البيئات الصحفية . أو البيئات العلمية . تتحقق من أمر واحد لا اختلاط فيه . وهو اتصال تلك البيئة بالحركات عامة في الشرق كله .. فله تعرف حركة عامة في قطر من أقطار الشرق .. تركزها هبة يفيض الحالسي .

هناك ترى الباحث في فلسفة النشوء والارتقاء أو مذاهب الاشتراكية أو تحرير المرأة . ومعهم ترى رئيس جماعة «توكيا الفتاة» أو صاحب الصحيفة الإيرانية حرة . أو مؤلف كتب طبائع الاستبداد . أو عصابة حملة على فتوى الترسيد . وهناك رأينا إبراهيم ناصف التوراني بعبقريته الدائمة على أطراف الأزق والقبين . ورأينا مصطفى الحفيري - هبة إسلامي الهندي الذي جرب حنته في مصر واعتقله الكهنة من أئمة فحكموه عليه بالإعدام . وغنوا الحكم على أرغم من احتجاج حولة الإيطالية

وهناك تلتقى من تلقاهم من الأدباء الذين لا يشعرون - صحافة إلا إذا كتبوا إيجاب . ومنهم كانت صفوة الصحب والملا على قلة قلوبهم وتروندنا على الفتنة غير موعود أو مصافة .

وكانت صناعة كلها عارضا غريبا في بيئات غريبة

صناعة بغير عنوان :

صناعة بغير عنوان أو عنوان بغير جهة .. ومن هذا تيه بين البيئات تعرف ما يحيط به من الغلق أو من «التوزع» والبعض بين مختل الشغل والهموم .. إلا أنه جرى الدمة قبل ختام هذه الخاصة بين السكرات منسل . أكانت الصحافة حقا عارضا غريبا في الغربة في المجتمعات المصرية أو الشرقية ؟ يمكن أن توجد صناعة في مجتمع من المجتمعات دون أن تسبقها صناعة متشابهة في فتنة على أساسه ؟ ..

أكاد أقول أن وجود هذه الصناعة مستحيل . فلا بد من صحافة قبل الصحافة على صورة من الصور . ولابد من صحفيين قبل الصحفيين .

والصحفي في المجتمع المصري لم يوجد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته . فمن يكن هذا الأب أو هذا الجد الذي ننتمي إليه أجمعين . نحن معاشر الصحفيين ؟ ..

هو «الليبيب» على أحسنه وأغلاه . وعلى أسوئه وأدناه .. والليبيب الذي يعلم حتى ينمو مكان أواعظ المسموع والسنشمار المعول عليه والمعلم الذي يسمى إلى المعلم المستفيد . يصدر إليه ههيم المعجب سحر الكلام وعنه السلام . والليبيب الذي يسطح حتى يصدق عليه وصف «ثائرة» أو الأدبسي . الذي يفهم بالإشارة ولا يتورع عن المسيلة في طلب الرق الدماح والمحفور . ولا يبالي ما نصيبه في سبب من الزاوية والابتدال

الليبيب هو «جده الصحفي في مجتمع المصري» على أسوئه وأدناه وعلى أحسنه وأغلاه .

...أزمة قلم...

تعطيل الدستور.

بقيت في تحرير صحيفة الدستور، حتى فرغت من كتابة الكلمة الأخيرة في عدده الأخير..

وقد مضت ملياً قبل احجابه أشهر ونحن نعد أننا نكتب أعداد الأخيرة وإن كنا لا نعلم أنها يكون الأخير الذي ليس بعد الأخير.

وأبت اعروءة على صاحب صحيفة أن يمتن أحداً من أصحاب البيوت عليها أن أصحاب الأجور فيها بدرهم واحد . فاتفق مع تحر من تحار البزق المشهورين على أن يشتري مؤلفاته جملة واحدة ساداً لشن الجور . وما إليه ، واتفق معه في الوقت نفسه على أن يشتري النسخ من الموفنين والمعال باتفنها المتفق عليها . وأذكر أن ثمن النسخة من معهم كثر الغزو واللغة . لم يرد في هذا الاتفاق على ثلاثة عشر قرشاً ، وكانت قبل ذلك بمئة قرش ثم بيع بعد أشهر قليلة بخمسين قرشاً ، ثم بسبعين .

ولقيت الرجل مودعاً فقال لي أنه يرجو أن تتعاون معاً في عمل صحفي نمن أقدر عليه وأصلح له من الصحافة السياسية ، وأنه يدرس الفكرة ويخصها لي عسى أن أفكر فيها ، ويرجو أن يبلنني نتيجة درسه لها بعد سبوعين أو أشهر إلى الأكثر . إذا صح العزم على الشروع في تنفيذ ..

مقالاتي مرتين !..

كان الأستاذ فريد وحدي يصدر مجلة شهرية تسمى «الحياة» ويكتب فيها أحياناً مقالات خيالية تسمى بالوجديات . ثم تفرغ لإصدار الدستور وتكون المجلة إلا في فترات متباعدة يعاودها كلما اجتمع له من مادة الفصول الأدبية

ما يملأ عدداً من أعدادها . وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالاتي التي كنت أنشرها في الصحيفة اليومية ..

أما «الوجديات» فقد كان يكتبها على أسلوب المقامات ويندرج على المواعظ الاجتماعية، وتقريب المثل العليا التي تصطبغ على الدرام بصيغة الدين أو بصيغة الأخلاق المثالية ، وكان لها قراء كثيرون يطلعونها كلما طالت غيبتها وقد تصدر منها طبعات وثلاث طبعات .

قال الأستاذ : «إن الحياة» أولى بمقالات من الصحيفة اليومية . وإنك تستطيع أن تجرب قلمك في المقامات فتظهر «الحبة» وفيها مقامات ومقالات إلى جانب «الوجديات» ولولا أنني أستمر حتى أعلم أن هذا العمل يعرض تكايفه ويفنيك عن عمل آخر لشرعاً في منذ الساعة ، ولكن قد شرع فيه بعد أسابيع ..

..بلا مسمى

ومضت الأسابيع ولم أسمع من الأستاذ خبراً عن هذه الفكرة ، ولم أصل من دراستها بيتي ومن نفسي إلى نتيجة تدعو إلى ثقة بتجاهها ، فوجب البحث عن عمل لي في الصحافة أو ما يناسب لصحافة ، ولكن ما العمل الذي يتيسر لي عند طلبه على عجل ، ولابد من العجل ، ولا صفة بالانتظار ..

ألقى الصحافة في تلك الأونة مظلم يضيق عليه «ظلام من قرارة» . ولا خروج منه شعاع برانية ولا جوانية ، لأن البلاء الذي كانت تصاب به الصحافة من داخلها قد كان أشد عليها من البلاء المنسلط عليها من أعدائها ..

كان اللواء . في حياة مصداق كمر يعزل عن موارد بلد وعسك ومعونة بعض القبولين من سراء الترك والمصريين ، وقطعت موارد يندر وعابدين من قبل وفاته .. وانقطع الأمل في موارد يندر بعد زوال عهد عبد الحميد . وفي موارد عابدين بعد عراض الخديو عباس عن لحزب الوطني في عهد سياسة الوفد واستحكم العداء بين الناشية الخديوية وظيفه مصطفى كامل «محمد فريد» .. وقد كاد فريد رحمه الله ينهض وحده بعباء الداء الملية والسياسة . لولا ما أصابه من المصادرة بعد المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى أجمع مزيته آخر الأمر على هجرة الديار ..

وكن «المؤيد» يزدهر في إبان نشاط صاحبه «على يوسف» .. ثم تكب من الرجل العصى نكبة قاسية عصفت بنشاطه قبل أوانه ، إذ فجعت المنية في وحيده في مستقبل صباه ، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات الأسرة ومشكلات «مشيخة السادات» التي سافته قضية الزوجية إليها ، وما زال يمر الملل يسرى إليه ويزدهر في صحيفته العزيزة عليه حتى تركها بعد حين للمقابر ، وقد لا يبالي ما سوف تلقاه ، أو ما سيلقاه ! ..

وكانت «الجريدة» أسلم الصحف من هذه الزعازع وأشباهها ، ولكنها على هذا لم تسلم من ضروب خصومها السياسيين وفي مقدمتهم الحاشية الضبيية، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية .. لأن حاشية الضم افتتحت عهد توافق بين السلطين الشرعية والعلية بمعارضة «حزب الأمة» قبل غيره من الأحزاب ، لأن أعضاء الأحزاب الأخرى كانوا يلقون «مقصود» يقاضون ، خلافا لأعضاء حزب الأمة الذين كانوا يقفون من الخصم موقف الاستفاد أو يعرضون لنضبه في كثير من الأحوال ، فسعى رجز حاشية سببه لتحوير الأعضاء من حزب الأمة إلى حزب الإصلاح ، ونجح سعاد بعد اختيار وكيل حزب الإصلاح للوزارة وتنازع الإتمام بالرتب و«تدب» عن أعضاء البارزين .. ولم تبق للحزب بقية قادرة على الصمود والمقاومة إلا بجبه جهيد ، ولكنه بقاء لم يعمم الجريدة من أزمات المال والخلافات الداخلية وعرفت من محيرتها يومئذ من تركها لأنها اضطرت إلى القصد في وظائف التحرير بعد اتساعها فيها عند نشأتها ، حتى كانت تقنع من المحررين بنهر من اليوم ، ولا تسلمه إذا ونى عن كتابة هذا النهر عدة أيام .

حصة الظلام :

وتك من الصحف التي أُنشئ إليها إذا نظرت إلى عمل في الصحافة اليومية فاما الصحف الأسبوعية فلم يكن فيها مجال تغير لصحابها أو تغير كتب المقالات - بالقطعة - على حسب الطلب ، وعلى كثر لئن ، وفي عرض الضيق ؛ وربما تنكى لصحافة في مجموعها أن تغالب هذه المحنة ، وأن تنفخ عيب في السببة لو لم تحب عليها طامتها الكبرى من قانون المطبوعات ليرجى

قانون المحر والرقابة وتبديد الرخص وصحابة الكتب على المطور وما بين السطور ، وعلى الأقوال والنيات

وقد انطوى هذا القانون بعد نشره في أيام الشدة العراقية . ثم ظل العمل به زمنا طويلا حتى تسمينا نحن الصحفيين الناشئين أن في بلد مدونا للصحافة كان يسمى قانون المطبوعات ، وأن الكاتب يسأل عن شيء قاته في حدود النقد المباح كأننا ما كان مقام المنقود في الحكومة أو في الجلاء ..

ومما يؤسف له أن يصيب الصحافة من هذه الطامة التي جرت على نفسها لم يكن أهون من تصيب الحكومة ، وأنها جنت على حريتها ولا ريب بما روت به «السلطة» من معاذير ، يقلها كل من يؤمن بحق القائل

فلا شكر أن أحدا من أعلام الصحافة كتب في صحفته كلمة تتخلل بها الحكومة لتقييد حرية الكتابة أو قال في خضنة من خطبه كلمة تصب بها لتقييد حرية الخطابة والاجتماع ، ولاستثنى من ذلك «مصحفي كسر» على تطرف واندفاع في الخطب ، وفي المقالات ..

ولكن الصحافة اليومية لم تثبت أن صارت إلى الأفلام التي لا تحسن شيئ كما تحسن أن تستمع معاذيرها وأن تهبط العذر لمن ينسجون الحق عليها ، ولا تخال أن جاكنا حراً أو مستبداً كان يعنيه أن يتمهل الحق للحجر على الدعة الصريحة إلى القتل وإمداد الدماء ، ومن أمثلتها ما نشر في «وطنيتي» من أبيات يقول فيها ناظمها :

هل سأل في مصر الدم أم هل سأل في مصر
ومضوا إلى أهل الضلا فاعدموا من أعداء

فإنه لمن سخافة القائل أن يتهم بالاستبداد حكومة تسمح بنشر هذا التحريض ، فإن لم تكن مستبدة فمن السخف أن يحاسب على منع هذا التحريض وتحريكه . فما كانت حكومه حرة أو مستبدة لتحاسب على هذا المنع وهذا التحريم .

عنفت قبرها بيدها :

وكثما كانت الصحافة الأسبوعية والصحافة اليومية في سباق بينها على تدبير المعانير للسلطة التي تعمل على تقييدها ولحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحافة بين الأسبوعيين في تلك الحبر يستبشرون كل محظورة في التدبير واستغلال الخصاص والاعتراف الكاذب لاغتصاب الاتوات التي تمنح على تقييدها والصبر عليها .. فقد كان جمرة الصحفيين الأسبوعيين في ذلك لعين سوء حظها وحظ الأمة أن يكون من بلاد كبر أبنائها وأول من يصاب بسوءها . فكان التشهير بأعضاء مجلس شورى بابا ثابت من أبواب كل صحيفة أسبوعية تبحث عن الغرسة بين عرى الاسماء المعروفة . ولم يكن لأعضاء مجلس الشورى سلطان في الحكم يدسون فيه أو يدنسون فيه ، وإنما كانوا من أعيان البلاد وكان كثرة بعاصم البلاد على مقربة من جمهرة الصحفيين الأسبوعيين فكانوا أن يتدبروا عن البلاد حسبا في تصانيف للصحافة الأسبوعية وتصدي بعضهم للسلطة بتقييد لأقلام تل أن يتصدى بها الوزراء والحكم

قل أخدمه للأمير حين نمل مستثيرا نفوته . هل يرغيك - صاحب السمو أن يدل عنك أم رئيس مجلس الشورى ؟

وعلى هذا انصرفت إلى البيت بالكسبة وقلب الحال ، وينادي بالحجر على حرية الصحف من كانوا أحرق أخاس بالغيرة على حريتها لو لم يكن قوامها العدوان على حرية الناس ..

في القنطرة السوداء .

وطأت محنة الصحافة هذه من بجنون علب من أبنائها العاملين فيها ومن أعدائهم السخطين عليه

وطأت حيرتي بين العمل بين والعمل في غيره ، وأين يكون العمل في غيرها ؟ إنه التدريس ولا شيء غيره . فإن لم يتيسر في المدارس الأهلية فقد يتيسر بإعطاء الدروس الخصوصية . وأما وظيفة الحكومة فهيبت الآن «هيهات» لا هيبت واحدة .. لأنني كنت قد اشتغلت بالصحافة أنتحى عن وظيفة الحكومة فخوري منب . فالآن طلب - إن صلت به - ولا أظفر برضاها . بعد أن ثبت

أسى في سجلات الحكومة بين أسماء القائمة السوداء وبعد أن صار الغضب على الصدفة والصحفيين غنيا عن الأسباب ..

ولابد من عمل عاجل على أية حال ، لأن تكليف المعيشة على الشاب الذي لا يكسب رزقه من وظيفة . ولا من مورد يملكه . ضرورة ملحة لا تحتمل إلا رجاء من يوم إلى يوم .. ولا نقول من أسبوع إلى أسبوع

وكرهت نفسي أن ألجأ إلى أحد من المبسورين من أهلي ، وهم غير قليلين بحسب الله

كرهت نفسي أن ألجأ إليهم . لأنني تحديتهم جميعا وخبيت رجاءهم فاضطه ب خروج من الخدمة الأميرية بعد أن وصلت إليها بين مزدحم حظاب استهافتني فيها . وشق على أن أرفض نصيحة هم ثم أسعى إليهم لأتصير معييتهم . وخيل إلى أنهم قاتلون بلسان الحال أن لم يقولوا للسان المقول : أنت قد ضرت وذهبت إلى الصحافة .. فإمامك اليوم صحافتك العزيزة . فخذ ما تمك

لم يأت يجد الغنى ، ما العمل ؟ ..

تبين لي بعد قليل أن المصرف الأكبر بالأمس صالح أن يكون اليوم عزى أكثر . لم يكن موردى الوحيد ..

هذه الحب الكثيرة لم لا تباع إلى أن تتجدد الفترة على شرائها . إن تجددت حاجة إليها ؟

بنتها الآن بالمئات بعد الإقبال على شرائها نحو ثلاث سنوت . وليس من يتصور أن تناع بشن الشراء مع الحاجة الملحة إلى البيع السريع . ولكنها تباع بما يكفي قوت اليوم واليومين ولأسبوع .. وقد تكفى خمسة قروش قوت يوم في تلك الفترة ، ولا علينا من أجرة البيت وأمثالها من انطقه السبعة حتى تجبرنا على طويلا أو غير طويلا ..

وتدرك مرورا دفعا قد يستفينا - مع الدروس الخصوصية - بضعة شهرين .. نولا خير . وبنت حواء . جزاهن الله بما هن أهل به من جزاء ..

عن كسر الريف عرف خير ما في بنت حواء من مرومة وصفات . وقد يحده من شر . فيهن من كيد والنواء ..

من الأمهات المتطوعات للشباب الناشئ المفرد عيشت في عقر داره ..
من ترى يهين له طعامه ؟ من ترى يهين بتطيف ثيابه وترتيب أثاثه ؟ ولم لا
ينزج ؟ ومن تراها تنفعه وتلاشه من بنات الجوار ؟ ..

وقد كنت أسكن في حدائق اثنية في ضاحية كاهية الريفية في كل شيء ،
ومنه - بل أهمه - الأمهات المتطوعات والخطيبات المزعومات ..

وكانت لي خطيبة منهن لم أخطبها ، ولم أتحدث إليها ولا إلى أحد من أهلها
في حديث زواج .. وكانت لها صاحبة لعيب في من سنها متزوجة من بعض
نوى قرياتها ، فقدت لي ذات يدي : إن لالة لا تنز إلى فاحيتك في هذه الأيام
لأن صريحاتها يماكنها ويسينها خميرة أبو خويلة ، ولا تنضب هي من
هذه النسبة ، بل تقول لهن مزودة مستخفة ، وده أبو خويلة أليس خيرا من
المساخير ؟ ..

ولم أشأ أن أجيب الفتاة الملعوب جوابا يكسر خمر الخطيبة التي لم أخطبها ،
ولم أشأ كذلك أن أجيبها جوابا يربط الخيبة المزعومة ويؤكد لها : .. ولم أزد
على أن قلت : شكرا لفتيات الحاشيات ، لقد أحسن والمه الاختيار والانتقاء ..
ولو كان في نيتي أن أتزوج أو أخطب لم وجدت في الحى زوجة أجمل من
صديقتك الحسنة ..

قالت : كنتك في غير هذا الحى تجد من تخطبه ؟

قلت : ولا في غير هذا الحى . ولكنني الآن في شغل عن الزواج .. أفلا
ينبغي أن أغول نفسي قبل أن أفكر في زوجة أمول ؟ ..

وكلتها خطبة قد انعمت بهذا الحوار ، وكنت حق مكتسب للسؤال عن
الحركات والسكنات ، وعن المبيت في المسكن وغيره عنه بعض ليال ..

ولم أفارق المنزل يحملني من الكتب على نفسيين أو ثلاث حتى اعتدلت
الخطيبة أنني أنرى الرحيل ، وأم بفسخ الخطبة التي لم تنعقد قط بكلمة
تصريح أو تلميح .. ومرت اعتدما عندي أنني كنت أحمل كتابي للمطالعة إلى
حقل من حقول الليمون بجمار جنول في طريق كنيسة ، فقبل لها أنه يهين بفتاة
قبضية هناك ، وأن يؤجل مسألة الزواج بها لأن مشككة ، لا تتحل إلا إذا
أنحلت بينهما مشكلة الاختلاف في الدين

وأين أنتم يا أصحاب المنزل لغاليلين عن سكانه وعن زواره وجيرانه ؟ إن
ساكنكم الأعزب ليستند للهروب الأجرة المتأخرة عليه .. فإن لم تصدقوا
فتريصوا له في الطريق وانظروا إليه وهو يحمل كتبه دفعه بعد دفعة ليترل لكم
حجرتكم خواء خلاء ، لا يوضحكم عن أجرتكم الضائعة إن حيزتم عليه !

ومصدق أصحاب المتبر الغافلين ، أن المزعوم عنهم بالبازل أنهم غافلون

وحبل بيني وبين أول رصة من الكتب خرجت بها بعد هذه الوشاية ، وكادت
أن تكون مشاهرة رقية من طر الشجار بالنيوت على الحقوق الضائعة ،
ولكن الله سلم وأهمني أن أصلم كتب وأمنى بسلام ..

وفي يومها اقترضت أجرة السفر للعودة إلى أسوان ..

وفي اليوم التالي لوصفي إلى سوان ، أرسلت منها حوالة يردية إلى صديق
لي من أبناء الأقليم يدعى محلا مشهورا لبيع الطرايش وتركيبها .

وانتهى كيد حواء ليلحق به كيد نقادير نتي لا تقع في حسيان ..

فقد كن صاحبنا عرابيشي ممن اشتركوا في ترويح الطربوش الأبيض
احتجاجا على دولة النسبة التي كانت تصدر إليها العرابيش الحمراء ، لأنها
أنحلت ضم بلاد البشدي إليها من أملاك الدولة العثمانية ، فقاطعها المصريون
واستغنوا بركة عن الطريش الحمراء بالترابيش البيضاء .

واضطفتها وكلاء العمل المسيرة في القاهرة ، فنصبوا فخاخهم وحبائلهم
لجماعة التجار الذين اشتركوا في حركة المقاطعة ، ومنهم صديقنا الطرايشي
من إقليم أسوان ..

فلما وصلت الحوالة بريدية من القاهرة ضاعت في تيه الحراسة والحجز
والتصفية وإجراءات «النشيك» وساء الحسابات ..

ومضت سنوات وأنا في أعظم مصير كتيبي في معتقلها المهجور ، وإلى أن لقيت
الاستاذ عبد العزيز اخنوع فأنبأني أن جيرانه في حدائق القبة عرضوا
عليه تلك الكتب فاشترها ، وب على استعداد لردّها لي بشتمها إذا أردتها ،
فشكرته وقلت له أنني لا أحتاج إليها ، ولكنني قد أستردها بشتمها إذا اتسع لها
مكان عني ، ولم يتسع لي - مد - مكان .

... بين الأمل واليأس ...

وصلت إلى أسوان كالسافر الذي طوى الميلى وصلا غير راحة ، ثم ركن بحنيه لحظة واحدة إلى طرف الفراش .

انه في سهرته يواصل الحركة ولا يبالي متى يرقد ليسترخ . ولكنه يرقد لحظة واحدة فلا يدري متى هو قادر على النهوض .

كنت أجنون على جسدى ولا أعرف لهذا البحر حدود يرجع عنه ، لأن تلك الحدود لم تصدمنى قط بصخرة من صخورها ولا بعاجز من حواجزها .

وكنت أحضر ندوة الزملاء عند ميدان الصبيرة بالقاهرة . ثم عسر المذبة فى ليالى الشتاء إلى مسكنى على حافة كفر حسانين . فلا أكتفى للمطر ولا للسرد ، ولا تنس المظلم ولا أحمله تخفف من مؤنة حبس على سراج . وهو معلق فى حجرة الدار يملؤه الغبار ..

وكنت أقضى اليوم فى حدائق القبة على وجبة واحدة من خبز وجبن أر من الخبز والقول ، ولا يخطر لى أن إهمال الغذاء ضرر أنكره لحظة بعد ذهاب الجوع .

وكتب أفتح الكتاب الجديد ليرقنى ما قرأته فيه فلا ألقه من يدي حتى أفرغ منه آخر الليل . ولا ضياء فى البيت غير شمعة ومصباح يدى فتيل .

وكنت أحسب أن سفرنى إلى أسوان ضرورة تجبأتى إياها . فقلت : مصروف . فى القاهرة . فلما وصلت إلى أسوان علمت أنه ضرورة من ضرورات ذلك جدال ولكنها ضرورة الإفلاس فى ذخيرة البنية وأغصنها وليست بضرورة الإفلاس فى ذخيرة نجيب ! ..

وقد وقع غى خلدى أننى أزداد نشاطا فى بلنى لأنها مريحة للجسم ومضحة لنفس بين لأقرباء والأهراء ، فعمجبت بعد أيام حين رأيتى تحت ضغط لأيسر لأعمال . وكنتم أحسنه تبرا متجددا لا يقبل ..

تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدأ لى كحتنى مريض بكل داء ، معروف وغير معروف .. ولا مرض هناك غير الركود والاعياء بإجماع الأطباء ، ومنهم الخطاحل العالميون الذين يقدون إلى حسيمة مشغولين أو يقدون إليها فى حواشى الأمراء ..

وتملكنتى فكرة المرات العدىل ، فانبشنتى لى لم أحد فى قرارة وجدانى فزعما من هذه الفكرة . وكنت أقول لنفسى أنتى عليها ولا أنفر منها ! ..

وأحال أن صدمة اليأس كانت أشد من عجزى من صدمة المرض ، أو على الأصح . من صدمة الإعياء .

وأشد ما أصابنى من هذا اليأس أنه كان يأسا من جميع الآمال . ولم يكن يأس من أمل واحد ..

خلاصة الأمل

كان يأسا من معنى الحدة ، ومن كبر ذية من الحدة ، لأننى قبل ذلك بشهر عكفت على القراءة فى كتب الفلسفة الحديثة ، وأكثرت من النظر فى مذهب التشو والارتقاء ، فلاح لى أنه أصدق من أقول خصومه المتعصبين الذين تصدوا للود عليه بين الأوربيين بأسد خين . ولاح لى من النظرة الأولى على غير روية فيه أن مهبط بالإنسان إلى حضن الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجا واحدا يرتفع عليه ..

وكذلك كتبت فى مقدمة كدى « خلاصة اليومية » .. أن « الإنسان حيوان راق ، لكنه حيوان .. »

وقصة « الخلاصة » هذه هى قصة الأمر لى يقى عندي يومئذ فى شهرة الأدب ، وفى عند الأيام أننى أنضيتها قبل ضي هذا كتاب ، وكنتم تظننى مبالغا إذا حسبتها ياكتر من الأيام !

هو الموت إذن كما استقر فى خدى بلا أثر ولا خير .. وهو الموت إذن أمضى إليه صغر البدين من مجد الله ومن مجد الدنيا ، ومن كل محد بغير بعد داء ..

وهل هذا بليق ؟ يا ضيفه الرجاء المتطلع إلى عشايفه رعياده ؟ وهل من عديده في اليد تجبر خاطر العرف على أبواب الأبية ؟ وهل بدل أنه جلس على الأبواب في انتظار زماره فارغة السين ؟

ويحذر أنني كنت أظن في تلك الغاشية أن أوفى القران لخطوب بصديق كتاب من وحى الساعة والناسبة ، ولكنني علمت عنه لضيق الوقت واشت في تساء لأجل .. ويجوز أنني أحاوله وأستند به الفضلة ابغية من مطلب عمر محدود .. فإذا كان ما تيسر كافيا فذاك ، وإن كان محدود ضريبة أعلى مما تريد فله أن نقاضاها حيث يلقاها . فلا خير في وجوده بغير السجود .. وما تيسر يومئذ هو «خلاصة اليومية» .

يوميات اليأس !

و «اليومية» هذه هي دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر وتعليقات وآيات إلى .. آيات الشعر التي نظمها ولم أنسها قبل أن «أشأ» .. رؤوس موضوعات التي نظرت فيها ولم أفرغ من «راستها» .. أو ملاحظات وآيات لأحبيبت العائرة التي أعوذها في مناسبتها . وقد اجتمع عندي من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات .. فلما وقع في وهي أنني «كاتب» - بغير أثر ولا أثر - تصفحت هذه الدفاتر ونقلت منها صفحات متفرقة شتمت على جميع نماذجها ، وبعثت بها إلى صديق في القاهرة أقبل له أن هذه «نصفحات في كل ما أتركت» إذا تركت الحياة . فإن وجدني أهلا للذكر وجدني أهلا للنشر فبنت كرامة لصديق الراحل على الصديق الباقي . وإلا فلا حرج عليه أن يعمل شرفه ويسلمه للنسيان يطويها حيث صواها في زاوية من زوايا ..

وبنت هذه «العلامه» المخطوطة سلاحا من أسلحة الحكمة والكتابة يتحذه إحراب الذين عرفوا القصة ولم يتورعوا عن استغلالها .. فمنهم من يقول متفلسا : متى تظهر خلاصة أيومية ؟ لقد ضل الأمد على تنقارها . ومنهم من يقبل مستهلا كل ما شكرت أو التمسست لعلاج : على ذلك بالله .. إن «خطوب» مشغولة في هذه الأيام .. فاصبر ليها حتى تفرغ تطبع خلاصتها ..

وما برحوا يستمعونني ويستملكونني حتى أرحتهم وأرحت نفسي بطبع خلاصة اليومية بعد أن أضفت إليها وحذقت منها ، وكان من التوقيفات التي لم أترقبها أنها نغدت في أقل من ستة شهور ، فلم يبق من ألقى نسخة طبعها منها غير مائة أو ثيف ومائة ، وهو نجاح عريب لكتاب ولدته فكرة بانسة من الحياة ..

الأكاذيب المتفق عليها !

ولقد عاش معي وهم الموت حقيقة في أسوان ، وعاش معي حقيقة أخرى في القاهرة .. بعد أن رجبت إليها في رقدة الصيف ، ولكنني التفت فلم أجده معي في شاطئ الإسكندرية يوم ذهبت إليها لأول مرة ، بل وجدتني مع عرائس البحر وعرائس الشعر في لجة من لجة الأمل والامغامرة ، وورحت الإسكندرية بعد شهرين لأبحث عن عمل بالقاهرة .. أين ؟ أمي الصحافة ؟ كلا .. فما زالت الصحافة في مثل مهنتها التي عهدتها يوم انتهيت من عمل فيها .. أمي التدريس ؟ كلا أيضا .. فإن المدارس قد بدأت عملها ، ولا معرفة لي بأحد من أصحابها .

ولم يطل بحثي هذه المرة ، فإنتى وجدت «المأوى» التي لايت منه في عمل بين الصحافة والوظيفة ، أو بين خدمة الميرى والخدمة الحرة ، فعمدت في قلم السكرتارية بيدوان الأرقاف ..

كان الأستاذ «عبد الرحمن البرقوقي» رحمه الله قد أصدر مجلته «البيان» وكنت فيها بعض النصوص ، ومنها تلخيص لكتاب «ماكس نوربو» المشهور عن أكاذيب المثنية الصائرة ..

وكن من ذاب الشيخ البرقوقي أن بسك شيوخ الأدب رأيهم في مقالات المجلة وأبوابها .. فسك حافظ عوض ، وسك مصطفى صادق الرافعي ، وسك محمد لميولي صاحب عيسى بن هشام ، فانتقد حفظ عوض عنوان الكتاب كما ترجمته المجلة . وزاد انتقاده في ثقة الشيخ بكتب هذه السطور ، لأشتر ترجمت عنوان الكتاب «بالأكاذيب المتفق عليها» واقترح الشيخ البرقوقي أن يسجعه «ليوافق أسماء المكتب فجعلناه «الأكاذيب المقررة في المثنية»

الحاضرة .. فلما جاءه القدر من بعيد - وهو على عادة مربي التصديق - قال لي أنه لن يرفض رأيي مطوعة لرأي المجوعة بعد الآن

وعال مصطفى صادق الرافعي فزاده انتقده ثقة بى كذلك . لأنه قال لى أنه يسمع حكمه فى آجيان العربى ويرفضه فيما عداه ولا سيما كتابه « الفكر ومباحث العصر » الحديث ، وقد أنحى الرافعى على « نوري » وعلى كاتب هذه السطور فحسنت هذه الشهادة المعكوسة عند الشيخ ..

ولقى صاحبنا المولى على نسائه عنى قائلا :

- بعد . يشتغل هذا الشاب ؟

قال شيخ بلا شئ !

قال : إياه يعبت على شئ - من ميراث جده العقاد ؟

فأخبره الشيخ حتى لا تسى إلى السب حسن موسى العقاد « الشيخون ، وأنه لا تسى ، بينى وبين ذلك البيت ، وأننى أعيش بالقليل مما يربى من أهلى . ويأخذ من أجور المقالات أو فصول الكتب المترجمة .. فقال المولى : منسب . أنه أوى بأوظيفه من أكثر « الكتابة » التى عننا فى هذا الديوان . فطلبته . فاجيبه منى لسعته بغير امتحان ..

وقد كان ديوان الأوقاف فى تلك الحقبة مجمع الأدياء والشعراء من شيوخ وشبان . كان فيه محمد المولى ، وأحمد الأزهري صاحب مجلة الأزهر ، وأحمد كاشف ، وعبد الحليم المصرى ، وعبد العزيز الشيرى ، وحسن الجمل ، يعسن البرس ، وعلى شوقى ، ومحمود عماد ، ومصطفى السامى ، وغيرهم من « المحررين » المغمورين .. وكان على الأول فيه مساعدا لكاتب المجلس الأعلى بنظم السكرتارية ، وهى وظيفة من أخطر وظائف الديوان فى ذلك الحين

مهمرة الخديو :

وكانت من قسمة واحدة تلفانى على صوب متعددة فى جهات مختلفة .. فكما اشتغلت سبل من الأعمال وجدت فى أبان أزمة من أزمات أو مرحلة من مراحل

الاضطراب فى تاريخه ، وأول هذه الأعمال عملى فى وظائف الحكومة بعلينى قنا والمشرقية .

فى هذين الإقليمين بدأت أول حركة من حركات الشكاية لاجتماعيه بين الموظفين من الاحتلال ، ولم تزل قائمة حتى انتهت بمرور سنة واحدة لأدى سريته برفضه من خمسة جنسيات والشرع فى تعديل نظام جلاوات بقتل

و تسعت . لتحرير السيسى يوم كانت الصحافة المصرية فى أحرج وقتها . ثم بعد ثمرات وفل إعادة - من المضبوطات ..

ثم فى استقل ديوان الأوقاف ، ولم يزدان المعركة لخدمة بين سلطة سريته بسلطة الفعلية وطلاب الإصلاح . ولنت بأسف على هذه شعبة حتى تسرى إلى الأعمال فى أبان أزماتها ومراميل اضطربها . فما كنت حتى تترجى النقطة من فترات الهدوء والاستقرار .. وكى عملى من نيول : قد فى سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤ أكثر من عملى فى وظيفة .. وضمت بترتاق فقد كنت أجهل الكثير من حقائق بلدى ومن أسرار شؤونها بعدة بى : أقضى لك السنتين فى ذلك الديوان ..

كانت بى الخديو مطلقة فى وظائفه وأمواله .. وكان بى الأسبق التسبب يحتكره : شباغ نهم من المال والديسية ، ولا يأتى أن ينف إلى اختلاص من أمور : صدقات واستباحة السمرة على صفقات الاستل .. وتدعت فى ش الأية قصة أرض المطاعة التى أخذ فيها الخديو لنفسه ستين ألف جنيه بسم : عبولة أو بوساطة .. وعد بعد فتنق كل من : رضوه ورضاه : فى عريقة من الموظفين النزهاء . فعاقبه على الأمانة والبقظة . فحصل وبعثل : كان سكون يحاربون الخديو على غليد النزاع بين السلطين . وبعثل : بى بستان : هذه الحكومة الصغيرة فى داخل الحكومة الكبيرة . وبعثل : أعده : يستطيع المسس بالمعاهد الخيرية فيرجعون سرا إلى الأمانة لحسن الشرف فى دار خلافة وتماس الفتوى من شيخ الإسلام بجوار ارقابة الرسمية على خاص خيف . وعلى ناظرهم الكبير . وهو أمير البلاد ..

وكان طلاب الإصلاح يهتمون بأمر واحد .. وهو القضاء على المقاسد في ديوان يرتبط به نظام المعاهد النبتية أشد الارتباط .. فلا أمل في إصلاح هذه المعاهد ، ولا في إصلاح القضاء الترعى مع ، ولا في إصلاح الأزهر بفروعه ما لم تكن إدارة الأوقاف خاضعة للرئاسة الخنثة خارجة من تلك العزلة التي جعلتها أشبه شيء بضبيعة من ضياع الخاصة الخديوية ، مع الفارق بين ضبيعة يثار عليها مالکها وضبيعة يبدها من ينك الامر فيها ..

مقالات سلاتوفيتش :

وبين هذا المضطرب عملت في الديوان .. بقلم الذي عملت فيه دوحومة المعركة في ميدانها ، لأنه اقم الذي عمر به مذكرات مجلس الإدارة ومذكرات المجلس الأعلى ، وهذه هي المذكرات التي تعرض فيها مسائل الموظفين وقضايا الصفقات ..

والسنة التي عملت فيها في ديوان في السنة التي انتهت بنحويته من ديوان إلى نظارة ، وصنور الأمر بعرض ميزانيته على مجلس النظارة والجمعية التشريعية ..

واقد كانت فضائح الأوقاف مراً مباحاً لكل من بعد إلى نأذنه .. فليس فيها من باب أولى سر يخفى على موظف في قلم السكرتارية يتحصل كل يوم بموظفي لديوان ممن يشتغلون بمسائل المذكرات التي تعرض على مجلس الإدارة أو المجلس الأعلى ..

وقد هاتني ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وإن كنت لا أجول قبل ذلك أنها شيء يهول .. وكنت أتكلم ولا أتحدث ..

وزيما كتبت إلى الصحف بعض المقترحات لإصلاح الديوان بنذر توقيع ، وربما تحدثت بها في المجالس التي اختلف فيها ، وكلها في بيئات الأدباء لمدرسين بمدارس العباسية الأهلية حيث كنت قديم ..

وكن الأستاذ حسين رويحي الإيراني صاحب إحدى المدارس الكبيرة في العباسية الخيرية ، وكان يعمل في ساعات من اليوم بالترجمة في دار أوكالة البريطانية - فجاءني عصارى ذات يوم يقول معتدلاً :

- أرجو أن تعتقروا غلطة وقعت فيها بغير إيدك ..

قلت : حس .. فقد ظن أننى عرضة مثلك لغلطة تضير ..

قال : إنني سأكون ليوم عن مقترحاتك في الصحف وأنا أترجمها لهدنقت أننى أعرف كتبتك .. فذكرت اسم أننى أراك في كثير من الأيام .. فهل ينضيت به فقلت :

قلت : إنني كحتم كنت مستعداً أن أكتب في الصحف بتوقيعي لو كنت أستطيع ذلك مرتين عن أن يباهروني بالفصل من الوظيفة ، فلا يوم عاب ولا حرج على

قال : ليس هذا ما في المسألة .. فبين السكرتير الشرقي يريد أن يقرأ فيم لديك مانع ؟

قلت : لا مانع لي مما السنع لدى ..

لأولاً : لا يبرر صغير :

بعد يومين تقيت ستر ستر مع الأستاذ حسين رويحي ، فاستهل الحديث بالكلام على الأدب على بونارد شو .. ثم استطرد إلى الكلام على الصحافة وأكثر من كلام على صحيفة «المؤيد» وقرأتها ومحرريها ، ثم مضى مستطرداً إلى الكلام على الأبناف فسداني عن صفقة منوية على أرض يداكهم عين مشهور من أعين القايير ، وعجبت لقلبه بخبرها وهي لا تزال في دور التحصير دون ولد صل مذكورة من مذكراتها إلى قم السكرتارية ..

ثم بددت منه كحة جاقية لا أدرى كيف جرى بها لسانه ، إلا أن كنت قد تعود الجرب بتمسك ولم يتعد من أحد أن ينكر ما عليه ، فقال : ألا ترى أن حرمان الأدباء من رقابة الأجنبية هي علة هذه المقاسد التي شاعت فيها ؟

فصدمتني هذه الكلمات الثانية ، ولم ألبس أن أحتسب بعدها ظاهرة ، فقلت إن المجلس البلدى الإسكندري يجمع برفقة اجنبية من كل جنس وملة ، ولا أنظكم تحسبونه مثلاً من أمشة الترفه والنعم

فتب وسكت ، ثم استأنف الحديث ليخبرني بعمره صالحة الختام ، واستأنف منبهة ثم عاد قائلاً : إن اللورد - يعنى كينستر - كان سره أن مرأى لولا أن يخرج الساعة إلى موعد سريع

فنهضت وودعت ، وصافى اللورد عسى - - الحسد فقوماً بالتحية ومضى فى طريقه ، وجاءنى الأستاذ حسين روى فى حسه ، يقول ويضبط ماذا صنعت يا أخانا .. إن الرجل أجفل من حراكك المسره بكته قال : إن هربت كان شائق حذا ..

.. .

وأرد الأستاذ روى أن يصرف الموضوع ، فلهذا أن مسألة المؤيد ، كنت عنده أهم من مسألة الأوقاف وروح لى سم كـ. يودون لو توثبت تحريره ، وكانوا يظنونك أكبر منا من عشرة العشرين ويكنهم حسبوا على جريرة الشاب وقولوا : إنه لا يزال صغيراً .

وهكذا عدنا إلى حديث الصدقة من طريق ديوان الأوقاف . وهكذا استعود إليه بعد قليل ..

... بين الترتيبات والصدقات ...

معركة الأوقاف

عملت فى ديوان الأوقاف .. وكان عملى فى مكاتب السكرتارية أقرب المكاتب إلى دخائل الديوان ، وكنتى أعترف اليوم بأن ما علمته فى أيام خدمتى بالديوان من حذيا المعركة امر دارت حوله لم يكن غير الفقايع التى تطفو على وجه الماء

كانت معركة حامية نيز وقتها بين القاهرة ولندن والأستانة ، وتشترك فيها حاشية الخديو ودار البركة الشيطانية وحزب الأمير حليم وأعمامه من رجال تركيا الفتة . وناس متفرقين فى القاهرة من طلاب الإصلاح .

وكان الخديو يستقيم فى التثبيت بموارد الديوان ولا يقبل بحال من الأحوال أن تسحب ميراثه من ميزانية الدولة ، ورجته فى ذلك أنه صاحب الولاية على الأوقاف بحكم الشرع ويصوم الواقفين فى كثير من الأحوال ..

وكان المحتلين يماربون السيطرة الخديوية على الأوقاف كما يماربونها فى كل جهة أخرى .. ويريدون فى حربهم لهذه السيطرة فى ديوان الأوقاف - - بصفة خاصة - أن يحرروا بين الخديو وبين استخدام أموال الأوقاف فى حماية سلطانه ونشر دعوته ، سواء كنت مما يخصه ويخصر العرش ، أو كانت مما يعم الحركة الوطنية لمذومة الاحتلال ..

وكان طلاب الإصلاح فى حرج شديد لأنهم يريدون أن يقطعوا دابر انفساد فى الديوان وما يتصل به من اسعاد الدينية ، ولكنهم يكرهون أن يتوسلوا إلى ذلك بمعونة المحتلين .

ثم حدثت فى السنة الأخيرة التى عملت فيها بالديوان حوادث مختلفة بين القاهرة والأستانة غابت وجوه المسألة ، ويسرت ما لم يكن ميسوراً قبل ذلك سنة واحدة

الخديوي بن نارين:

نشأت الجمعية التشريعية بمصر فوجد طلاب الإصلاح مندوبا قوميا ينادون من فوقه بيجوب الإشراف على ميزانية الدولة كلها ، ومنها ميزانية الأوقاف .

وتولى الحكم في الأسبانية أناس يكرهون الخديو لأنهم أمسقاء أسرة حليم العنافة لأسرة إسماعيل ، لأنهم يذكرون للخديو مصادره لمساعدة تركيا الفتاة تمهيدا للمطالبة بحزيرة «طشيزه» التي كانت في حوزة محمد علي الكبير ، ثم استولى عليها السلطان عبد الحميد الثاني مدعيا أنها كانت هبة شخصية لرأس الأسرة ، ولم تكن من أملاكه التي تنتقل بالمراث ..

واستطاع المحتلون في ذلك العهد أن يكسبوا لهم عضدا في بلاد الخلافة ، وأن يحضروا على وعد من أقطاب الحكومة التركية بمساعدتهم على تفجير سيطرة الخديو في الديوان ولو اقتضى الأمر خلع وإسناد الإمارة إلى أمير في حكم

وتم أخيرا تحويل الأوقاف من ديوان إلى وزارة أو وزارة ، وكان اسم وزارات يميند - وهو النظارات - مما يسوغ إدماج الأوقاف في عدادها ، فاستنار الإشراف على الوقف باسم النظارة .

أول وزير:

واختير لنظارة رجل من أنصار الخديو ترضية له وتغصنة لخدائه ، فكان آخرها الأول في عهد هذا الجيد «أحمد حشمت باشا» رحمه الله . وقد كان قبل دخوله الوزارة وكيلا لحزب القصر بين الأحزاب الثلاثة ، وفي حزب الإصلاح عنى المبادئ الدستورية .

وبعد أيام قليلة من قيام الوزير بعمله في الوزارة ، جاءني مدقة صغيرة من طاقم الدعوة إلى مكتبه ، محذرة فيها للمقابلته ساعة قيل انظر من ذلك النهار .

وكنت أحزم بالنباعث إلى دعوتى لمقابلة الوزير ، وأنا موقن في أمر رحلت الوضائف في سلك الخدمة في الديوان

وماذا يكون الباعث إلا أنني من المشهورين بمداورة سيوان ، وأنى من نتجه المظنة إليهم في الكتابة عنه بالصحف ولعمري بأسره من المنكرات وكثرة المذكرات ؟

ليس فيها قولان كما هو ظاهر ..

ولكنه في الواقع كان تخميننا نادرا يدل على وجوب حريص في قبول التخمينات مهما تبلغ من الرجاحة والقوة ، فإن الوزير لم يتعرض لمسلكي في قضية الديوان بغير التلميح من بعيد .. وإنما خدشني في أمر مدقة من مقالتي نشرت في الصحف ونيلتها بتوقيعي الصريح . وهي مدقة كتبها تأنيبا للشيخ على يوسف صاحب المؤيد رحمه الله ، ونشرتها صحيفة «عكده» الأسبوعية التي كنا نخصها برسائلنا النقدية أنا ، والدنيا ، وشكري ، وبعض الزملاء .

ومن أضافك المصادفة أن الوزير كان مسيف شيخ على يوسف ، وكان وكيلا لحزبه وخمسا لكثير من حصومه . وكان من أشياعه القليلين الذين مشوا في جنازته وأشرت إليهم في بعض منكراته في وفاة المستيعين له بدعوى

من أصول الشيطنة:

وكان الشيخ على يوسف قد ترك المؤيد ، وفجر الحياة العامة ، واضطلعت عليه الملل والنكبات .. وقضى تحبه غير منكر من نيب المقربين إليه ، فلم يسر في جنازته منهم غير أحاد معتودين ، بينهم وزير الأوقاف

وقلت في تأنيبه أن الرجل كان «نفاعا ضيرا» ، ولكنه كان ينفذ ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الأعوان في مشكلاته ونضائيه . فمن وصلت إليه يد من أيادي لم يكافئه عليها بالمحبة وخلص خيعة ، ولكي يضمن أنه مدين مضطرب بدين يوفيه في يوم من الأيام .. فلا جرم يشيرونه في محزوين ويمضون في جنازته متحدثين متشاعلين ، لأنهم في حدة نفسية خيبة بحدثة المدين الذي أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه ..

خاطبني الوزير بلهجة هادئة كئيب لهجة : «مستاد» من يلوم نسيبه على فصل من أصول الشيطنة لا يبلغ عنه مبلغ سحط شديد ولا يخلو من بعض

الرضى ، فقد يعد الإشارة إلى مقال التائبين . « كان أحرى بقلبك الخاشع أن يتخذ له في تبين العوتى منهجا لمليب من هذا المنهج .

وكان عليك ألا تتسى : في هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام :

« اذكروا محسن موتاكم .. »

فاجتهدت أن يكون جوابى فى لهجة توائم لهجة الوزير ، وقلت ما معناه « إنتى لو علت للشيخ حسنت غير التى ذكرتها لما فانتى أن أذكركها .. »

فقتضب الحديث ، مصطنعا الجذ ، وقال ،

« على كل حال ، اجعل قللك مستقبلا كمستقبل الشيخ إن استطعت ، واستخدمه فى عملك . يدع عنك فضول الأقاويل والأحاديث .. »

صبح المؤيد :

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

ما هذا المؤيد الذى يلوح لى أننى ألقى شيحا منه أيضا ذهبت هذه الأيام ، حيث أريد وحيث لا أريد .

قبل أسابيع - على ما أذكر - جاعتنى تذكرة مطبوعة كتذاكر الدعوة إلى المنافل والمجتمعات بقول كاتبه « سيد كامل ، إنه يتصدى لتحرير المؤيد ويرد لوىستينين بالأفلام التى لى تجديد حيدة « شيخ الصحافة » .. أو كلام من هذا القبيل ..

فمن يكون « سيد كامل » هذا ؟

إنتى لم أكن أعلم به شيئا ، وأشفقت أن يكون مرشحا لقيام على تحرير المؤيد من قبل الإلتجبر . لأننى تبينت من حينئذى مع مستر « ستورز » أنهم يهتمون بهذه « صحيفة ويولر » لو يبعثونها بإشرافهم وتحت رعايتهم ، وقد لى الأمد فى حسين زوى أنهم كانوا يظنون أننى « أصلح » لهذه المهمة ولكنى خبيت رجاءى

مولاه :

قبل « سيد كامل » هذا من حققوا عنهم هذا الرجاء ، فاختاروه تشحه هذه لصحيفة ، ولز من بعيد ؟

خطر لى هذا خاطر لأول وهلة ، ولم يفارقنى حتى علمت المزيد من تاريخ « الدكتور سيد كامل » فعلمت أنه أفضل وأصدق فى الوطنية وفى الولاء لعولاه من أن يصلح لتلك المهمة من بعيد أو قريب . وقد كان عولاه الذى تورى تعليمه فى فرنسا على حسابه بتوصية من صاحب المؤيد هو الخديو عباس الثانى ، وقد الذى رشحه لقيام على تحرير المؤيد بعد « نزال الشيخ » على يوسف لعل فى الصحافة . عسى أن يحتفظ بمائة أموات المؤكول إليه من وثى تمت ومن أنته امرضى عليه ..

ما هو ذا وزير جديد يفتتح خطابه الأول بحديث عن السيد وصاحبه وحبابه ، فما هو شأن المؤيد معنا أو ما هو شأنه مع السيد ؟ أفى لحظ انجب « يرانا على مقربة من تلك الصحيفة من حيث لا نراه ؟ .. »

بقى لى - لى أردت - أن أصدق هذه الجوانف الغيبية ، فإنها لم تنته به هذه النبوة ، ولم تزل تلاحقنى بخير من هذا وإشاره من هناك حتى عذبت لى إلى العمل الصحفى محررا بالمؤيد .. وكان السبب المباشر لعودتى إليه قصيدة نشرها المؤيد . ونظمها شاعر من شعراء السكرتيرية بظنارة الأوقاف وهو المرحوم عبد الحليم المصرى الذى كان يتطلع إلى مكان « شوفى » فى قصر الضيق ، ويوصل إليه ولكن بعد زوال الخديوية ..

قصيدة الأدب :

نظم عبد الحليم قصيدة من أحسن قصائده عن « الحميد » أبو مصر فى أمه النولة العاسية ، وقال فيها عن شاعر النيل :

وشاعر النيل دون لخلق يشربه ينأشق تصدى من العشايات

وكان يعنى فى حقيقة غير الخديو عباس وشاعره أحمد شوقي . وما كان يشارئ من حجة إلى البراعة لفيد هذه « حوارية المكشوفة » .. فقد فهم كل

قراء المؤيد من الأدباء ، ولم يخف مقصدا على أحد غير محرر المؤيد الأول في تلك الآونة : أحمد حافظ عوض الذي ترك منصبه في قصر عابدين لشرف على تحرير هذه الصحيفة في أرق مرحلة من مراحلها ، وخاتمتها .

أولا : لم تنشر تلك القصبة عن الحب وشاعره إلا في المؤيد دون غيره من الصحف اليومية والأسبوعية .

فضيحة من فضائح الأدب والصحافة لم يتم له حافظ ، ولم يتم لها سوى ، ولم تتم لها نظارة الأوقاف ، وفيهم قاضها في ذلك الحين - محمد محب باشا - وقد كان متبهما في الحاشية الخديوية بحياة الجايز .

وحضر «حافظ عوض» ذات يوم إلى جبان الثورة ، وقوة في مكتب الوزير ولا أدري على التحقيق هل يدعى أحد من المكاتب للقائه ، فذهبت إلى المكتب بغير دعوة من أحد لسبب من أسباب حمل في مذكرات المحبين . مجلس الإدارة ، ولمجلس الأعلى

ونكتي نكتة حافظا ، بدور في سؤال والسؤال يقول لي مارخا : ماذا تصنع ههنا ؟ إن مكتبت مستعدة من أجله ، وإن عسلك الذي حقت له أن تكتب المقالات لا أن تلخص المحرر والمحرر .

ثم قال : إن صفحة الأدب في المؤيد تحتاج إلى أدب يتفرغ لها ، ولا ينظر في عمل من أعمال الصحفية غير كتابته أو الإشراف على ما يكتب فيها .

قال : وإن وقتي كان يتسع لتفرغ هذه الصفحة لما استفتيت هذا «الراء» ودرس علينا تلك القصيدة السويدة التي جعلتنا نخزيه المجالس الأدبية .

ولم أتردد في قبول الدعوة إلى تحرير الصفحة الأدبية في شيع الصحافة العربية ، فبنتي لم أكن أطلع في الرابعة والعشرين إلى عمل أهم من هذا العمل في الصحافة . فبان كانت هي بقية من الرمة في صناعة القلم من طريق الصحف فلا انتظار إذن له هو أولى القبول من هذه الدعوة بعد أن جانتني بغير عتاء ويغير طلب . ولا محل للتردد إلا أن يكون عملي في نظارة الأوقاف أحب إلي وأجدي على من العمل في الصحافة ، ولم يكن معنى لي النظارة مرضيا لي في حياي الأدبية ولا في حيدتي المعيشية ، فعلام التردد ؟ وفيهم البقاء .

تمودة إلى الصحافة :

وامتدأ مكثي «الخالي» بدار المؤيد قبل أن يتخلى الأسبوع . ولم يمض بدم حتى عدوني اطالع القديم : ذلك الطالع الذي تحدثت عنه في مذكره - بقية من هذه المذكرات . لا أدخل عملا إلا وجدت في مرحلة من أدق مراحل ريشه ، منذ عمت في الوظائف الحكومية ، إلى أن عملت في الصحافة ، وإلى أن عملت في ديوان الأوقاف ، إلى أن عاودت العمل في الصحافة ككرة أخرى ! .

ولا أطيل في شرح تلك المرحلة من حياة المؤيد ، فقد يغني القارئ عن شرحها بما وافقت به الأخيرة من تاريخ الخديوية المصرية قبل الحرب العالمية الأولى ، أنني لم ألتحق في المؤيد شهرا أو شهرين حتى ماجت الدار بالحركة التي شغلت رئيس التحرير عن خارجه من صفحاته الأدبية وصفحاتها الأخرى ، وتركنت فيها بين دسائس تحصر دسائس الصحيفة التي لزمها من مخلفاتها التقليدية

كان الحبيب بعد أن لورد كتشتر بصر على طعنه ويرشح لخديوية أميرا من سراء بب حيد . وكان يعلم أن كتشتر لن يغلب بقوة غير قوة الخلافة في وفي طالعها قوة المعارضة من قبل شعلة تتلوه

فأما قوة الخلافة في الأستانة فقد احتاط لها الخديو بسفره في تلك السنة إلى الأستانة . ومن من زيارة المحطات الأوربية كعادته في السنوات الخالية ، يبنى إلى حوار أخيفة متألبا لإحياء المؤامرة عليه .

الخديوي يزور سعد زغلول :

وأما قوة الرأي فقد احتاط لها بروحة شعبية في الوجه البحري تعمت فيها زيارة الأعيان في تمسورهم وزيارة الفلاحين بين أكوأخهم واستقبال الشعب حول سرائقات الاحتفال حينما نزل بقرية من قرأهم ، غير ممنوع منها أحد من كبار أو الصغار ولا من الرجال أو النساء . ولج به الحرص على إبراز صدافته لمعارضين في الجمعية التشريعية ، فجعل أسماءهم في الصف الأول من أسعد الأعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم إلى مصحبته في غير قراهم . ووجه سعد زغلول

ولم يشأ الخديو أن يؤتمن على مراسلة « حؤيد » فخبّر الرحلة أحد أقل من رئيس تحريرها فأخذ حافظ عريض في ركبته ، وجلس حفظ إلى مكتبى قبل سفره بمهده لطلب لذي يريده منى : وهو تنقيح أخبار المراسلين بالصبغة الأدبية وانتظار الرسائل منه لمراجعتها فى إجابات فى الصحيفة بالصبغة الأخيرة ، وهى الصبغة التى ستظهر بها فى الكتب الذهبية ، وكرر كلامه عن الرحلة وعن الصبغة التى ستظهر بها بعد ذلك فى سجل شبيه بالسجلات الروسية ، وانصرف وهو يقول :

— إنه عمل أدبى خالد على أية حال ، وأنه يستحق أن أوجل من أجله صفحة الأدب إلى حين .

الكتب الذهبية :

وابتدأت لرسائل كالمطر الحبيب من اندلس فيز وعين الأفخم وكل من قل له الخيو كلمة أو قال كلمة لخديو ، وضى الوقت عن ملاحظتها باقراءة والترتيب فضلا عن التفتيح والتصحيح ، ثم جرى كتاب قبل أن تنتج صفحة من صفحاته ، ولا يزال منظويا إلى الآن

مستور من مشتركى الموعودين ضل عريفه إلى حجرته بدلا من حجرة المحرر الذى كان موطا تسلم الرسائل وتسليمها إلى بقائمة مكتوبة لإيادها فى ملتها إلى حين الفراغ من تدوينها . فعملت من خلال كلام المشترك الموعود أنه أعطى المحرر المخطوط بتسلم الرسائل عشرة حثيث باسمى ، وأنه حضر فى ذلك اليوم بمعه شىء زهد على سسل النية . ساعة وسلسلة تعسة . ولما بعد ما هدية على « قد انقما » بعد طلب الكتاب

وتريكت « الملقات » فى أماكنها ريشما بعد . رئيس تحرير من الرحلة ، وعاد رئيس التحرير فاستفتيته من العمل فى الكتب وأبلغته ما سمعت ، وقلت له أن محررى « المؤيد » أحرار فيما يأخذونه ويبتونه ، وسكهم لا يسكون أن يرحوا باسمى فى معاملاتهم ومبايعاتهم ، ويحق فى إذا فعلوا ذلك أن أصبح ظنون الناس ، واسترأه له — أى رئيس التحرير — أن يحرر طريقته تصحيح هذه الظنون .

فتجهم رئيس التحرير وتوعد المحرر المسؤول بالويل والثبور ، ووعدنى أن يكتب غدا فى المؤيد كلمة تزيل تلبس وتبعد الشبهة عنى فى أمر الكتاب ورسائله واشتراكاته ، ورجنى أن أعرض النظر عن المسألة ولا أنقطع عن العمل فى الكتاب .

ويعلم أصحاب الأستاذ حافظ رحمه الله أنه كنت له مواطن ضعف فى تحقيقاته ومقابلاته ، ومنه أنه يشبه بالأمير فى مناورات الرضا والغضب والتقريب والإقاص . وأنه يجعل من زمرة عمله بلاطا صغيرا تكثر فيه مناوبات التشجيع والإعراض ولست بالاعتسام والعبوس ، وقد شهدنا فى مساء ذلك اليوم تشيية وجيزة من هذه التمثيلات ، كانت هى فصلها الأخير !

آخر عهدى بالصحافة :

فى مساء ذلك يوم زىر الأستاذ المازنى والأستاذ محمود سعيد الذى أصبح بعد ذلك مستشار فى السناكم الأهلية ، ونزلنا إلى باب الدار ننظر مركبة خالية تمر بنا لتستقها إلى « دوتنا » « وردة » عند دار القضاء « فى الوقت الحاضر » .. ولم نكد ننادى المركبة العابرة حتى مر بنا الأستاذ حافظ يحيننا بيميناه ويضع يراه فى يبط المحرر « المتهم » وهو مقبل عليه بالضحك والحديث ، ثم صر المؤيد فى اليوم التالى وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون ،

وكان هذا آخر عهدى بمؤيد وآخر عهدى بالصحافة قبل الحرب العالمية الأولى ، لأنها نشبت قبل نوبة الصيف !

بجوز ..

أغلب الظن عنى أن قصة خروجى من نظارة الأوقاف ثم من صحيفة المؤيد كانت « قضاء » وقدره كم يتوون فى لغة التحقيقات القانونية .

أما العارفون بتحقيقات حواشى الملكية فقد كان لهم رأى آخر فى « قصة » هذا الأخيرها . وكان من ربه أن خطة وضعت يومئذ فى القصر لتسل كل

موظف بالأوقاف عرلت عنا المعارضة في نظام ديوان ، لا فرق بين أكبر الموظفين وأصغر الموظفين !

وكن أكبر المعارضين من الموظفين لصفقات التسميرة والاستبدال عبد الرحمن فهمي بك ، وكيل النظارة ، قترح محالاً في التعديش .

وكننا أصغر المعارضين من الموظفين ولا حيلة لهم في فصلنا بالإحالة إلى المعاش ، فليكن فصلنا «بصنارة» اصحافة ، ثم بمائة سبب مسطور بعد الوصول إلى البر ، غير الأمن !

وبجيزة هي كل ما أقوله في التعقيب على هذه خكرة اخبرية البعثة ، ولولا أنني سئلت من النظارة ورفضت استند في قبري ، لم رجحت التدبير بفعل ما عمل من الفعالة ، بالقضاء ولقدرة في تعب العاربي ، نحر في الملكية !

... في الشرب الثانية الأولى ...

ساعات بين الكتب :

أقمت في القاهرة بآما بعد ستقاتر من تحرير المؤيد على نية السفر إلى الصعيد الأعلى ، وقد منبت نفسي موبدا كاملا من المراسم الجميلة في مدينة الشتاء ، ورمست برنامجي ذلك الموسم الموعود بين المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعي ، مضمدن الآثار في أسوان ، وهي غنية بالمضامين المطلوبة والمحببة ، من أيام الفراغة إلى أيام المعاليك إلى أيام الدولة الثمانية .

وحددت العدة كتاب الذي نريت تنبغه باسم «ساعات بين الكتب» وجعلت عنوانه دليلا على برصوعة أو موصوخته ، فهو كتاب أسطر فيه خدصة ما قرأت وزيدة التعليقات التي رفعت في خاطري واطنعت عليها أثناء القراءة ، أو هو كتاب عن الكتاب أردت به أن أصر بين عالم الكتب وعالم الحياة وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما نبو إلى من النظر والمراجعة والأحاديث .

وكان الموسم نمجا حقا شعرات تأليف ، لأنني انتهيت من كتاب «ساعات بين الكتب» في شهر خمسمئة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل في أهم مذاهب الفكر الحديث ، وأوليه مذهب داروين ومذهب نيتشه في السوبرمان وهذا الكتاب غير الكتاب الذي ظهر بعد ذلك باسمه وأعيد طبعه مرات ، لأن «ساعات بين الكتب» التي كتبتها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو ستين صفحة .

الإنسان الخامس :

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة ، سميتها «الإنسان الثاني» ولم يبق منه كذلك غير صفحات

وأتممت رسالتى «مجمع الأحياء» تلخيصا للأراء فى فلسفة نشوء ونسبة
لقوة وفلسفة الخطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية . وهى كتاب
الوحيد الذى تم ونشرته تاما بعد تأليفه بفترة وجيزة

ونظمت فى هذا الموسم الأسوانى أكثر من نصف قصائد الجزء الأول من
أخيوان ، ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لأنها تعبر عن دفء من
بغعات الفكر لم يبق لها فى نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول

أما الكتابة الصحفية ، فقد ذهبت إلى أسوان وأد أحسننى من إجازتها
إلى موعد غير مسمى .. وبخيل إلى أنها ستكون أقل الشواغل شعراى حيا فى
الاطلاع عليها والعناية بأخبارها ، فإن عاودنى الحنين إليها فلتع عودنى بها
بقصيدة من الشعر ، أو مائة فى حكم القصيدة الشعرية ، فوحر بها لمدة من
ساعات الخاطر أو عارض من عوارض الشعر ..

وتقدرون فتضحك الأتار ..

ولدت أن الكتابة الصحفية لى تشغلنى قارنا ولا كاتبيا حيا . فقد مر فى
أسوان ، إلا أنها تسلية من قبيل تزجية الفراغ ، فإذا بمقالة واحدة كتبت -
من هذا القبيل - تشغلنى أضفاف شغلى بمذلات الصحف - فى مخرج
أيام القلائل والفضايا والأزمات ، مع أنها قوت مخمومة قبل أن تغدأ مصرية ،
وتم تزد نسخها المتداولة أولا على عدد أصابع البدين

تلك هى مقالة «نادى النجول» . كنت أذهب من جرائنها إلى جريدة مائحة ، أنا
أهوج إلى المقام بأسوان أو فى جو القطر من المشتى إلى المصيف

شهوة وشبهة .

أركنتى الحرب العالمية الأولى وأنا فى أسوان ، وأحمر - من جرعة
الاحكام عرفية فى هذا البلد الثانى على طرف الصعيد الأعلى - أن يحيا
بها فى سائر البلاد المصرية ، لأن أسوان على منتقى الطريق بين مصر
وأسوان وملئى المون بين النيل والبحر الأحمر من جانب أحمر ..
ومرجع الأحكام العرفية إليها إلى رئيس إقليم بعيد من الرقابة معنى التعديل
من . فوحد التى تشغل الحكمة المركزة عن تفصيلات امثلية - دارية من

الأقاليم . وقد كانت شهوة الضبيان والحصر على الحريات قد ملكت نفوس
الحاكمين وأتباعهم من المصلطين على الرقاب تحت حمايتهم ، بعد اشتداد
الحركة الوطنية وتنازع القوانين والأوامر - مقيدة لحرية المحكومين ، فلما
تقررت الأحكام العرفية بكل قسماتها وصورتها بعد شيوخ العمل بالقوانين
المقيدة للحريات ، أوشكت الرغبة فى الاستبداد أن تصبح هوسا فى نفوس
بعض الحكام . ولا سيما اثنين بدا لهم - القصة سائحة لاستغلال هذا
السلطان المطلق طمعا فى الكسب وشرف - تضامن والأموال . وماذا يمنع
الرشوة أن ترفع رأسها وتصبح بين الزوايا بريق النمران إذا كن أداء الرشوة
هو السبل الوحيد من أخفى والاعتقال بغير تحقيق ؟ . وهذا يلج التحقيق إذا
كانت شبهة . الحركة الوطنية كدبة لا تعتبر ، فنهج من ذوى الخطر والسابقة
المحذورة . وكانت هذه الشبهة دافعة بالأكثري من حصريين ؟

نقد بلغ الضبيان بحاكم من احكام فى سوان أنه أراد أن يقضى يوما مع
أسرته فى الجزيرة المغربية فى يقصد بعض الناس للزيارة فى أيام
الإجازات ، فزجل المبادئ الرسمية يطوب أرجاء المدينة ، وينثر من تحته
نفسه بالتزول فى الجزيرة أن يوهن نفسه عن السيف والنار وخراب الدين ..

وشاعت سببات الحرب العالمية على أسوتب فى إقليم أسوان الأمن النوديع ؟
تحديد إحصارى لفرقة المال واعتدل متكرر لشبهة وغير شبهة ، وأتلوات تفرض
نحلة من العلل المخترعة ، ثبرف للصليب الأحمر أو ترفييه عن المرضى
والجرعى أو مساعدة على مشروع كانوا م كان من مختلف المشروعات ،
وأصبح كل طلب إنذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئذان ، أو إنذارا
بالسداد فى غير تردد ولا مساومة .

نادى النجول :

حدث هذا فى بلدى بين أهلى وعشيرتى وأنا أنظر إليه بعينى وأستمع إلى
أخباره - فتنى وأحس كل مظلمة من مضامه - حاس قريبا وإحساس إنسان ..
حدث هذا وأن فى الخامسة والعشرين .

وحدثنا وأنا أقرأ الشعر فلا أزدري أبا نواس لقول من أقوال المعجون كنت أزيه ثقل في الحكمة.

خسر جنس السرام وأضر عنه السلام
مستبداء الصمت خبير لك من داء السكدة

لا يا علي غفر الله حكمتك ومجونك . فإن كان موت يا صاح فما باله يكون به نصت ؟ ولم لا يكون بداء الكلام ؟؟

وتكلمت الحسن . وتكلمت بنظم كتبنا إلى وزير الداخلية وإلى السطان وتكلمت الحسن . وتكلمت بالقلم كاتبنا إلى وزير الداخلية قصيدة منشورة سميت مدى العجول ..

نادى عجول هذا كان مدينا للسادة الحكيم وسراة القوم في المدينة فتحه . يفسر بكل معنى . الفتح .. لأنه كان أشبه شيء بالغيرة في تلك الأساليب من طريق السراوات والألعاب

وكانت .. سمعة سيئة غير سمعة المقاومة . وكان الحضور فيه مدينا على بعض .. في ساعات مديرة كي يخلو الحو ليضع أسس الآخرين في تلك الساعات

وله يتر يسر بطيعة الدال بنادي العجول . ولكني سميت كذلك لأن رؤسائهم من أصحاب أوزن الثقيل ولأنه حظيرة من حظائر الدواب الأدمية لا تخلص من القرون ..

وأضرب الأعضاء نفوذا في ذلك النادي موقر كان يملك الترخيص لي يانسفر عن حسب الحكومة إلى جزيرة مائة . غير مشكور منى و؟ ملوم من أحد على تلك الإحسان بالإكراه ..

ولكنني كتبت المقال . وتسفحه الأدباء . وأرسلته إلى الصحف . وقراه النادي كمي حصة خاصة من جلساته . وتقرر في تلك الجلسة محاسب الفخيم الجسور الذي يمتد على نوات القرون وعلى نوات القناطر المقطرة من الشوم والحو ..

مقامة لكاهية:

وأمره فنقول إن القافية هي التي قضت قضاحا في الموضوع - ولا قضاء لي فيه ولا مشيئة - فخرج الموضوع كما ينبغي أن يخرج مقامة لكاهية أو قصيدة منشورة . يقرؤه . من خلا ذهنه من الموضوع . فلا يشتم منها رائحة الحملة التي يجتري بها القائل على الحكم العرفي المخيف ولا على الحكم القانوني اللطيف .. ويقراها من امتلا ذهنه . بالموضوع . فتغريب بحفظها وترديد . وهو يسأل الله السلامة من تلك العجول .

قال رئيس النادي في مقدمة المقامة : أيها السادة . إن العجول مدني بالأمس . نحن معشر العجول قد ميزنا الله على سائر حشائش الأجسام . وصلابة القرون . وقد غير بهؤلاء الناس زمن كانوا يعرقون فيه بأشد ويتمسكون بآلياتنا . حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الحشا أحد سوانا . فعبدون من قرط الإجلال .. وسبحوا لنا بالخير والأصل . وكانو يحسدونا على قريتنا فدعوا أكبر أبنائهم وأشدهم بأسا ورفعهم نكرا . أعز الإسكندر المقدوني - بنى القرنين وما إسكندرهم هذا وبقرناه . أن أصدر عجل فيت ليهمش رأسه إذا ناطحه . ويجندله إذا وثبه أو صارمه . فلعجب لك أيتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقدم لك الصوامع والمعابد . بدل النوادي والمعاهد ..

وقضى حكم القافية قضاء في قراءة الموضوع . كد قضاء في كتابته . فأنصبت المقامة في مدى يومين كتبها بعض المحفوظات المعروفة التي تؤدي فيها الامتحان بعد يومين آخرين . وراح أولاد الحلال يتسكعون عند عرض لهم من بعض السائل لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد . ومنهم من كان يساجت ويتحافل . يحفظ حصص من الأعضاء . التابعين غير المتحدثين . تعنى بهم زمرة الأعضاء المسوقين المتسخرين . فيقول : أنت مدني بالطبع .. أنت أشجع من الإسكندر . أنت يقاتم لك وزن .. أنت مخبر على الأمين . إلى أشباه هذه . تلكيفات . الترميز التي كانت أصح عند القائل واسماع من النداء الصريح

وكانت المناوشات بيني وبين المدير سجالا قبل شيوخ تلك الكلمة عن نادي العجول .. كنت أشكو وأعز الشكوى بالبيوت ، ثم تستدعيه وزارة الداخلية فنقرأ في الصحف أنه قابل عظمى السلطان ثم يكشف هو بمقامته عن سر هذه المقابلة التي يستدعي لأجل من أسوان فتعلم أنه سمع فيها ما ليس برضا .

الرشوة والآثارات

وكانت هذه المناوشات تحرى سجالا بين مرتجلة أو مديرة حتى شاع في المدينة ، ثم الإقليم ، ذلك القتال المشهور عن نادي العجول ، فإذا بالمناوشات التي كانت قصة معشرة ، وصول سركر رسي إلى سرجه الذي تحكم به القافية مرة أخرى ، فلا مدعى لواحد من اثنين أن يخرج من المدينة : المدير أو كاتب المقال عن نادي العجول ..

يتبين من محرى الحواس أن المدير تضر عليه نبي لأنه نفى قبلي ناظرا لمدسة المراساة وكنت - ناظرها الثاني فأنشفت القوم أن يقال أنهم يضطهدون المدرسة الإسلامية الوحيدة في انه . وكل ما استطاع المدير أن يفهمهم به هو أن يشدد على رقابة وتقييد إقامتي بالمدينة . فلم أكثر لهذه الرقابة ولا لهذا التقييد ، لكنني بطبيعتي كثير العكوف في المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة في الخلاء أو في النير .

وفتقت الحيلة للمدير أن يصدمني بمفتش داخلية الإنجليزي . فدلفي إليه أني أتهمه بالرشوة وأني عنه أنه يقاسم موظفين الآثارات . السلطة على وظائف العمدة والمشايخ وترعاته الأعيان وصفقات التمويل . ولم يكذب المدير فيما ادعاه ، لأنني كنت في الواقع أقبل وأعيد أن المفتش الإنجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على - وسية ..

واستدعاني المفتش إلى سادق المديرية فلما قال في حديث طويل باللغة الإنجليزية : « لا يوجد إنجليزي مرش » Captured في الحرب ولا في السلم . فبدلت مني كلمة لا أرى ماذا كنت أقول - مرأها - أو تحدثت عن روية .. وقلت : إن الإنجليزي جديرون بالتهنئة لأنهم قد تغيروا كثيرا بعد حرب الترنسفال .

والمعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت من فضيحة من أشتت الفسائح من حائل الحرب والسلم أثناء القتال وبعد القتال .. هو أنني تعمدت الرواية - وجدت أمامي مثلا أقرب من ذلك المل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة في الحرب والسلم . ولكنني لو تعمدت الرواية لكانت انسكوت عن تلك الكلمة أولى وأحجى . فإن الرجل بعدها وقف إلى جانب المدير في صب اعتدلي وإقصائي من تعبته . وقال عنى أسى أخطر من ناظر المدرسة متى يفته سلطة نسي إلى حزيمة مألطة . وكنت قد تعمدت أن أشعر مكانه تسب للأمر نفي صر بعد خيوض عليه ، فعملت بعده ناظرا لمدرسة المراساة

وحزى الله منزل «العجول» خيرا في هذه المرة ، فإن قارنا من قرانها من حلفهم أطلق على خبر التقرير السري الذي كتبه المفتش ونقحه بعد مرسة السري . فوجد الرجل إن من المدينة بكل وسيلة مستطاعة . ونقضت القية أن كنت الراس في هذا الفصل من الرواية كاتب المقامة . لا سعادة السري

نكر كيف رحيل من تعبته والرقب ملازم لباب الدار بالليل ونهار

نقد كن الرقب ملازمي إذا خرجت ، ويسلطني في المصعد لحريص الممر ملا يفريق نحاس مكان في الصبح حتى يتسلمه منه الرقب الأول أو رقب حـ

أصحت من أصل الممارات

لست من اخراء المومنين بروايات الهرب والمطاردة ، ولكنني أصبحت حلا من حائلها عن الرغم مني بحكم الضرورة التي لا حيلة فيها .. فوصلت إلى القدية قبل - يعود منها جواب «السلطة» على تقرير المفتش والمدير . وكنتي كتبت بيدي قمر الفصل عقابا لهما واحدا بعد واحد ، وبينهما فترة أسباب

أرسلت ملازمي من المنزل على مقصف عليه معج بطني . وذهب به خدمه إلى بيت في شارع مجاور لنا نفلوا فيه الملايس إلى حقيبة صغيرة ، رسا بها معه - أقارب - بذاكرة من أسوان إلى القاهرة . وتواعدنا أن أتاه بالقطر في محبة ، الخصرة - ويد - هو إلى أسوان على المطبة التي وصلت بها من أسوان إثر خطرة

وأعدنا عن ظاهر البلدة مطيبتين يقوسهما من نشق به من الجيران ، وبقت مهمة الخروج من المنزل في الصباح على الرغم من الحارس الرقيب . وليس أيسر من ذلك إذا تزحزح الحارس من مكانه إلى منعطف الطريق هنيهة قصيرة نخرج فيها وننوارى على الأثر في منعطف الطريق المقابل ، من ناحية الفضاء ، حيث تنتلرتا المطيبتان ..

ولم يعسر علينا أن نزحزح الحارس عن مكانه خلال تلك الهنيهة القصيرة ، لقد كان من ثوبه فتى نستعين بالله من ثمرات غضبه ومن خفته إلى الشجار والفتاق ، فرجواته في ذلك اليوم أن يغضب ، وأر سالغ في الغضب وأن يفارق المنزل بعد الفجر كأنه ذاهب للصلاة ، فيشتبك في خناقة حمية مع أول عابر من طلاب الصلاة معه ، أو من المبكرين إلى الأعدال .

وقام صاحبنا بالواجب على ما يرام ، وعاد الحارس إلى باب البيت ونحن على المضيا متلدعين متكرين لا يعرفنا من يرانا ولو كان من معارفنا .

أكبر مكتب للمدير:

وكنيت بعد ذلك بيوم في ديوان الداخلية أوزر مديقتنا الوزير الأديب جعفر وإلى «باشا» وكيل الوزارة ، ثم تابعت الأيام والتقدير السرية تصل من أسوان بتفصيلات المؤامرات التي أبرها ، والأحداث التي أذيعها والأقوال التي أثير بها الخواطر أستحق من أجلها التعجيل بالاعتقال والنفي من الديار .

أنا في القاهرة بصمضبني وكيل الداحية كل يوم إلى مكتب المستشار ، ويشهده على مقامى بعيدا من أسوان بكثير من ستمائة ميل ، وأنا في الوقت نفسه بأسوان يرش المفتش وأعزير أثير حوصر وأدير المؤامرات والنتيجة معروفة ..

في هذه المرة يخرج المدير من البلدة وشوه المفتش ، ويسمر الأمر بإحالة المدير إلى المعاش قبل موعد الحركة الإدارية ، وعرف اسم المدير الذي خفه فلبادر إلى إبلاغ الخبر لأصقنا في أسون بهذه البرقة .

«شمر خير وخير مقبل»

وكان السير الخلف «معه مقبل باشا» الذي اشتهر بعد ذلك في مناصب الإدارة.

... بين الموت والحياة ...

كنت رقيباً على الصحافة

كان نصيب الرئيس من على في سنوات الحرب العالمية الأولى أكبر من نصيب الصحافة . وكانت ثلاثى بالصحافة قليلة متقطعة ولكنها - على ذلك - كانت متعددة مؤثرة . لأننى اتصلت فيها بالوان من الكتابة الصحفية لم أعرفه قبل ذلك ، وما لم أعرفه من عملا واختيارا فقد عرفته وصفا ونظرا وأطلعت على طرف من أسرارهم وأغماره عن كُتب ، فكنيت إلى المجلات الشهرية والصحف الأسبوعية واشتد بالصحافة اليومية في غير القاهرة ، وقمت على رقابة المصحف أيام معونة . وتحدثت للمرسلات الحربية في صحراء سيناء . وكنت أن أحيط به - به الصحافة من مراكزها إلى زواياها وبواجبها .

وتشاء الحوادث أن أشتم بالرقابة على الصحافة وهي من أبض الأعداء إلى نفسى وإلى فتى ، وتشاء هذه الحوادث أن أهنئ نفسى بالخبرة فيها بعد أيام ، فلم أحمد الله على نجاح كما حدثت على هذه الخبرة الموفقة ..

كانت لي صدقة تلبية استغفرت له جعفر وإلى باشا وكيل وزارة الداخلية في أيام الحرب العسية التي ، وكان من الأدباء «العائدين الإداريين» الذين يجالسون أحيانا «عشان فسي» بك الذي كان مديرا لأسوان فمديرا لنا فمديرا للخاصة الملكية . فخرج من الخدمة الملكية مغضوبا عليه في عهد الملك أحمد فؤاد محال على العيش قبل رآته ، لأنه لم يحسن أن يشترك في إدارة الخاصة على الطريقة التي يرغها صاحب الحلالة !

وكان حديث جعفر وإلى في ذلك لا يكاد أن ينحصر في أمفاضه بين أنى تصد والمتنبي . فإنه كان يفضل أبا تمام ويفرغ لنسخ ديوانه بخطه وبمعد

تت : أنت مصري وطني بطبيعة الحال .

قال : إذ كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

تجيبته كلام فحواه أنني لا أفهم المتصود بالعطف معهم . ولكنني : أيقني في هذا العمل إذا كان يطلب مني شعورا لا أفهمه ، وله أن يتقبل استغاثتي مشكورا عن قبولها ..

وعكذا عزت بحمد الله عن مهمة ارقابية بعد أسبوع واحد ، وكذت عجزت عن بعد بين أو ثلاثة .

انصراسة تعريبية :

في المرة الحربية فقد تدبت لها من طريق الكتابة في مجلة المعتصم عن الثورة بر فلسفة التعريب وفلسفة شو بتيور .

وكانت أسير بالتدريس في مدرسة وادي النيل الثانوية بجوار محطة بـ الخريف عر مدى حضرات من مكتب مقتطف والمعلم ، فزارني الأستاذ نجيب توفيق - مدرسة عيضا من قبل الدكتور يعقوب صروف وقال لي إن الدكتور يعقوب نوى السفر منطرونتي بعد الفراغ من الحصة قبل فمسحة الضرب ، ولم يبرني شيئا عن مشروع الدعوة .

تساقت المكتب وجدت الدكتور وشبابا من أصحابه ومعه الشيخ عنيحي انتدرازي رجلا إنكليزيا لا أعرفه ولم يعرفني به الدكتور ، وكنت قال

- إنك تتدقق للناس في هذه الأيام من جانب الحدود الشرقية ، وكيف تضمن أن أجمعة منها قرية على قناة السويس ثم على جميع الجبل المصرية . وبثت خلت أن يعيد الطمأنينة إلى نفوسهم بعد تراه عيانا وما تطلع عليه من المعدمات المفصلة وهي حاضرة عند المختصين بالمسألة . وأشار إلي - حية الرجل الإسيزي ، وكل ما يطلب ذلك أن تطلع منها في القهقرة على ما يريها . وأن تهين سلك بعدها للرحلة إلى الخطوط الأمامية في صحراء سيناء . ثم تسبقها يسويك الممهود لأن مجرد الوصف الصحفي للواقع لا يكفي ، بل لا بد من تأثير ، ولا ذلك لكان في مخير من مخبرين أو مخبرين الخلف الأخير من معنى هذا الغناء

رأيت الذي لم أعلنه !

وأحب أن أعيد هذا رأي الذي أعلنته في أثناء الحرب العالمية الثانية وأم أستطيع أن أعلنه في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد كان من رأيي في الحربين أن تتولى مصر واجب الدفاع عن حدودها مرفوعة السلاح والاستقلال والأمن - بداهة - في ظل الحماية أو الاحتلال

فقد سمعت قنراج الدكتور صروف قلت له إني لا أكره أن أثبت الطمأنينة في قلب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم عما هو - كما يحدث الآن - من عمل دولة الحماية فليس من المعقول أن أرفض الحماية وأقبل دفاعا .

وكان الدكتور يعلم رأيي هذا في الحماية من حينئذ مع قبل ذلك خلال زيارتي له في صدد مقالاتي الأدبية . فكاد أن يتندر من مواجهتي بالاقتراف لأنه نسي إننا تحدثنا في مسألة الحماية منذ شهر ، وانصرفت وهو يكرر قوله : إنه لو ذكر أن في الاقتراح شيئا لا أسينه لما فاتني به . وجعل يقول مازحا : إنني تعود إلى التعريب وشو بتيور .

ولا شكر أن أحدا من الحاضرين في تلك الحصة قد يكلام بخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتزاني ... فإنه طفق يقول ويعد ما سدي فيها إنه ؟ وماذا في يا سيد عباس ؟ أليس المهم الآن أن تطعن النقيض على الحدود ؟ فلم أجبه ولم يجبه أحد من الحاضرين .

أما والمازني .. بين الصوت والحياة !

وقبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى عنت إلى التحرير في الصحف على غير انتظار . بل على رأس من لعمل في الصحافة والتريس إلى ما بعد الهدنة إذ كان الهدنة موعدا قريب .

فأعمل في التدريس لا أمل فيه ، بعد أن مارست سنتين مع صديقي المازني في مدرسة بعد مدرسة من كبريات مدارس الثانوية ، وجرت العادة في كل مدرسة أن ينتهي عملنا فيها بزمه من أزمات خلاف على تصحيح أوراق الامتحان ، لأننا كنا نصصح أسئلة وأجوبة وكانت خزائن المدارس تنظر إلى أوراق الامتحان كتها أوراق الرصيد اعتنق في حساب المصروفات

فلما وصنا إلى الأول المنير لازمة السنوية خرجنا من المدرسة متفقين على سكني الإمام الشافعي حيث تقيم أسرة الأستاذ المازني من زمن بعيد ، وقد رنا أن الخزانة القذات المعيتية بالسكني بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنينا عن التعجل في سب العمل بضعة أشهر ، ونخرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شئنا .

وقلب للمرتي . ابحث يا صاح عن عمل في صنعك ولا ترتبط بي في بحثك ، ودعني أنتظر العمل في صناعتي حيثما اتفق . فلا حيلة لنا في استعجاله ولا في البحث عنه ، لأنه معق ياتب الحرب العالمية فيما قدرناه .

وروجد صديقنا المرتي عنه ناظرا للمدرسة النصرورية الثانوية ، وليث أنا بالقاهرة أقرب أوائل اشاء لأعمل فيما يتهدد من عمل أرتخيه أو أزمع الرحلة إلى أسوان

وكننت أحسن مرقب على غير جدوى لأن ركوك السياسة الوطنية في أمان الحرب قد تعب بالصحة الجيبة التي كانت تنطق - بسنة الهيئات السياسية ثم هبطت أزمة عرق بالحيفتس لباقيتين - ٨٨ - المقطم والأهرام - إلى ورقة واحدة من صفحتين لا متب بها لغير البرقيات وأنباء الدولوين وما هو من قبيل «المحذية» التقليدية في عقدع المصرية ، فكننت كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين

وكننا نعد على المدينة من حي الإمام الشافعي مرة كل أسبوع ، وكان يوم انسبت على لأغلب هو موعد هذه الزيارة الأسبوعية ، لأنه يوم متوسط بين بطولة الجمعة وبطولة الأحد ، له أكد أقبل على المكتبة التي كنت أتردد عليها في هذه الزمان حتى تقضى صاحبها قاتلا بل ، صحا . أين أنت يا أستاذ ؟ إن الأستاذ عبد القادر حمزة قد حفيت قدماء وهو يائي إلى المكتبة ويعود لمساأل عنك ، قد يش من نقاش فأوصي الأستاذ عبد المؤمن كامل الحكيم « بالبحث عن مكتب والاتصال به في شأن هام كد قال ، وقد كان الأستاذ عبد المؤمن في الساعة ، وتقر عوانه لاديا وكنبت له عوانك كما أعرفه بالإمام ، ولا أدري في أي مكان هو بلده الإمام .

وعلمت بعد ذلك الأستاذ عبد المؤمن أنني «محبو التحرير في صحيفة الأهمالي» بـ «إسكندرية» وأنتى ستطيع أن أعد نشر لسفر خلال أسبوعين أو

ثلاثة ، وعنده تغويض بتسليمي مرتب شهر وما أطلبه من تكاليف السفر . وعنده كذلك تغويض بمراجعة الصحيفة في تقدير المرتب ، إن كنت لا أرضاه .

قلدته لا حاجة إلى المراجعة الآن ولعلها في الإسكندرية أجدر ويسر وانتيت يومئذ إلى الإمام لإعداد حقبة السفر واختيار ما أحمله معي من الكتب إلى الإسكندرية ، والاستغناء عما هو معد للبيع في يومين أو ثلاثة . ولم يكن طلابه بالقليلين في تلك الأونة ، لانقطاع البريد الأوربي في الفستات بعد اختراع على غير انتظام

كانت في الشغل الإسكندري ثلاث صحف يومية هي البصير ، وواي الخيل والأدي

وكننت البصير «صحافة الأمن والتجارة» لا تعرض للبيع في حارة الإسكندرية ولا تعرض لتسبع في الإسكندرية نفسه إلا على مخربة من بيرة ومحدث الميناء . وكانت الصحيفة تعوز بـ «شراك» جدر واستدرة ويسم الإعلانات القضائية من المحكم المختطة ، ولا تذكر في شؤون سياسة امصرية إلا كما تذكر صحيفة «خارجية» .

وكننت «وادي النيل» صحيفة المجلس البلدي أو صحيفة «مدرسة» والمنارعات بين أعضائه وأحزابه ، ولها - من ثم - غاية بمسائل «مدرسة» والدكتكين والشوارع المرصوفة وغير المرصوفة ، وما إليها . فكان لها نصيب وافر من الرواج في الإسكندرية ، ونصيب «لا بأس به» من الرواج خارج الإسكندرية ، بعد انقطاع «الشعب» خليفة اللواء ، وانقطاع «مؤيد» الجريدة

أما «الأهمالي» فقد كانت في نشاطها صحيفة «شبيهة بالرسمية» ينشر فيها منات من المظلمين والعبد والأعنان لأنها نسن حال رئيس الوزارة محمد سعيد باشا . وكان «محمد سعيد باشا» أحد الساسة القلائل الذين نهجوا في ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأي العام ووجوب الاعتماد على الصحافة في مناقشة الصحافة التي تعارض الوزارة ، فقلوع من إلى طائفة من «صحف» الإسكندريين بإشاء شركة «الطبع والنشر الأهلية» واستهلال عملها «صحف» برصد «صحيفة يومية تافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف معارضة

عليها ، فاختاروا اسم «الأهالي» لصحيفته عمدا ، لأنه اسم قيم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل أباطا باشا رحمه له ، ولأن اسم «الأهالي» يقابل اسم «الشعب» واسم «الأمة» مصبوغا بالصيغة التي تدل على معنى «الزعمة» ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة

ولم تزل «الأهالي» صحيفة الحكومة «الشبيهة بالرسمية» إلى أن سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعصا وزارة حسين رشدي باشا التي أعلنت الحماية على مصر في عهدها ، فليست «الأهالي» بعد ذلك لناس المعارضة في حدود الظروف التي تسمح بين الحرب والرقاب . وكانت هذه المعارضة تقوم على أساسين : أحدهما الخصومة الثورية بين سعيد ورشدي ، والآخر إيمان سعيد بقيادة السيادة العثمانية في استنفاض الحجة «القانونية» أو الحجة الدولية على الاحتلال والحماية . فقد كان سعيد «متمسكا» في تفكيره ومفعوره إلى اللحظة الأخيرة ، وكان هو صاحب الرأي القائل بأنه ينبغي بين البحث في مسألة الحماية والنشر في معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتصرة في الحرب العالمية

ووثقت «الأهالي» أن تحث بعد اعتراف الوزارة السعيدية وقبام لوزارة الرشيدية ، لأن مشتركتها من الضعفين والعمد قمعوا اشتراكها . ثم جاء كسده الصحافة بعد فرض الرقابة عليها بسبب لحرب اعلمية فطواها فيد من الصحف المهمة أو الممثلة ، ولكن ظروف الحرب أنقذتها بعض الإنقاذ من حيث لا تحتسب . لأنها حشرت الإعلانات في أيدي شركاء تذكر الإعلانات القضائية من المحاكم الوطنية وتتعهد لزعانف بنشر إعلاناتهم في صحيفة إفرنجية وأخرى مصرية . فكانت «الأهالي» هي الصحيفة التي تتسع لنشر تلك الإعلانات في ملحقاتها . وعندها بقية من اميرق المحزون غير ثوري الذي تعبده الشوكة ، ولولا ذلك لما استطاعت أن تعيش سنة بعد ذهاب «وزارة السعيدية» وانقطاع الاشتراكات عنها في تلك المعترك المصيري .

(١) وقد استند العقاد - في لمبته السابقة - حتى ١٩١٩ حين قامت الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول ، وقد نشره بقمه في هذه الثورة منبدا للمبادئ الوطنية والسياسية التي كان يؤمن بها ، حتى اعتراف السيادة في عام ١٩٢٥ حين أسندتها الحرية ، واعتبره السبب في ذلك الحين على المبادئ العنصرية . كما قدربنا إلى تلك في تقديم هذا الكتاب ، يتوز على المؤلف ، وكذا لفصول العلمية والأدبية في المجلدات الكبرى ، ولهدت هذه الذكريات وما يب من الفصول التي لم تنشر من قبل في كتاب من كتب

ويقيم في تحرير «الأهالي» إلى نهاية الحرب وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصري بقيادة سعد زغلول ، واقتربت الخطه الساسة بين المصريين ، والوفد تركتها وعملت في الصحيفة التي كانت تجرى يومئذ على تلك الخطه ، وكانت فاتحة عصر جديد في حياة مصر وحياة الصحافة وحياتي الصنعية ، ويقترب بتاريخ النهضة الحديثة فيما سمعت من ظواهرها وخوافها .

... ذكريات زنتيات ...

صديقى المازنى

صديقى المازنى أحوج الأدباء إلى التعريف بحفنة فضلى ما رأيت أحدا من المعجبين به إلا وهو يجهل بعض من ياء .. وسى ذكرى خسرل فى الذكر . لقد بلغ - رحمه الله - من الشهرة فيه - يبلغه الجب فى بلاد العربية

وليس ذلك لغموض فى النفس يباعه من هو يعرفه عنها ، لما عرفه احد من طول المعاشرة إلا عرف أنه معنى الذى سبى وأشبههم قدروا بياض . وحسروا بخفاء

ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله - أو بذكر حقيقة نفسه - سب غير الخيول وغير العرصات ، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء بأبسط من يدر بعضهم يسميها « ملكية السحرية » ويخيل إليه أنها على مثل السحرية التى شتهر بها بعض المفكرين الساخرين .. ولكنها فيما اعتقد تشبه السحرية ونبت هى بها . لأنها تظلم فى جوهرها من نكية السحرية فى تلازم - فلا تنوى على النكابة بأحد . ولا تدل على حب للنكابة .

ولقد هى على ما مرلتها واختبرتها شىء غير سحرية وإن كنت شبيهة بها

فى حب « المعاكسة العرية » أو هى السحابة لا سب قيب شىء أحد . ولا فرق بين السحابة على النفس والنعابة على الآخرين

لم يكن يبالى أن يبرز خبر ما عنده ولم يكن يترى أن يخرج فى أدبه وفه بقلبه ونسانه . فليسبق الفكر واحد إلى طرح وسنن . ولم الحيد والنداء

لقد كان يرى أن حقائق الدنيا كلفيال ، لأن غايتهما إلى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال . فليكن مقامها ونصيبه منها خيالا بغير هناء .. !

وكان يرى أن الناس يضربون بشدهم كأنه شىء لا غنى عنه ، فكان يريهم أنه فى غنى عنه فعلا ، وكأنه خيل لهم . إن استطعتم فقولوا فى أدنى وفنى . وفى شخصى وسيرتى . أكثر من أقول .

وليس فى فلسفة وليس فى سطر . هى طبيعة فيه عهدتها منه فى غير عام الكتابة . وقد تفرقه من صباه . كاتبا أو غير كاتب . وغاية ما هنالك إنه كان يطاوعه حبنا فيستل بها . وإنه كان يكفها حبنا فلا تظهر كل الظهور .. كان وما « بالمعكسة العرية » تسليت الكبرى

ولست أحصر ضروب هذه المعكسات التى كان يرتحلها ارتجالا فى أكثر الحالات . ولكنى أنكر حدث منها اتصال بحانب نفسه فى تاريخ حياته . وهو من قبيل الوقائع التى تفسر الاتيال ، أو تفسر مذاهب الكتابة التى يسميها بعضهم فلسفة حياة

قل من يذكر المازنى شغل - موسيقى فى عنقوان شبابه . وأنه تعلم العزف على « الكمان » وتلقى دروس كثيرة فيه . واستطاع أن يوقع بعض البشارف وأوشد أن يحسد فيه من مهرة العازفين .

وكنا نقضى السهرة ذات بنة فى ناد كبير من أندية الموسيقى والغناء وطابت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل . وكان يبيت يومئذ بمنزله على مقربة من الإمام . ولم يكن خط الترحى قد وصل بعد إلى الإمام . وقد كان احترام الذى يذهب إلى تلك جبة ينقض قبل ذلك الموعد على كل حال .

ورودته وهو يتفق مع حيدى ليوميه فى مركبته . مركبة خيل . لأن السيارة لم تكن شائعة فى تلك الأيام

وكان الحواشيها رائحة عجماء فى أوانها . وسكون الهزيع الثانى من الليل يعزى بالغناء .

ويظهر أن الحادى - حين رأنا يخرج من القادى الغنائى - قد بدا له أننا من هواة السمع فلا خرج عليه . طرب . وطرب . وراح يتغنى بما شاء من « الحناطير » التى يهواه . ولم يكن أن يعثر إلى ليلته بعد أن رفع عظيمته بالغناء

- مؤاخذه يا سبيننا اليب ، إن محسوسك من هواء السمع ، وانى .. وقدر
إن يعنى فى الاعتذار ، بادره «الزبون» قائلا :
- حذرا حذرا .. «أنا والله أحب أسايرك»

قله يلك الحوذى نفسه من الطرب والارتياح ، لأن الجيوب الذى سمعه جزء
من «الخطوقة» التى كن يغنيها . وراح يغنى تارة ويردد قصته التى بدأ فب
ترة أخرى وخلاصتها أنه كان - لهوايته السماع - يختار موقفه فى جيب
تحت الألاتية . ويسترق السمع من لحظة وأخرى كلما استطاع الامتلاء من
رقعة نبوليس

وخشى الحوذى ، وخلا له الجوبعد باب السببة عائشة ، ونسى النبوليس
و «زبون» ومضى كأنه فى ليلته يردد «لا ينقضى به الطريق»
وربما «خاند» المازنى ، تلك السببة التى لا تفارقه . ويوحى إبه الموند
ب«خسة الصداقة لهذا «الفصل الفنان» الذى أحبه حوذى عبه فائس
نيس من آخر سب ما سمعه فى أوله : إن الخطوب انمضت قضى - عة ومن
ب«د» فى الطنقية التى يفتيا «لما أشوف آخرتها معاك

نفس» لو كلفت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون -
خطر الخاطر فالحق به التقيد ، وخذت المركبة والمطرب «مشغول بفتاته ؟
بخرى من خلل المركبة وإخلاعا بذلك الحمل الذى كان فيه يستويان
وانت الحوذى بعد أن طالت الرحلة ولم يسمع من الزبون صوت ولا أمر
يتوهم .. فطرح ما فى ممانه من الغناء . وامتلا بكل ما وعاه فى حياته من
الحنان

ولا حاجة بالتخارى إلى ترويض ما ألفاه من لمانه فى ذلك الخلاء . ونيس من
حيه عد يجيبه إذا استل به وغريمه الباحث عنه هو دليله «حيد
وتدنى الحسيق فى اليوم التالى فيسألى : «أتذكر شكل الحوذى الذى
ركبت معه بالأمس ؟»

قلت : «لا أضرب أننى أحقق شبهه فاماذا تسأل عنه ؟ هل فقت شيئا عنه ؟
قد سمعنا .. كلا والله الذى فقد ! ..»

نلم أفهم ما يقوله وسألكه . «وماذا فقد ؟ ..»
قال : «فقدتى أنا» .. وقص على تفصيل تلك القصة التى أجملتها هنا بعض
الإجمال !

انقضى أربه من المعاكسة ، وجاء دور «وحدة بنك المسكين» فإذا هو
مهموم ما يبحث عن إعطائه أحده الذى خيل إليه أنه قد صاع بعبر أمل ، فقلت
له أن حوذيا بهذه الصفة لابد أن يكن ممرقا بين زملائه فى موقفه وغير
موقفه ، فسلم إلى الموقف نبحث عنه هناك !

ولم يخطئ ظننا فى حذوى البحث هناك ، لأن القصة كانت حديث زملائه
جميعا . وإن لم يكن هو فى الموقف تلك التحنة ، فحبرناهم أين يجدها إذا
عان ، ولم نلبث طويلا حتى أمبل «رجل يهرول وهو يصدق أن زملاءه قد
سندوه الخير» فلما رأى صاحبه - لأمس أقل عليه متبالا وتناول منه ضعف
أجره الذى كن يطبع فيه .. !

وانصرف وهو يدعو له ويقسم نادى : «لاعت إنى اعد أبدا وأنه مركب» ..
والا «فعلى روحى أنا الجانى» !

قال الصديق العزيز : «بل تغنى ما شئت ، ولكن تعنى وجهك لتسمع» ..
هذه هى «المعاكسة البريئة» التى لومت صديقتا على صير شتى من صباه إلى
أخريات أيامه ، وتزداد بها الفجبة أن تشكرها فتشكر أى نفس طفلة - أى
طفولة من طفولة البقرية الخالدة - قد عاجلب الحمام

بهذه الدعاية البريئة - التى لا خير فيها على أحد - كان المازنى يستقبل
الدنيا ، ويحتمل نقائصها ومفارقاته ويعفر نفسه من الجهد الذى يبرز للدنيا
خير ملكته ، بل يحاول أن يستر هذه الملكات بيجيه غير تسف على شيء !

قداد على نفسه ..

على أن المازنى يصحح فى هذا الباب خطأ يقع فيه أولئك الذين يحكمون
على الأطوار لنفسه نظواها وعدونها ، فيحسبون أن طبيعة الاستخفاف
تقترب دائما بالعجز عن الجد وصيرمة لأخلاق ..

والواقع إن الذين عاشروا المازنى وخبروه يعلمون أنه من أقدر الناس على نفسه وأصبرهم على رياضة طبعه ، وأشدهم جلدا على مواقف الشدة والصرامة ، وقد عانى من شدائد الأيام ما يقصم الظهر ويغشى آفاق الحياة بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن يلجأهم ويلقونه فى هذه الأحوال إلا بالإكثار من المرح والتسيب .. فلا يعرف جليسه أنه فى شدة إلا إذا تحول ، مزاجه إلى التكلف المحسوس .

وأنا أعلم من عاداته أنه كان مفطر الحس بانتم فى مطلع شبابه على الخصوص . وكنا نمشى مسافات طويلة لتجذب المرور ببعض الأماكن التى تتبع منها روائح الحانات والتغابات ، ولكنه راض نفسه نحو ساعة على احتمال رائحة من يغض الروائح إلى الأثر لأنه أراد أن يلقى درسا حاداً على محبى السبطة ، من التلاميذ .

وكان أول تلاميذ يجهلونه ويحبسون أنهم يحاربونه فى ميدانه حين يعمدون إلى ضروب لعب كسان المدرسية التى يخطون بها ضائقة من المسلمين ، فانتظروا حصته ووضعوا فى الفخاير حمضا كرية الرائحة لا يطاق فى مكان محصور ، وسبق إلى وهبهم أن الحصاة تضيق فى السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن مصورها وعن واضعها وعن المكان الذى جاء به منها - وهو بطسعة الحال معلم الكنباء فى المدرسة .. ولكنهم لم يلبثوا هنيئة بعد دخول إلى الفصل حتى أمروا أنهم فى وهم بعيد ، لأنه لم يسأل ولم يغضب ولم يبد عليه أنه فطر شيء غريب ، ولم يزد على أنه مضى بنفسه إلى التواضع فأتبعه إلى الباب فأنطلق ، وأخذ فى الدرس وهو على أتم راحة ونشاط ، وكلما اشت الضيق بالشيطان الذين انقبت عليهم فاعتهم تصايحوا يسألونه فتح انواع والأجواب ، وهو يزعم لهم ، فى جند وسكون ، أن الحجرة المعلقة أصبح من تيار لبواء وكان ذلك هو الامتحان الأول والآخر !

ملكة نادرة ..

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التى يعانيتها الكتب إذا حاول أن يعيد الكتابة فى موضوع من جديد ، فإنها مشقة جهد ومشقة ملل فى وقت واحد ، ولكننى رأيت المازنى يعيد كتابة المقرر فى التاريخ لبعض الفرق الشابة ..

رجل من الناشرين خدعه فى طبع الكتاب لمقر لتلك الفرق ، فاعت أنه غير راض عن النسخة المطبوعة وأنه سيطبع المذكرات على أنوالى بعد إعادة تحريرها ، وصبر على هذا الجهد الممل ليملى على إخوان الأمانة درسا فى عفة الخيانة واخضاع .

لا أنتى أظلم ملكات المازنى كلها إذا رجعت بحتماله لهذه المشقة المملة فى الإرادة دون غيرها .

فإن الذكاء المفرط فى الحقيقة هو صاحب الفضل الأول فى صبره على جهد إعادة وملها ، لأنه كان يستطيع أن يفتح المرجع التاريخى الضخم فى اللغة التحليلية وأن يلخصه وهو يقرأه ، وأن يترجمه وهو يلخصه . وأن يكتبه على ورق الآلة النسخة فى وقت واحد وفى أربعة جهده يجمعه بكاء السلم المادية فى لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص وجهد الترجمة وجهد التحضير . : أن السرعة فى الفهم والترجمة الصحيحة أهون ما فى هذه المشقة نادرة وأقول النادرة ويتبنى أن أقول الوحيدة فى تاريخ الآداب الحديثة إننى لا عرف فى آداب المشرق أو المغرب نظيرا للمازنى فى هذه مشقة فى أسميه بحرية الترجمة .

إنه يترجم النثر فى أسلوب كاستلوب احافظ وخالد بن صفوان . ويترجم الشعر فى أسلوب كاستلوب البمترى والشريف . ثم لا يخرج فى ترجمته حرفا من اللفظ ولا محبة من المعنى .. بل يأتى بالمقالة المترجمة أو القصيدة مترجمة فى طبقة التأليف أو أعلى وأبلغ ، ويعرض لك قصبة الشعر الأوروبى - المسمى - بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا ، أنه نفسها فى لغة ضاح .

ولا يقل شعره المترجم فى مزايا البلاغة والفصل والسلاسة ومن نوعى لأسف الشديد أنه هجر الشعر وأنكر على نفسه الشعرية . ومن نوعى لأسف ، الشديد أن بحرية الترجمة التى انفرد بها لم تح من ينفخ بها للمال العربى ويتبنى تنقيح يعمل من أعمالها الخالدة عن كتاب الضريبة أو كتاب ظرووف

ولا تقل عن ملكة الخوخمة فبى ملكة أخرى من أنفس الملكات التى يرزقها
الأيوب والفنان، وهى ملكة الملاحظة النفيقة والتعبير السهل القريب عما
يلاحظه من المشاهدات والمناظر عن عرمى أو ودية

كنز زاحس ..

ونعمود فتقول أننا نأسف أشد نأسف لأن الفرس لم نهيم له أسباب النفع
بهذه الملكة فى غير الأعمال الصحفية عاجلة ، ولو تيسرت له موارد العيش
واستطاع أن يتفرغ لتأليف كتاب - - - - - بل تعجب الحجاب فى هذا
الباب ، ولظفر العالم العربى بشرة العربى كلب ، وما أنفسه وما أجلاها إذا
كان هذا الذى أنسى له وقته ونهيت له أسبه جد نفس حليل .

كنز زاحر ضيفت منه ما ضيف وقد سما به . فإن تعلمنا شيئا من العبر
فلنتعلم كيف نصون ما أبقاء لنا ، خليق - يبقى لقاء العربية فى حوز أمين
وحسن العربية من فضله على سبب أنه ثبت به القدرة على سخارة أحدث
الاداب بتأليفها الصحيح السلب

...

ذكريات مع الذكريات

وأى ذكريات ؟ وكى من ذكريات ؟ وما أكرمها ذكريات ..

إنها ذكريات الصبا فى بواكيره ..

إنها ذكريات الأخوة فى حماسة الدعوة الأولى إلى رأى ولما ذهب .

إنها ذكريات المشاركة فى الجهاد الوطنى على خلاف أو على لقاء

إنها ذكريات العطف المتبادل والفكرة المتجاوبة فى جميع تلك الحالات (١) .

ومهما يكن من معرفة عامة يعرفها لقراء عن أديبهم المازنى ، ففى محال تلك
الذكريات أحداث لا تمضى ..

نكن هذه « الشخصية » السبوية : شخصية إبراهيم الكاتب وشخصية أمير
خليل الصبوح - تعفى من كل حيرة فى موقف الاختيار بين تلك الذكريات ، ولا
فرق فيها بين ما يقل أنه شخصى خاص وبين ما يقال أنه ترحمة من حق
النقد وحق التاريخ . وهكذا تكون « الشخصيات » التى يقول الناقد أنها « مطبوعة
فى الصميم » كى ما نعمله أو نقوله خاصة يعين الناقد والقارئ على فهمها
وتفسيرها فى مجاها الفسيع الذى تتصل فيه بفالم القلم ، وعالم التاريخ .

لقد كثر المازنى الذى يسخر من كل شيء ، ويخرج لسانه لعابى الطريق
هو المازنى الذى يسمى كته فى أخريات حياته بـ « قبض الريح » و « صندوق
الدنيا » و « عاتشى » و « حصاد الهشيم » ، وهو المازنى الذى أعجبه ذلك
الشاعر ندى بوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان :

أيها الزائر الجبرى أتى مباحطة أمساك
هذه أساعلم عظامى لينها كانت عظامك

(١) هذا الحصل كتب المقام بمناسبة ذكرى المازنى بعد سنوات من وفاته . أما الغرض الأول فقد كنت
حين وفاته

كانه يخرج لسانه من تحت التراب لرائد القبر الذي يقرأ ، وهو غافل ، ما يحدث به الغيب المزور .

في كل ذكرى من تلك الذكريات الشخصية صورة من صور الدعاية التي لا يفوتها الاحترام ، والاستغفاف الذي يمن مواطن الإعجاب والتقدير .

وكن صديقنا المرحوم عبد الرحمن شكرى يقول له فيما بيننا بالإنجليزية .. حين تسمع تعليقاته على ما قرأ شعرا ونثرا : إن فيك يا أبا خليل لشيئا ملكا عفرنيا بلا افتراق Angelic Impish وكان هو - طيب الله ثراه - لا يرفض هذا وصف ، ولكنه يجيب عليه تارة إجابة الملائكة ، وتارة إجابة العفاريت ! ..

وكن موضع العجب من أمر صديقنا المحبوب مهيب أله - على دعائه - لم يكن يفقد احترام عارفه على أوفاه ، وأنه مع ستخفه لم يكره يستخف بموضع التقديس والإعجاب

كان رحمه الله قصير القامة يطلع في مشيته بكن يدرس التريح والترجمة في ممره ثانوية اشتهرت بتلاميذها المتميزين . لأتبه كانت مدرسة أهلية تجمع ذين نجاروا السن في المدارس الأميرية في طربوا منها سوء السلوك ، ولم يكن أيسر من اجتراء هؤلاء على مدرس شاب تصور القامة يطلع في مشيته ولا يثنى كثيرا بزوه ، ولكنه كان على تقيض ذلك مهيبا عنهم إلى حد انخافه . وكان تحب «تيمورلنك» هو اللقب الذي اخبروه له من دروسه في التاريخ !

ولعه كسب منهم هذا القبر بعد امتحان أو امتحانين ففهموا بعد الامتحان أي رجل هذا الهزيل الضئيل الذي حاولوا - على غير معرفة به - أن يجترئوا عليه ، لأنهم فهموا أنه رجل يملك تمام نفسه فلا يستحصى عليه أن يملك زمام الآخرين ، وأنه رجل كفه لعمه على مثال لم يعهده بين عشرات المدرسين .

وبهذه الكفاءة ، وتلك الإرادة ، أصبح مدرسه الهزير «تيمورلنك» زمامه المخيف ، والمحجوب .

وله كن مدرسة هي الساحة الوحيدة المخترة لهذه الدعيت ، بل كانت كل مدقة يلقاها على ثقة بالجواب السريع بفصل من هذه الفصول .

دخل إلى صيدلية يشتري حامضه من الحوامض السامة التي تستخدم في المنازل للتطهير ، وتقضي التعليمات على الصيادلة أن يسألوا من يشتري المادة السامة عما يستعملها فيه ، فسأله الصيدلي حسب التعليمات :

- لماذا تريد يا أستاذ ؟

فلم يجب الأستاذ ، بل غر إلى الصيدلي ورفع إبهامه إلى فمه متعلما كأنه يقول : أشربها .

وكان الصيدلي الظريف كحوا لزبه الساخر ، فتأوله القارورة وهو يقول

- قدحان مرة واحدة كدية يا أستاذ !

وقد كانت دعبة صديقنا الديو سلاح مضيا يقع به الأذى . كم كانت سلاحا حاضرا يطرف به الأصفاء ، وكنت جميعا «المازني وشكري وأنا ، عرضه للإسكات السخنة سلفا من هب وبب من تصار القديم ، ومنهم من كان يتميز غيظا من دعيت . ويشرح شوقا إلى الفرص التي تهيئ له سببا من الأسباب للنقض من هؤلاء «الطائفين فيها» .. كما كانوا يصنفونا في لغو الحديث .

ولقد ثقلت هذه الأساطير على مزاج أحدا - شكرى - فحسب لقاء الناس ونطوى على غشه بعيد عن المصنع والمجدس ، إلا من تدعوه ضرورة العمل إلى لقائه ..

أما «أبو خليل» فقد كن يدعات الحاضرة أمضى سلافا من أن يتراجع أمام المسير أو أمام التسلعات . ولم يكن أخبر منه بتسايب الانتقام العاجل ممن ينيل إليه أنه سيفقه بالفصل الباردة : القصول التي تخرج المقصود بها ، لأنه لا يرى كيف يصح عليه ولا كيف يسكت عنها .

خرجنا ذات مرة إلى ضاحية نعيم هواء الربيع ، وكان لنا صديق يسكن في تلك الضاحية . قلنا له به وحدنا بين فئة من صحبه ومبيرات

على باب داره ، قلبيا دعوته ، ولما يكذ يستقر بنا الجلوس .. وإذا برأى من الحاضرين يتصدى لتوزيع السجائر ويتخطى المازني عما ليسه ، إينا بهذا الإهمال ، وقبل أن أفرغ من سؤال نفسي : ماذا عسى أن يصنع أبو خليل مع هذا الذي خيل إليه أنه يفهمنا بإساعته ، وأنه حر في إحدنا بها لأنه حر في سجنائه يحيى بها من يشاء ويهمل من يشاء ؟ - إن بدعية الحاضرة - تحت الطلب - نسمع أبا خليل ، فيمد يده إلى عليه سجائر ، ويهمل صاحبها فيسلمها إليه ، ويأخذها أبو خليل فيناولني سيجرة ويتوز أخرى ، ويضع اثنين على المنصدة ، ويقول لذلك المخلوق المدهول - هاتان السيجارتان للدورة الآتية .. لأننا لا نريد أن نرانا مرة أخرى . ثم يرفع رأسه كأنه تنبه من سهوة عارضة ، ورة ول في غير اكتراث - لا ، واخذة ! حسبك خادم الدار ، ولولا ذلك لطردك صديقنا الكريم

ولقد شبه هذه الفصول المزنية كثيرون من صحبه الأقرين وممن لا يعرفه بغير تحية المزاملة في العمل أو تحية الطريق ، فلم يعرضه فحس من هذه الفصول قط لفقدان الاحترام ، ولم يعرضه هو - بينه وبين نفسه - لفقدان الشعور بالاحترام ، وكان له ذرة المرمي في كل بؤنة نزل فيها ولو نزول الطارئ الراحل ، وقد كانت لهذا المستخف الساخر غضبته التي لا يغضبها الكثيرون من الجاهل الذين لا يعرفون السخرية والاستخفاف ، لهذا مست كرامته فلا مزاح ولا هراة ، وقد استقال من وظيفته الحكومية يوم كانت الاستقالة من خدمة الميري ، شبيهة بالانتحار ، لأنه لم يعط حقه من التقدير بين قرائنه في الديوان .

وفهم هذا الازدراج المحكم في طبيعته بين فلسفة الاستخفاف وشعير الاحترام ليس بالأمر العسير على الذين عرفوه وعاشروه : إن «اللابدة» منه ثم تكن نقما في الشمر ولم تكن وليدة اخطرة السلبية إلى الميتة . ولكنها كانت عنده وليدة الشعور المنوط وللنطرة الموجبة إلى العاضقة الإنسانية في شعابها التي لا تحصى : كان مله النفس علقا على الأم ، وعلى دين وعنى بلخ ، وعمر الزوجة ، وعى الصديق ، كان امتلاء نفسه شعيرا بارفع .. هو

سر هذا الضيق بالحد المتصل في حالة بعد حاة وإحساس بعد إحساس ، وكانت نظراته المثالية إلى غير أواقع المتكرر في نسي جعله يعطى ما له له وما لقيصر لقيصر كما قال السيد المسيح . هي التي جعلته يعطى للواقع ما للواقع والمثل الأعلى ما للمثل الأعلى دون ، يمزج بينهما في كل حاة وكل يوم .. فإذا جاء دور المقارنة بين الواقع الإنساني وبين الكمال المنشود فهناك تفتح الأبواب للسخرية بجميع صاريها . ولكن سخرية عطفة كسخرية الأب الذي هو أعطف الناس على صغف ولية . وأوسعهم رحاء له في الكمال . بهذه الخطرة ، المطبوعة إلى أواقع إلى حيل الأعلى استطاع أن يعرف السخرية بالواقع في حينه ، وأن يعرف النفس للقدسة التي ترفعها إلى سماء المثل العليا في كل حين

فمن غضبانة التي تذكرها تلك الغضبة في أشرت إليها في معرض الكلام على ثلثة ، العفريات ، وأولها «عقرية محمد» صلوات الله على

كنا نزور ساحه الواد النبوي على مقربة من مكنتي بالعباسية ، في حولة من جيلتنا التي كنا نسميها بالفتيش التي على أحياء المدينة .. فذكرنا مقال البطولة النبوية في كتاب الأبطال للفيلسوف الايتوسي توماس كارليل ، كان يعرف إعجابي بما يكتب ذلك الفيلسوف ، فقال :

- ولم لا تكتب أنت ذلك المقال من جديد ونحن أولى بهذا ، ألوجب من كتاب الغرب ، منها بكن من إخلاصه في تقدير البطولة المحمية ؟

وكان في الجماعة فتى متحدث يحسب أن حرية الفكر إنما تقاس بمقدار تطاول على المقدسات الموقرة ، وعلى مقدساته نحن نون سنائر العالمين .. ففاه بكلام هائل يشي به إلى انفسد رأي الزوجات الكثرات .. وما راعنا إلا المازني الوديع الساخر ينتفض غضبا كأنه عسة لقحة من وفود مضطرم ، وإلا حركة يوشع أن ينبعها عمل وهو يقول تعقيبا على صيحتي في وجه ذلك الدعي المتحدث : كلا ، كلا ، إن هذا الجبر لا يشب الحاجة إلى الضرب بالسيف في نشر الدعوات ، إنه ليثبت الحاجة إلى ما هو أصح من ذلك لاء الجادة واللحة : إنه لضرب بأحد ، توفيراً سيف عن مثل هذا المقام .. !

على أن أومن قد كان يصنع صنيعه في هذا المزاج الذي وفق هذا التوفيق
لعجيب بين نجد والقداية ، وبين السخرية و « اللامبالاة » في عام الألب
الخالد ، وفي عالم المعيشة العارضة من يوم إلى يوم . فكان من صنيع الزمان
أن لم يزل يرسخ المسافة بين الواقع والمثل الأعلى عاما بعد عام ، حتى كان
أن ينتهي به إلى طرفين مختلفين ، فلم يكن للرافع عنده في أخريات أيامه
نصيب غير التحدي والسخرية والاستخفاف ، ولم يكن فيه غير باطل الأبطال ،
وبير النظرة على شيء ، وغير تنقيت والإغضاء . ولم يكن في أكثر الأحايين
أقلاما للمصداقة بينه وبين المثل الأعلى فوق عرشه الرفيع ، من وراء المنصور
والمنامول

وسكنت في هويته فتوة النضال حتى بشيء من الندم إلى نضاله القديم ،
يحدث استنساخ لروح على من يذكرون حقة ، ووجهون فضله حيث هو أحق وأجدر
باعتزافه ، حق ، خدع ، الفضل والفضيل .

فما كان كره شعره - فيما أعلم واعتقد - إلا تحديا منه لإعجاب
والاستعجاب . من يثلثون أنهم يعمون عليه بهعجابهم واستعجابهم ويسلبونه
نعمه بتكذيب عيها بما يذكرونه عليه ، أو يخسونه ، مؤمنين ومكابرين متفتنين ..

وفي هذه اقترحة كن يقول ما يقوله وهو لا يبالي أن يحسب جوابه من الجد أو
بحسب من المزاج . إنني في مصنع النجارة الفنى أعطيكم ما تطلبون : وما
بني أعطيك كرسى الصالين وأنتم تطلبون كرسى المطبخ ؟ أو أسرمكم شن
الدولاب وأسد بثلثون ثمن اصندوق الصغير ، وخدعتة قبل أن تخدع غيره
سهوة الكسبة طيه ، فنى أن السهر الممتع هو الذى يستطيع من لا
بالألة . يطاهه منواه ، بكل ما فى ومده من مبالاة ، فلا يقدر عليه

كان يجلس في المرقم « التايرايتر » يكتب قصة أو المقال المطلوب ، ساعة
الطلب بغير تحضير .. وكان يكتبه في جلسة واحدة ويختتمه مع ختام الورقة
الأخيرة ، نفسى أقدر أن لم يقل كل ما عنده ، ولكنه حرص كذلك أن الذى
قرأه كاف . فـ .. يزيد على الكفاية والوفاء

وهنا - أيضا - تعلم الفارق بين « اللامبالاة » انشائية و « المبالاة » الموجبة
التي نعتيها القدرة عن جهد المبالاة .

ربما كانت سهولة الكتابة على المارنى تقنعه من نفسه بأنه غير مكثرت بما
يكتب ، ولكنه ينسى أن هذا الذى يكتبه بغير اكتراث يداول « مكتوثون جهدهم
فلا ينفذ » من إليه ، وأحسب أنني قرأت له المقال الذى كان يكتبه في نصف
ساعة ، وقرأت له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود إليها في ساعات ، فكان
أجود ما كتبه من ثمرات السرعة البانغة ، سرعة الكتب تذى يقول أنه « لا
يسر » ، ولكنه بيعة غاية الشوط من « مبالاة » الآخرين ..

وهذه هي عبقرية المارنى التي لا تجارى : عبقرية تعضى وتضع اليود حقها ولا
تنسى حقيق المثر العليا في سساراتها . وهي على هذا تعطينة نموذجاً منها في
الكنة في التلميذ والمصاحب وعابر الطريق ، كما تعطينة نموذجاً منها في
ثمرات الفن والألب ، وتشعر وهي تستخف وتستسر كما تشعر وهي تقدر
وتعد لأنها فيما « تنال » وما « لا توالى » ، إنهم تصدر عن شرط شعور وعن
تسلي بين مواطن النقص ومواطن الكمال .

عبد الرحمن شكري

عرفت مجد الرحمن شكري قبل خمس وأربعين سنة^(١) فلم أعرف قلبه ولا بعده
أحدا من شعرائنا وكنا نوسع من أطلال على لب اللغة العربية ولب اللغة
الإنجليزية وما يتروح منها من الملفات الأخرى .

ولا أذكر أني حنت عن كتاب قرأته إلا وجدت عنده عذب به وإحاطة بخبر ما
فيه . وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لم نقرأها ، ولم نلتفت إليها ، ولا سيما كتب
القصة والدرج .

وقد كان مع صفة «عامة» سابق الملاحظة ، نافذ الفضة ، حسن التخييل ،
موسع التنوع بين «الإنشاد» و«الكتابة» فلهذا كان يهين له منك المص على أزمائها
لأنه يطلع على الكثير يميز منه ما يستحسن وما يلبأه فلا يكلفه نقد الأدب غير
نخلة في الصفحة واسفحات بلقي بعده الكتاب وقد وزنه لا يتأتى لغيره في
الجلسات الغزالية .

لم يسميحه أحد فريد أفكر إلى تطبيق «بلاغة النفس» - السيكولوجية -
المستمدة من أدب العرب على ما يقرؤه من شعر التحول في اللغة . ولعله أول
من كتب من لغتنا عن «عرق» بين تصوير خيال Imagination وتصوير الوهم
Fancy وهما ملتزمان حتى في موازين بعض النقاد الغربيين . ومن ذلك التفرقة
بين تشبيه الشفق والسر بدم الشهداء في قول المعري :

وعلى الألق من دماء شهيد من عنى ونجده شاهدان
لهما في أوخرائير فجرا دون أوليتك شفقان
وبين تشبيه ابن الرومي للأصغر حيث يقول :

لوجهه بأخذ من رأسه أخذته من صبغ من يده

(١) تولى عبد الرحمن شكره يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

فالأول وهم في خطر المعري : لا يلتفت إليه أحد غيره لو لم يذكره . والآخر
خيال مطبوع يحمل لكل بديهة مصورة تتقن من التشبيه ما يتقنه الشاعر . وقد
كان يشتمز من بيت الواواء الممشق :

لأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وضعت على المناب بالبرد

ويقول إن نصيبته إلى يزيد بن معاوية يلاء فوق طاقته فلا تجمع عليه ، بين قتل
لحسين وقول هذا أشعر الذي لا بأس به إذا أريد للفكاهة والعبث لا للعزل .
وكذلك كان يحسب من المزاج الغث قول الأنباري :

ولما ضاق بعض الأرض عن أن يضم علالة من بعد الممات
أصاروا العولم والرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات

وهو معدود من عيين الرثاء عند من ينظرون إلى المفظ ولا ينظرون إلى بواعث
لرثاء من النفس الإنسانية ، فمثل هذا الرثاء يقال للمكايبة أو للعت . ولا يت
على حزن دخيل ، ولا تقدير مفيد .

شكري الشاعر

ولم يكن أمتع من الاستماع إلى شكري وهو يقرأ القصيدة العربية أو الأيوبية
ويعلق عليها بيتا بينا أمثال هذه التعليقات .. وما كتبه من النقد في مؤلفاته
قطرة من بحر من تلك الآراء النفيسة التي كان يرسلها عفوا الساعة ولا يعنى
بتبنيها

وقد نظم شكري سبعة دواوين من الشعر غير القصائد التي لم ينشر
وتتمثل بها كراسة في حجم ديوانين آخرين أو أكثر ، فمن تخبر من هذه
الدواوين المنشورة وغير المنشورة أمكنه أن يجمع منها زينة من أحمل الشعر
تضارع سطوة النزل في كلام كبار الشعراء ، وقد كانت له قدرة على رياضة
النظم كما نرى في ترجماته لبعض رباعيات الفخيام ، فإن الترجمة أدل على
قدرة النظم من التأليف لتقيد النظم بالمعاني المنقولة التي لا يتصرف فيها
فقد أحسن فيما نقله من الخيام غاية الإحسان حيث يقول :

هاج للفتاب جنة العزول أشجا نالده قد دهمه المصهد

تأني النفس بالتفرد والوحدة
حيث تعكس الأزهار راحة موسى -
ولها نفعه كأنفاس عيسى
أو يقول :

أرم قد عنت وصوح قدما
كأن جميد قد مضت حيث لا حيد
لكن الكرم لا يزال حيوادا
ولما منزل على الروض فينا
أو يقول :

هات لي الكأس يا حسيبي ندفا
إن ثوب الوكر ثوب شفاء
أغض عنك الوكر وارده في
إنما العيش طائر بين غصيب
لا تضع عاتبا كنوم العصار
نيس يغنى في الصيف ثوب وقار
حمرات للقيظ مثل النار
من فحده مأخذ المستطار

وهذه طبقة من الطلاوة والجزالة من حسنته في مترجماته كانت في مبتكراته أسلس وأوفر ، وقد توافرت لشكري مقطوعات أبيات في هذه الطبقة من بلاغة الأداء ، وكان خليقا أن تتوافر له في كل نظم لولا أن انفارت طبيعة في أعمال العباقرة والموهوبين ، ولولا أنه كن قليل الاحتفاء بالمراجعة والتنقيح يرسل شعره إرسالا كما قال

أرمي بشعري في حلق الزمن ولا
ونكته - على قلة احتفائه بالسقيح - قد خلاص له من جيد الشعر ما يسلكه
في عداد المجدين من نخبة الشعراء .

وله عدا ذلك في ميدان القريض فضل الرائد الذي سبق زمانه في عدة حسنات ماثورات ، فهو من أسبق المتفهمين إلى توحيد بنية القصيدة وإلى التصرف في القافية على أنواع من التصرف المقبول ، فنظم القصيدة من وزن واحد ومقطوعات متعددة التوافي ، ونظمها مزججت وأبياتا من بحر واحد بغير قافية ملتزمة ، وأثر في تجاربه الأخيرة أن يلزم القافية مع تعديدها في

مقطوعات القصيدة الواحدة ، ويسنئ في جميع هذه المتاهج أن ينظم الكثير من الأسماء العصفية والاجتماعية قبل أن يشرع^(١) في نظم القصص ، في أدب الحديث وله فيها قصيدة البيم التي يقول فيها :

وما لي نتم الأثرية ومهدنة
يمر به الغمار مشى وموحدا
يرى كل أم بابنها مستغرة
إذا جاءه عيه من العيون عاده
كأن سروراني بالعبء نسوة
عراء لا يسهل به الضيم أنا
فهذا يتيم فتر صفو عيشه
وأي قريب لليتيم قريب؟
وكل امرئ يلقي اليتيم غريب
وهيهات لا يعنو عليه حبيب
من التوجد مع هاض ووجيب
عليه تريق الدمع وهو صبيب
يتامى ولكن التلاء ضرور
وذلك من أصحاب الكرام سلب

ونذكر هذه القصيدة ذممة لسبب غير داللتها على تمذج شعره في هذا الباب . إذا كانت من أسب وجوب التي لزمه من مستقبل شبابه وكان من دواعي هذا الوجه أن هذه القصيدة احتارها الأستاذ محمد أمين وأصف من كتاب عن كتب مطالعة سحسنا لها ، موصيا بحفظها ، من دون أن يذكر اسم صاحبها . لكن هذا الإغفال مما ألم اشاعر أشد الإيلاام لأن كان يقب - كما قال لنا - يغفل ذكره لاستهجان شعره ، فلما أن يكون الإغفال حما عليه مستحسنا ومستحيظا فذلك كنوء عجب

ولقد كان بعض الإنصاف خلقا أن يلفظ من وحشة الشاعر التي لازمته من بواكير شبابه ، ولكن التوقع عسى نكران فخله بين من يعرفونه ومن يجهلونه مع أنه لم يكن ليصبر معها طويلا . مع ما فطر عليه من المص المرفه والملل السريع ففر نحو الشرين نداء شكرى هذه الأبيات :

نقد لفظني حمة ته يا فحما
وحاول من لهم صرا فلم أزل
وإني لأدرك في الموت راحة
وتولا نلى لا يملك اليأس صرفه
فصرت كأن في النماين من عمري
أنا فحمة حتى أبعث له صدري
وأجنب حتى كأس لا أدري
لا ورنى بأس على المملك الوعر

(١) عن شاعر الأندلس شعريا : مطران قد سبقه إلى ذلك ففر ديوان الذي هو لم يسه سنة ١٠٥٨
بعض شعرية نعت قبل سنة ١١٠٠

وقد عاش بقية عمره بهذه الوحشة وهذا لعلى وهذا اقترده بين اليأس
وارجاء لا يدري ما يدفعه من خيبة في حياته لأدبية ولا من خيبة في حياته
الوجدانية ، وكلها أثقل وأمس من أن تطاق في حالة السليم لجليد فلما أصيبت
عليه العلة الربيلة - علة المثال - وان عليه وجوه الأبد قبل الهرم وقبل الموت
فتترك الدنيا ومن فيها وما فيها ، ولم يحفل حتى بأن يقول إنه تركها غير
مأسوف عليها ..

شكري الماتر:

والشاعر الناقد (شكري) كاتب ناثر على كتابه ومتنفس في السهولة
والسلاسة وقلة الاحتفال بالتشويق والتجميل ، لكن ثراه شعر ونقده لا تقرأ مثله
لشاعر غير ناقد أو ناقد غير شاعر .

ومن مؤلفاته النثرية كتب «حديث إبليس» وكتاب «الاسترافاد» وكتاب
«ماكرات مجنون» «دا قصوله المجموعة في كتاب «المحاذير» وكتاب
«الثمرات» وطابعها الغائب عليها جميعا أنها رضى نفسه ذى لا يحبها فيه
كتب بصريح هذه المعنى والأغراض ، فهي شكرية - فر كل صفحة من
صفحاتها وكل فقرة من فقراتها يكاد يميزها النظم المسترسل ، كما يميزه
لون الفكر والوجدان .

يقول من فصل له عن هبة الحياة رهبة الموت

«إننا أغربنا الناس بأن لا يهابوا الحياة خفت من يغريهم ذلك بنز يغالوا في
حب الحياة حتى يجهنوا .. وإذا نحن أغربناهم بأن لا يهابوا الموت خفت أن
يدفعهم ذلك إلى كره الحياة والرغبة في التخلص منها فخليق بنا أن نحتملهم على
أن يجعلوا بين الزهيتين موازنة كي لا ترجع إحدهما ، ولكن الإنسان لا يملك
صحة نفسه وسقمها .. فإن وراء رغبته في صحة نفسه عواص لا يملك لها دفعا
مثل الورع والتربية والبيئة فإذا تحالفت هذه الأسباب على إسعاد نفسه بأن
تجعله جباناً أمام الحياة ، وجباناً أمام الموت ، كان ضحية له ولا تنفعه
نصيحة مناصحين شئاً»

وخذ ما شئت من صفحاته تجد فيها ما تحده في هذه السلاخلة من استيعاب
شعوره وفكره والاستفادة من مرجعته نفسه وبغيره ، ثم إن الذاكرة على
الورق كما يرسل العنكبوت في محس السحر عفاوا بلا كلفة ولا مراعاة من
مصدره من النفس ومصدره من التعبير .

إن «عبد الرحمن شكري» شاعر - نر سيح وحده في فنه ، ومن توحده في
هذا الفن أنا نتقى تعبده من «تخصية» فذة لا يحكيها غير صاحبها ، وإن
جل به الفكر اللامع والإطلاع الواسع في كل مجال

ولقد عرف شكري الناس معرفة أحرزته أشد من حزنه لجهلهم إياه ، فإن
عانوا فعرفوه فلعلهم يرضون أنفسهم بإرضائهم لذكراه ..

هبةء حاضنتهم

نشأ وليس أحب إلي من الأصداع على تراجم الطعام ، ولكنني على فرط
شفقي بالاطلاع على تراجمهم - أشعر قط نحوهم بذلك الشعور الذي يطلب
على كثير من الناس ، وهو شعور يصل إلى رؤيتهم والاتصال بهم ، إن كانوا من
الأحياء ، وقد يتفق لي أن أقرأ عن أحدهم أو أقرأ له كثيراً من الأوصاف
والأراء ، ثم يصل إلى مصر ويتنازع لي فرصة لقائه ، فلا أكره لقاءه ولا أخف
إليه ، ولكنني أستطيع أن أفرض أنه لا يزال في بلاده ، دون أن يكلفني هذا
الغرض أقل عناء .

إنني أحب غامدي كره ، وقد عبر عصر في طريقه إلى لندن ، وأرادت
صحيفة البلاغ أن تسبني لقباً واتسمت إليه ، ومصاحبه في السفر من
اسويس إلى بورسعيد ، فلم تشعب هذه الرحلة ، ولم أشعر بأنني أزداد معرفة
بالرجل أو إكباراً لقدره إذا قضيت معه هذه الساعات .

ومرجع ذلك فيما نطن إلى أسباب تسمى منها تعودت أن أرى اعظاماء
والمشهورين في غير «التهمة» التي تضي عليهم ما تضي من الغربة ، وتشير
في نفوس الدس تحريم حب الاستطلاع أو حب الاستشفاف من وراء الظواهر

والمراسد . وقد تعودت ذلك لأننى نشأت فى أسوان حيث كنا نرى من كل شت
زوارا من أطول وأولياء اليهود والنبله وكبار القدة والساسة وزعم الأعداء
ولكننا نرفع على أبسط ما يكون من البساطة ، فنرتفع عن أبصر ما غش ،
الغرامة الذى يحيط بهم وينرى الأنظار بالتطلع إليهم ، ونقدرهم من بعيد كما
نقدرهم من قريب .

كنت صحف والأبناء انيقية تتحدث عن ملنر وكنتشر ، وكان بل أسوار
يرون ملنر فى بقوة بلوية أكثر روادها من العمالين والتراجمة والاكثيين ويرى
كنتشر على دكة خشبية أمام بيت من بيوت مشايخ العرب .

وكان عند الأرض الذين تنقل مجلات العلوم أنهم ويحوتهم وتعتمد عليهم
الحكومة فى بعث الكشاف والتحقيق يلدون إلى أسوار أحيانا فيرونها فى
المدرسة يتوزعهم ، ونالف أن يكون كبار العلماء ألسا ماكونين
ذلك من أسباب .

أما انصب ، أخرى فمحب العزلة الذى ورثه وطبعت عليه ، منها أنى
أطلع إلى معرفة لعلمة حفيظة لا صورة ، وأحسب أن رؤية لحقة من حفلات
تعرفنى بعضهم لم تعرفنى به قراءة يوم أو أية

لهذا لم نشط كثيرا إلى هذه مشايير العام الذين تهيأت لى الفرض للقائهم
ومحادثتهم ، ولم نؤسل بعملى فى الصحافة إلى محادثة أحد منهم ، لا لغرض
غير حب الاستطلاع أو حب تقرب من نوى الأخطار .

فما من حمد سنار الدين ، وما دلت سعد رحيل ، وحددت أمى بونفيع
وكان باع الحديث فى كل مرة سببا غير حب الاستطلاع من جانبى أو إرضاء
المستطع من حمهرة القراء .

أحمد محاربنا فى الفارز

ومختار لغازى كما يعلم قراء التاريخ القريب بطل من الأبطال عسكريين
الذين اشتروا فى حروب روسيا والدولة العثمانية .

كانت - سيرة عالمية ومكة موقرة وأرادت الدولة العثمانية أن تنسب عنها لى
مصر صيد سائيا ملحوظة حكاية ، ليستطيع بكنته - قط - أن يبرهن مركز

المنوب البريطانى بما فى يديه من السيطرة والقوة ، فاختارت مختارا لهذا
المنصب ، وعرف لى مصر باسم القوميسير .

ولم يكن له عمل فى السياسة المصرية ، بل كنت كل أعماله من قبيل
التشرقات وحضور الصلاة فى يوم الجمعة مع أمير آيلا .

ولكنه كان يسأل : « هذا تعمل لى مصر ؟ » فكان يقول : « نرى احتياج لى
على وجود الاحتلال » .

ولما خطر لى أن أحداثه كان هذا الخاطر فى الواقع - شيشنة شباب - .. لأننى
رأت أن اتقل باسم هذا الرجل الجرىء كلما يسمع منه ولا يسمع من غيره ،
ركن انحمل المصرى قد تعرض يومئذ لهجمة من هجمات الأعراب فى طريق
إلى مكة ، وكانت الجزيرة العربية ولاية عثمانية ، فس أجبر من القوميسير
العثمانى أن يسأل عما جرى فيها ، وبخسة حين جرى لأناس من احتياج
المصريين فى حماية فرقة مصرية

كان مختار اعازى ضيف الجسد قصير القامة ، ولكنه كان مهيب خلعة
كأنه تستل فى عينيه نار موقدة ، فلما تحدثت إليه ، يتحفظ ولم يبال أن يقول
كل ما عر له أن يقوله عن جمال الإسلام عنوه العسكرية المصرية ، ولا أنكر
تفصيلات حديث اليوم ولا يتيسر لى أن أبحث عنه فى مراجعته لنقله بنصه ،
ونكنى أنكر أنه قال : « إن الإنجليز أمهلوا جيش مصر ، وأننى بقوة كفوة
انحمل أفتح الجزيرة العربية ؟ »

وكنت أكتب يومئذ فى صحيفة الدستور لصاحبها الأستاذ الجليل محمد فريد
وجدى به فلما رويت له ما سمعت من الفارز اتشم وقال : « إنك لا تذكر
حادثة الحدود .. فإن كلاما أقل من هذا الكلام قد أثار الإنجليز على أمير
ملاد ، فكيف تشتمهم بثلثون مثل هذا الحديث من رجل يتبرمون به ويمركزه فى
نيار المصرية ؟ »

ونشرنا ما تيسر نشره يومذاك ، ولكنه على خفته - القياس إلى ما قبل قد أقام
الدنيا وأقعدنا لى الدوائر الإنجليزية ، وأحسبه كان من أسباب سعيهم الضمت
فى نقل العازى والمساومة على مركزه فى الاستانة

سعد زغلول:

وحدثني مع سعد زغلول خليل أن يشار إليه ، لأنه فيما اعتقد كان أول حديث لصحفي مصري مع أحد وزراء المصريين .

ونحن في العصر الحاضر نفتح الصحف اليومية والأسبوعية فلا يفوتنا حديث وزاري في عدد من أعدادها المتلاحقة .

لقد أصبحت محادثة الصحفيين المصريين لوزراء هذا البلد مادة صحفية دائمة ، ويوردوا ميسورا لكر فاصد .

ولكن صحف مصر قد عبرت في الجيل الماضي سنوات بعد سنوات ، دون أن يسمع فيها صوت «نظرة» من القطار كب كان الوزراء يسمون في ذلك الحين .

لأن انظار كانوا في عزلة عن الرأي العام ، وكان الرأي العام في عزلة عنهم . فـ يجسر أحد منهم على الإقف ، يحدث عن سياسة «نظرة» إلى جمهور المصريين

* * *

وعلمت أن سعدا رحمه له ناظر ولا كالنظار ، وأنه لا يبانى ما يباليه زملاؤه من غضب قصر الوزارة أو غضب المستشار

فأردت أن أحطم هذا السيد بين الوزارة المصرية والأمة المصرية ، وهمني أن أحدث سعدا على الخصوص لأنني كنت أعجب به وأترب لمصر نهضة وزارية على يديه ، وكان في تلك الأيام عرضة لحلة جائرة من بعض خصومه ، وكنت أعد أنها جائرة . لأنهم زعموا أنه حارب الجامعة وهو الذي رصد لها عشرة آلاف جنيه في ميزابة الدولة ، وزعموا أنه حارب التعليم بالغة العربية وهو الذي دفع الطلاب دفعاً إلى مدرسة المعلمين ، وجعل لهم مرتبات شهرية وهم في تلك الدراسة ليخرج منهم أساتذة يسمون الدروس باللغة العربية وزعموا أنه مالا الإنجليز على نقييد لتعليم وهو الذي كان يطوف البلاد من أسوان إلى رشيد لمحاربة الأمية بتسليم المكاتب الأولية .

فأناخنت من حديثي معه وسيلة لدفع هذه الشبهات بالأسانيد الرسمية . وحصلت مفلا على تلك الأ . فـ ، ورأيت بعيني ما يثبت لي صدق ما ظننته في

عزيمه سعد واحتفاظه بكرامته وكرامة منصبه . لأن المستشار العتيد - راتلوب - جاء يستأقن في عرض أوراق عليه ، ولم يكن مسسار إنجليوي يستأقن في عرض أوراق ، بل كان ينظر في كل مسألة بنفسه ويدرس ما يشاء من ذلك على الوزير للتوقيع .

نشرت حديثي مع سعد في شهر مايو سنة ١٩٠٨ بصحيفة المستور ، ولم أحدث سعدا يقترح من الأستاذ الجليل صاحب الصحيفة ، وكان الأستاذ الجليل من كتابا القلائل الذين يعرفون حوبة النشر ، وكثيرا ما خالفت فيما أكتب وأنا يومئذ في مطلع حياتي الصحفية . وربما ذهب في مسأته من المسائل إلى رأي وثبت إلى غيره ، فلا يرى حرجا في نشر ما أكتب كما أراه .

أمبل لودفيج:

أما أمبل لودفيج لم يكن له عملا صحفيا ، ولا أنا ليت أن أنه لأشرف ما يجرى بيني وبين من الأحديث ولكنه حضر إلى القاهرة فقامت « المفوضية الأكاديمية حفلة استقبال في دار وزيرها ، وأحب أن يتعرف لهذه المناسبة إلى أناس من المشتغلين بالأدب والدعوة الفكرية من المصريين فكنت أحد المصريين . وتصانفنا في مزدحم من الأجانب والمصريين والرجال والسيدات . فقال لي أنه يريد لودفيا في قرصة أخرى .

وكان صديقي الأستاذ محمود السوقي سكرتيرا شقيقا للمفوضية الأكاديمية فدعانا معا إلى اللقاء في حجرة من حجرات المفوضية وأثر لودفيج أن نتحدث على أفراد .

واحبست في أسئلته الأولى أنه ينزع في مسائل المجتمع وسياسة نزعة اشتراكية معتدلة ، فقلت إنني أوافق الاشتراكيين في كل ما يؤدي إلى تحسين أحوال الفقراء والأجراء . وأخالفهم في كل ما يؤدي إلى حرمان الأفراد من الحقوق الفكرية والشخصية .

يقال: حسن حسن ، وكرره مرات .

ثم أحسست أنه قد اطمئن إلى بعد لحظات من الحديث وتبادل وجهات النظر ،
لأنه أفضى إلى باصرح ما دار بينه وبين المصريين والأجانب من الأحاديث
العامة في المسائل الوطنية والعالمية .

ثم سألتني : « عندكم في مصر فكرة تقدم - وقوة محافظة وجمود - وقوة
بريطانيا العظمى ، فأبها يكون له التعب فيما تضح ؟ »

قلت : « اتصال عن المدى الطويل أم المدى القصير ؟ »

قال : « بل عن المدى الميزل . »

قلت : « سيكون اللعب لا مهنة لقوة التقدم . »

قل : « يسرنى أن أسمي مثلك . »

...

راستورنا إلى الكلام عن مؤلفته فوجدته قد ما يكون رضى عن قصصه ،
وأكثر ما يكون رضى عن إخراجهم ولا سيما ترجمة نابليون فيما ذكر ، فقلت له
أيضا : « يسرنى أن أسمي مثلك لأنه هو عوالب فيها أراه . »

وتركة وفي نفسى أثر من لقائه يذيرب الأثر حتى استغلصت من قراءة كتبه ،
وهو أنه صطفى راق ، وأن تواريفه وأدبياته تقرب إلى تلبينات المجالات أو
تعلقاتها ، وإن كانت تنفق بعض ما يكتبه المتخصصون من البحوث
والدراسات ، لأنه يكسوف ضلالة لا تحنها كثير في تلك البحوث والدراسات .

برنارد شو في أسوان :

شمس ربيعية لم تعترف لم بدلت ، وأرض تحمل في كل بقعة من بقاعها
سمات التاريخ الذى يطرز الفصول والسنين وتول خالك وقور يوحى إليك أن
تقيسه بتكوف اليهود والأحبال ولا تقيسه بتكوف الفراسخ والأميال ، وجبال من
حولك كتها أسوار تنور عن مومعة ناسك لا تراه بالعينين ، أو كأنك تسمعه
بأذنك يقول في سكنته الأبدية : « أنا ذا أنا أحفل بشئ في نيتك لماذا
أصابني عنى من الزمن ؟ » شرة .. فلا تحفل به شئ .. »

تلك هي أسون لي هذا الشتاء ، وفي كل شتاء ، وتلك هي أسوان شى
أقضى فيها بضعة أيام ، وفى رسمى أن أقول بضعة قرون حين نغمونى تلك
الأدق التى لا تعرف حساب الأيام .

أجازة من عنة المياسة ، ومن عاننا الصاحب فى غير طائل ..

وقل فى العدم من يستغنى عن هذه الإجازة من سنة إلى سنة أو من حين
إلى حين ؟

— حفظه أن مستغنى عنها ، لأنه لن يستغنى عنها إلا إذا أضاع نفسه فيها .

وقد من لنا له ستة الإجازة من العيادة كلها فى كل يوم ، فهل نستغنى
منه فى هذا الشغل الشاغل الذى ينفخ الحياة إلى نفوس الأحياء ؟

معان الله خدق النور عنا - إجازة يومية من العيادة ، وليته خلق للحيوان
الإنسانى بمصعب كذا يقبل ، أرسطو - إجازة قهرية ينال فيها عن سبب .

فإن غفلة النوم روح له من هذه الغفلة الدائمة وهو سهران !

ويحمد الله : « بل أعرف هذه الإجازات ، وإن لم أكن فى بطالة . »

لا يقدر أسمى على القوة بعد العتوة وهو فى وسط الحركة والضجيج ، ..
بل يفرون .

...

وفى وسط الحركة والضجيج ، بل فى وسط الممعة كما كن يفعل نسيون
عن ظهر جواب ، أستطيع أن أغض عنى فى عالم الأحلام فأذهب فى حارة
البيد أو الشجر أو الماء .

ينشئ فى تلك القوة لأيقظ ما أكون

أشئ فى تلك القوة أقيم فى أحلام الشعر والأدب ، فلا تقوى ممركة
« حزن » نفسه عن إخراجى من ديوان شعر أو صفحات كتاب أغلق « إياه »
عنى !

قلت : « فى إجازة فى كتاب ، حين قلت لنفسى : « إلى أسوان - إلى أسوان »

قد كان كذا - حسنا من وجوه كثيرة ، وأحسن ما فيه أن كانه هو الخسوف

حده ومومعة هو الداعية المشهور « برنارد شو » ..

فالكتاب أعظم من المكتوب عنه في أكثر من ناحية واحدة ، وهي على الأقل
ناحية الفلسفة وناحية الآراء الاجتماعية ..
وإن شئت فقل أيضا من ناحية الآراء السياسية والمبادئ الدستورية . وهي
اليوم شغل شاغل للصحافة والقراء !

* * *

بين بوى العجالات ، وبوى الدعوات ، فتحت الكتاب أطوى صفحاته وانظار
يطوى الأرض «كطلى السجل للكتب» ، كما جاء في القرآن الكريم ..
وتم تمضي أربعون صفحة حتى وجدت نفسي على أبواب البرلمان من طريق
آخر طريق الآراء والنظريات ، لا طرفة المعرك والأزمات ! ..

صاحب الفيلسوف «جود» ينظر إلى «بر» - شو» نظرة اعلميد إلى الأستاذ ،
لأن شو كان شيخا يقود الحركة الفكرية يده كان «جود» طالب ناشئا يلتمس
طرفة في «مضطرب المذاهب» والاه «نقدات

وصاحبنا «جود» يرشح نفسه لنيابة عنوا اشتراكيا مع حزب العمال ،
فيكتب إلى «برنارد شو» مستشير قبل الإقدام على هذه التجربة . لأنه أستاذ
في هذا الميدان ، ولأنه زعيمة في التركة الاشتراكية قبل عدة سنين ..

ولحسب أنني لو كنت في موضع «جود» لد استشرت الداعية الكبيرة في أمر
من الأمور ، لأنني على ثقة أنه يخالف كل ما اقترحه عليه ، فلر كنت عنسوا في
البرلمان واستشرت في الخروج من إسخر من إقدامك على هذه الخطوة التي لا
معنى لها !

ووكنت كاتباً واستفترته في دخول البرلمان لسخر من إقدامك على هذه
الخطوة التي لا معنى لها كذلك ..

لأن كل اقتراح تعرضه على الداعية الساخر لا معنى له على الإطلاق !

فلا معنى إذن لأن تعرض عليه أي اقتراح

وكن «جود» قد أراد أن «يسأل» على ما يظهر مجرد سؤال .. ثم لا يعول
على الحجاب .

وهكذا سأل ، وهكذا جاء «الجواب» الذي لا شك فيه ..

قال له «شو» إن الفلسفة الذين يظنوا البرلمان غير فلبين ، ومنهم «ميل» و
«برادلو» و«وب» الذي كان عضوا في الوزارة .. فهل صنعوا شيئا هناك ؟

وقال له إن تشرشل ، لم يكن عضوا في البرلمان حتى الحرب العالمية ، ثم
ساقوه إلى «ثورة» انتخبة أدخلوها له ، لأنهم في حاجة إليه ، فقد كان شيئا
مهسا قبل أن يرشح نفسه لنيابة البرلمان

وقال له إنه هو نفسه قد رفض التنيبة يوم عرضوها عليه وكرروا العرض
مرات ، ثم لم يشم قط على الرفض والإصرار ..

وقال له أخيرا : «إن فيك اللعب لا يزال أدمك على المدة» ، فإن شئت فحرب
حظك واللعب ، رفق .. ثم تواضع «شو» في ختام خطابه ، لأن التواضع من
ملكه رياضة محبوبة بين «الادعائات الكبيرة» .. فقال في شيء من الملل :
«وهذه على كل حال آراء رجل ، كان ينبغي الآن أن يكون ميتا لأنه قد بلغ من
الهرم أقصاه»

ولم ينتثر «جود» عن عزمه بهذه التسيحة ، بل كتب إلى أستاذه يبلغه أنه
ماض في ترشيح نفسه فجاءته منه تذكرة بريدية يقول فيها : «حسنا .. إنك
سوف تعلم على الأقل شيئا واحدا ، وهو أن تعرف كيف لا تعمل !»

ثم شفعها بتذكرة أخرى وقال فيها : «امض في عزمك بكل وسيلة .. فقد
تحصل على حرية مباترة لا تخلو من فائدة للفلسفة السياسيين» .

وبعد هذه النصائح المختلفة عدل «جود» عن ترشيح نفسه لأنه لم يرض عن
أساليب الأحزاب في الترشيح ، لأنه عمل برأى الداعية الكبير

* * *

تلك هي إجرتي في هذا الكتاب ..

إجازة ، ولا إجازة !

إجازة لأنها رحلة في عالم الفكر والنظر ، ولا إجازة لأنها تعود بنا إلى
السياسة في بعض الطرق ..

وعلى من هما خيرة حسنة ، لأننى قد أكون فى إجازة والقراءه فاعلمون .

وما نراى بعد هذا فى نصائح «بناروش» لتلميذه فيلسوف

ما نراى فى تقديره عمل الأديب ، وعمل العضو فى البرلمان .

الرأى الذى لا يتسع فيه الخلاف أن الفيلسوف قد صنع شبهة فى المجالس
النسبية ولكنه ليس بخير ما يصنع وأنه إذا جوب منها لترشيح مرة بعد مرة
خلت .. سنذها بعد .. محانة ، لأنها تهبط به .. المسابقة الرخيصة
والوجه الكاذبة ، ولا ترتفع به قيراطا واحدا فوق مست ..

وم .. الآن ولهذه الضمات ؟ ..

إن خمس ساطعة بسمة ، وإن مشعة التواريخ ومعالج المسب من حركات
قائمة .. نمة !!

فهد فى النور .. !

لسان الهلباوى

كان فى مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيين .. أحدهم حزب محمد
شريف بيضاء ، والآخر حزب أحمد رياض باشا ..

وقد حطرت للقارئ المصري أن تعريف الأحزاب بهذه الشخصيات قبل أن
الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية

ولكن الواقع أن تعريف الأحزاب بالأشخاص كان سنة معروفة فى ذلك
المصر حتى فى أعرق الأمم البرلمانية .. فكان حزبان .. أحدهما
اسمك .. عرفان بوجه .. اسم حزب علاء الدين وحزب يوسفيل .. لم يكن ذلك
دليلا على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى التمسك .. ولم يكن الخلاف
بينهم منصورا على الاشتراك إلى هذا الوزير أو ذاك الوزير ..

كان حزب «شريف» أقرب إلى التحديد لبرامج ..

وكان حزب «رياض» أقرب إلى المحافظة مع التقدم فى رفق وانه ..

وكان الهلباوى يله ناقما على رياض باشا بسبب من الأسناب .. فكان يطلق
فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه

فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب «الشيخ إبراهيم الهلباوى» تمهيدا
لمحاكمته .. فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد «شيخ الناشئ» واستطرد قائلا :
إن ناظر النظار سيخرب بيتك إن لم تكف عن حملة عليه ..

قضت الشيخ إبراهيم وأجابه ساخرا :

- إنه لا يستطيع ..

فغضب العالم المحقق : كيف لا يستطيع وقد ناظر النظار والحكومة كلها فى
يديه ؟

وقال «شيخ إبراهيم» : ولكن ناظر النظار أو كبير من ناظر النظر : ليكن أمير
البلاد .. ليكن خاقان البرين وأصحريين .. ليكن .. الله .. جل جلاله ، فإنه لا
يستطيع أن يخرب لى بيتا ..

ففرح العالم المحقق ، وغيل إليه أن المسألة تنتقل من التمرد ولعصيان إلى
كفر .. الله ، والعياذ بالله ..

فصاح بالشيخ الناشئ حنقا : هذا الذى تمتصه من جمال الدين ؟ ..

وكان جمال الدين مقننا والبرفقة عند بعض العلماء فى ذلك الحين ، فطالب
لعالم المحقق أن يجيب فى كلام التلميذ برهانا على زندقة الأستاذ ..

وكان الشيخ إبراهيم الهلباوى من تلاميذ جمال الدين .. فلم يكن أسرع منه
إلى رد التهمة إلى المتهم ، وقال لصاحبه : بل هذا الذى تعلمته منك قبل أن
تنظم من جمال الدين ! ..

قال الرجل : أعلمتكم الكفر نحن ؟ ..

قال الفتى المتحذلق : بل عتصمونا أن قدرة الله لا تتعلق بالمستحيل ..
وخراب بيتى مستحيل لسبب واحد ، وهو أنه ليس لى بيت ! ..

على أن تهمة الهلباوى لجمال الدين لم تكن تمنعه أن يستعمل عليه بمثل هذه
الحذقة إذا «حكمت القفبة» كما يقولون .. قلعه هو التلميذ الوحيد الذى كان
يجترئ على السبب بالدعابة فى مجالس الدين أو مجالس الحديث ..

قال لي عظيم من عظماء هذا العصور الذين حضروا كثيرا من تلك الاحاديث
أو تلك الدروس - وكانت كل احاديث جمال الدين من قبيل الدروس : إن السيد
كان يتكلم يوما عن بعض اربابنا التي تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض
لربنا التي تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة . .

فقاطب الهلباوي قائلا يا خير ! وهل السيد من هؤلاء ؟ فانتفض السيد
مغضبا وصاح به : اغرب عني أيها الخبيث .. لعنة الله عليك !

والهلباوي الذي تدل عليه هاتان التادرتان هو الهلباوي الذي عرفه الناس
طوال حياته ، وبمكنتك أن تخصص في عبارة واحدة ، وهي أنه رحمه الله كان
ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها .

ومن هه الذلاقة المتعجلة كان يؤخذ الهلباوي في كل ما هو مأخوذ عليه .

سمعت عنه قبل أن نراه ، أو نستمتع عنه ممن رآه .

كان أنور المحامين بدير فلاحين بلا استثناء ، وكان من آيات شهرته أنها
دخلت في شبكة المصرية . فكان الذين يسامون انصافين في شراء لسان
الذبيحة حين إذا اشتط عليهم لقصاص في الثمن : والله ولا لسان الهلباوي .

و... شهرته كتبها كم...نا بشهرته محاميا . فكان عززان مقالاته إلى
أي طريق حزن مسوقون يتروعد على كل لسان ، وكنا نسمع به وإن لم نقرأ تلك
المقالات .

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار . فتحول في الوطنية إلى خطة
الاعتدال ، وقسر الاعتدال بصناعة الاحتلال .

ثم كنت الطامة الكبرى ، ونعني بها قضية دنشواي التي وقف فيها موقفا
مثل ذلك سيرة طول حياته .

ومن قضية دنشواي قلت في كتابي سعد زقزل : لقد كنا أربعة تقرأ وصف
السيف في أسوان ، فأغشى على واحد منا ولم يستطيع إمام القراءة إلا بصوت
متهدج تصفه العبرات .

ويستطيع القارئ إذن أن يتخيل مبلغ السخط الذي أثير في نفوسنا رؤية
الهلباوي حائما وجها لوجه في دار الجريدة . يوم ألقى الأستاذ لطفى السيد
بك خطبه الذي أشرنا إليه في الكلام على صاحب المؤيد .

لقد كان اعتباطي شديدا بما أصابه من الأذى في ذاه اليوم ، ولكني أقول
إنصافا له أننا رأينا في الرجل عبادة أم : رها في غيرة من المتصدين
بالحثاف العدائي ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم إلى حجرات الدار حتى
اطمأن إلى انصراف الجمهور الغاضب ، وأبى الهلباوي إلا أن يقتحم الجمع
خارجا من الدار في بيان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له في طريقه من اللكم
والإيذاء .

وغاب الهلباوي زمنا عن ميدان السياسة ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معرضا
لسعد زقزل ، وكانت المساجلات بين الأحزاب يومئذ على أعنفها .. ولكني
أشهد القارئ أنني ما وجدت القلم ينبعث في يدى انبعاثا إلى القول القارص
العنيف كما كان يذو في الرد على خطب الهلباوي وأحايته ، فربوى عليه
فيما اعتقد كانت أعف ما كتبت على الإطلاق .

ثم مضت الأيام ، وشاء القدر أن يكون للهلباوي شأن في موقف من أهم
المراقب في حياته السياسية ، لأنه الموقف الذي اعتزمت فيه جنبا أن أنزل
الهيئة القومية مستقلا عن جميع الأحزاب . .

كان الوفد والأحرار والدستوريون مؤلفين عن عهد الثورة الصديقة التي
عدلت الدستور .

رجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر فعقد الأحرار استوريون اجتماعا
في دار حزبهم ، وذهبنا إليه تأييدا لمطهر الانتلات . .

وإذا بالهلباوي هو خليب الاجتماع . .

وإذا من جالس أمامه على قيد خطوة واحدة ، وإذا به يحثال في كلامه
ليهملني عند مناسبة ذكرى ويتجاوز الإعمال إلى التعريض .

وعطت على الخطبة في اليوم الثاني ، ورأف فرصة ساحة لإغاضي بسد
الانتلاف . .

وباعتنى دعوة إلى بيت الأمة حيث يجتمع طائفة من أعضاء الوفد على
رأسهم مصطفى النحاس (باشا) .

ما الخبر ؟

الخبر - كما قالوا - أن مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نكلوه عليك . . .

قلت : وما شأنى فى هذا البين ؟ . . .

قالوا : بل الشأن شأنك ، لأن فحوى البيان أن الورد لا يقر ما كتبت عن الهلباوى بك .

قلت : إنكم أحرار فيما تكتبون ، ولكنى سأرد لا محالة على هذا البيان . وأقول لكم سلفا إننى أذكر المسئول عما أكتب ، ولم يعلم الناس قط ، أننى أكتب بإشارة من أحد .

ثم ذكرت لهم ساحة سعد مع الورد جورج لويد حين حمل على الورد من أجل زيارته للأفندي ، وثار الورد ثورته التى أوشكت أن تعصف بالبرلمان . وأرسل لى سعد من يقول له إن الورد يعتقد أنه هو الموعز بتلك الحملة . فقال سعد كبت الماثورة ، إنها تهمة لا أنفعها أو شرف لا أدعيها ، ولم يقاتلنى فى الأمر حتى انقضت الأمانة ، لكى لا أقهر أنه يقتصر على الكف عن الكتابة فى هذا الموضوع .

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا إن صدور البيان من الورد أمر لا محسوس عنه ، فإن شئت فاسمعه لنقتصر - تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك . . .

قلت : إن أسمعته ، ولن أسكت عن الرد عليه . . .

فى ذلك المساء زمنى مكرم عبيد (باشا) والمرحوم صبرى أبو علم (باشا) ، وسألانى : «ماذا صنعت ؟» .

قلت : كتبت ردا على البيان سينشر فى عدد الغد من جريدة «مصر» - وكانت من الصحف الصباحية ، وفيها كتبت مقالاتى كل يوم . . .

فدعوا وقف المقال .

فقلت لهما : إذ كنت لم أستطع أن أقنعكم بوقف بيانكم فلن تستطيعوا إقناعى بوقف هذا المقال . . .

ثم قلت لهما : إننى أملك أن أشره فى غير الصحيفة اليومية إذا حيل بينى وبين نشره فيها .

وكان قد جاءنى فعلا من يعرض على العروض الطوال العرض لأعضه المقال وينشره حيث يشاء . . .

ويعد مناقشة طرية ، قال مكرم باشا : إننا كنا نود لو قبلت رجاءى وعدلت عن نشر مقالك . . . أما وأنت مصر على نشره فأقبل منا ردة أخرى . . .

قلت : ما هو ؟

قالا : أن يخلو المقال من الملام الشديد .

قلت : إننى إذا ذكرت الحقائق كما حصلت فلا حاجة لى بى ملام شبة . . .

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهللواوى بك لا يقع لى فى حريق .

وحدث فى خلال تلك جفوة بينى وبين المرحوم عبد القدر حمزة منقشه - ارت بينى وبينه حين كنت أكتب فى صحيفة «الجهاد» . . .

ثم زمنى يوما بعد طول تخفية ، وهو يقول لى : لقد حذرت بدارى وأنا فى مصر الجديدة فحسدت هذه الفرصة وقلت لنفسى - فزره إن كان هو ؟ يزورنا . فما رأيك ؟

قلت : إنه فضل - سبقتنى به وعلى أن أشارك فيه . . .

وزرته فى دار البلاغ بعد يوم أو يومين ، فإذا بالهللواوى بى هناك .

فكنت أهم بانوجه . . .

بيد أن الهلباوى كعادته هجام لا يتردد ، فجنب يدي وبيداتى بالحديث

ولقد خطر لى فى تلك اللحظة أن واقعتى معه آخر ما يذكره فى تلك المرة بلة ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعنى بقولى وهو ضحك :

«كنت والله يارجل أحب أن يكتب الله لى ثواب إخراجك من تلك الجماعة

ولكنه فانتنى ، وأراد إخراجنا منها على التسعين .

وردد حديث منشعب دعائى والأساذ عبد القدر إلى قصة سهرة فى منزله . . . فاعتذرت ، وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود (باشا) رحمه الله

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت نساوره زمنا حتى صدرت صحيفة «روز اليوسف» اليومية ولبت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا إلى قضاء السهرة عنده .

ونذهبنا إليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزى ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لأن الرجل محدث ظريف لا يملأ المستمع إليه ..

ولقد كانت تحاديثه فى تلك الليلة أكثر من أن نتذكر .. إلا أننا أنكر من طرائف السهرة أن السيدة روز اليوسف كانت تخاطب السيدة قرينته وهى تظن أنها زوجة ابنه ، ليعبد الفارق بينها وبين زوجها فى السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبهها إلى خطئها بنكتة من نكاته التى تسبب الحماق !

نابهة من توابع عصره لامراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحديده التى آفقتها وباعدت بينه وبين الصبر والاستمرار .

ضه حسين

للقاء ضروري من التوقر يستخف بها المحثون ولا يحتلون بها بحق لهم أن يستخفوا ولا يحتلوا لأنها ترجع إلى أسباب خافضة فى زمانها فضلا عن الأزمنة الحديثة . وإن من أدل على قلة الحياة من كثرة البحث فيما يجرد وما لا يجوز ، لأنه دلس على كثرة القبول .

وأول ضروري التوقر التى بحق للمحدثين أن يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الأحياء وقصر التاريخ ، والتغيير على من فارقوا الحياة . فربما كان ممسر هذا العرف عند القدماء أنهم كانوا يكبرون السلف ويحصرون فيه العلم والمعرفة والأدب والخلق والشهرة . كأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياة أو بين الشهرة والحياة فى وقت واحد : فإما حياة وخمول وإما موت وشهرة ، ولا تيسر بين الأمرين فى تاريخ العلماء والأدباء وتقدير خطوط العلم والأدب .

وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الأحياء ، بل كثرت تراجم الأدباء لأنفسهم بأقلامهم وبشعرها فى أبان حياتهم ، وتلك علامة خير وصلاح لأن ما خف من جانب التوقر إنما يزيد الحياة ، لأن إساغة التاريخ للأحياء تدل على رماية لمدد واتقاهم على الطبيعة الإنسانية فى جوانب كمانيها ونقصها وإطرائها وعيبها ، ولأن العصر الذى يساغ فيه

الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذى تتوافر فيه المزاي والمخامن ، فلا يضار المرء بالتقد لأنه يعرف حدود الطبيعة الإنسانية ، وما يبقى له بعد التقد من وجوه التحبيذ والتزجيج .

ولست أنا من أعداء القديم حبا لعداوة القديم ، ولكننى أكره التحرج لكثير فى غير ضائل ، وأشايح زمنى فى هذه العادة خاصة ، فلا أرى حرجا فى الثناء على الدكتور طه حسين أو اغتيابه على ملا من الناس .. وهذا أجت دعوة «الهلل» حين دعانى إلى إجمال رأى فى الصديق العالم الأدب ، وهو عدنى أو يذرفنى يستل هذا التصيب ، وقبلت الكتابة وأنا أرجو ألا أكون مقنيا حين تتكشف اليرقتان المطرستان ، إن الكلام فى كلينا سر مكتوم عن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تنبع الغيبة وينجلي السر من أحسن حيلة واتمين .

أنا فمن أن الدكتور طه حسين سيقول إننى شاعر ، فليضمن انكسر طه حسين إننى أن أقول فيه إنه كاتب ناتج فى الأدب ، وخير ما نتج كتابه «الأيام» وكتابه «فى الصيف» وبم الكتابان الذان سرد فيهما بعض ما جرى له فى حياته ، فكان فيهما مثلا فى البساطة والثقة التى تعزف بصاحبها عن التماس تأثير لصطنع بالتعمل والتجمل والطلاء والتزويق ، فالموصوف فى هذين الكتابين صائق بسيط والنوصف كذلك على مثل هذه الحال من الصديق والبساطة ، ولكنى لم أطلع على شيء بصف به الدكتور ما لم يجز له أو بصف ما يخلقه من لشخوص والحوادث فى عالم الرواية . فما عة ذلك يا ترى ؟

أنا ضه من أن الصديق الأديب سيجد عيبا أو عيوبيا فى شعرى يغيبها عقياسه ويقدرها بمعياره ، فإذا ضحت هذا فليضمن الصديق الأديب أن علل قلة الوصف المخلوق فى كتابات القصصية لعبب فيه ، هو قلة الخيال .. فهو يصف ما يعالجه من المحسوسات ولا يتخيل ما عداه من نقائصه أو مشابهاه ، والمعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التى يفتن من يحسنه ويشعر بالكفاية التى تأتي من الثقة والاطمئنان إلى صديق الشعور ، وهو عيوض فيه ننى لمن يحسن الاستغناء .

* * *

أما طه حسين الناقد فمذا أقول فيه ؟

أقول أنه أطلع على الأدب العربي القديم اطلاعه الواسع الذي لا جدال فيه ، وأطلع على نفائس من أئمة الإغريق واللاتين الأقدمين ، وأطلع على آثار رهبان من كبار الأدياء الأبريين ولا سيما الفرنسيسيين . كل أولئك خليق أن يحب إليه الصحة والمتانة والقوة ويغض إليه الزيف والسف والركاكة ، فهو يختار ما يعنو على مقاييس العقلين لمصطنعين ، ويبس ما يستصنبه المحررين من أصحاب الإطلاع القليل أو أصحاب الذوق السقيم ، وله في ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ، واعتماد على فكر لا يتقيد إلا بدريضاء

والى هنا لا أظن أن الدكتور سيعترف لى بأقل من هذا القدر فى ميزان الكتابة المنثورة فأت راجع عى هذا التقدير

ولا أظن كذلك أنه سيعترف لى فى هذا الميزان بلا تعقيب ولا استدراك ، فلتسرع إننى إلى التعقيب والاستدراك ، ولا لوم ولا إجحاف .

فالدكتور صحيح الأصبر فى النقد ولكنه لا يوفق بين أصول وطبيعته فى كثير من الموضوعات ، وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب ، ولكنه حين يطبق المبدأ يتحرف أحياناً عن الصواب

وعلة ذلك كما أسلفنا أن القاعدة واضعة عنه لا تتفقان فالنبيمة عنده لا تصحك إلى الخيال والتصوير الخالق ، ولكنها تحتكم إلى رأى والإطلاع فيقع من هنا التباين والاختلاف

أليس الدكتور بوصى بمبدأ « لشك » أو مذهب ديكارت ؟

لى ! ولكنك حين تقرره ترى له عبارات من التوكيد واليقين فلما تراها فى عبارات الشاكين المترددين ، فلا يعجب - أكثر ما يعجب - إلا أشد الإعجاب ، أو إعجاباً لا حد له ، ولا يقع بما بين الإسراف وتوريد كلمة الإسراف ، ولا يرضى الذين يتحدث عنهم لا غضياً شديداً ، ولا يضيقون إلا أشد الضيق ولا يتكلمون إلا بصيغة المبالغة فى معظم الأشياء . ثم تنتقل من هنا إلى تشكيك يذكرك « بأن شاء الله » التى قلها حنا حين ضاع المال . فقال تساع المال إن شاء الله ..

كان الدكتور يخاف من أن يأن الشاء خوف حنا من شك الكنة التى نسيها لصاع ماله ، فأتت تسمع منه : « أزعم أنتى تحسكت وقد أزعم » وقد أتراد ..

وقد أقول وقد لا أقول ، مع أن المرء لو أقسم جاهدًا : « والله لأزعمن . وثأله لأترددن . ويأله لأقولن » لما خرج بالقسم مع الزعم . من دائرة الشكوك .

والقاعدة تستقر على أطراد إذا كانت هى والطبع على وثاق غير أنهما مرضة للاختلاف إذا وقع بينهما الخلاف ، ومن هنا ترى الدكتور يقول مرة أن أصول النقد الغربى واحدة قد وضعها اليونن قديما وقرعوا منها ، وتلقاها منهم الإنجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون .

ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة أن النقد ليست له أصول مقررة عند النقد الفرد فضلاً عن الأمم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وأن النقاد يستحسن أو يستهجن والمرجع إلى ذوقه وحده فى استحسانه واستهجانه .

ولعل هذا التباين بين القاعدة واللبس هو الذى جعل الدكتور ينكر الجسد إذا جاءه فى زى القديم ، أو هو الذى جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها فى حكم الطبيعة لأنه يجرى فى مطالبته على القياس .

وأقول للعلم : على رسلنا إلى أين ؟ ما أحسبك إلا متوقفاً الكثير من تعقيب الدكتور واستمرارك فأت تستوفى المثل وتؤمن أن ترد .

ويقول القلم : ما أحسبنى والدكتور مغلوبين على كل حال فى هذه الصنفقة ، وليس الحق فيها بمغلوب .

نعم ، وحسب الدكتور أو « رصيده » كما يقول فى لغة المصارف كثير ، فيه بقية وافرة بعد كل تعقيب واستدراك

وإذا قلت أن الدكتور آمن استحسان السخيف من الأدب فاختلفك بعد ذلك لى زيادة القية التى يقوم بها الجسد أو نقصها إنما يغير الثمن ولا يغير جودة الشئ الثمين .

ومن حساب الدكتور طه حسين أنه زجل جرئ العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدى ، يستفبد مما يقتنع بصحته ومما يعينه على التحدى والتفرد فلا يجمع من اتخاذ ، ولهذا تغير أسلوبه الكتابى بعد دراسته للأساليب الأبرية ، فأتخذ له نمطاً يوافق علمه بالعربية الفصيحة وعلمه بنقسييم المقاطع

والفواصل في الكلام الأوربي ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة في وقت واحد ، فهو يتحدث ولا يهتم أنه يكتب ، ويكتب ولا يهتم أنه يتحدث ، وأسلوبه الذي اختاره أوفق الأساليب لذلك جميعا وأولها من نوعه في اللغة العربية ، وليس فيه محاكاة لأسلوب آخر في اللغات الأوربية .

ولو كانت كتابته حديثا محضاً لاستمرت بلا تأكيد ولا تكرير ، ولو كانت تقريراً محضاً أو درساً محضاً لما اتعرفت عن أسلوب الكتابة الذي لا يتحدث به القائل ، ولو كانت تقريراً أو درساً على الطريقة الشرقية لم ظهرت فيها المقامح والفواصل الأوربية ولجرت على سياق قريب من سياق الدروس الأزهرية ، ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلا يوافقها إلا ذلك الأسلوب الذي استقل بابتداعه من حسب ولو غضب المنكرون ، وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ولعل هذا الاستداع يغفلر ما في كتابة الدكتور من إسهاب وتكرار .

ولقد أقام بأسلوبه هذا عملاً من لم يفدهم رأي وام تقههم المناقشة ، فزناً أن العربية قد تكتب صحيحة لصيغة على أسلوب غير أسلوب الحافظ ومعد الحميد وسيع الزمان وابن المنفع ، وروا كتب كثيراً يتبها كما يشاء من لا كما يشاء العلماء «فتكتب» وتذ وتفيد فاستمدوا لاستحسان الصراحة في غير فيودها القنينة ، وألغوا تعدد الأساليب وطريق التعبير إلى غير انتهاء ، وذلك وحده فتح غير .

وقد جار نصيب القوة في الدكتور طه حسين على نصيب العمق كما أشرت إلى ذلك في نقدي لكتابه «في الصيف» .

وليس بالتقيل بين أكبر الأباء العالميين من من قري لا يتعمق ، فربى لاكتب هذا المقال بعد أن فرغت من قراءة مقال للشعر الأسباني ميغيل دي أناسيو كتبه لمر به رأي الأسبان بين سائر الآراء التي نشرتها مجلة «الشهر» الفرنسية عن فكرة هوجو لمضى خمسين سنة على وفاته ، فهذا هو يقول إن عمله في أسبانيا على الأقل كان واسعاً أكثر مما هو عميق ، وأرجو ألا يحسب الدكتور أنني أعود به إلى الفارقة بين السكسون واللاتين إذا أضفت إلى هذا أن شاعر الأمة الأسبانية اللاتينية يقرر أن «يون» والشعراء الإنجليز هم الذين

وهدوا أدب تلك البلاد ، وليس نكتور هوجو ولا الشعراء الفرنسيون ، وأنه ليقرر ذلك في مجلة فرنسية تحتل بهوجو في عام ذكره !

•••

والآن وقد أبرأت ذمتي وأفضيت بمحمل الرأي مع الحيطة والمعاداة والنزيم فأني على ما أرجح كاسب وست بخاسر ، فإن اختلف تقديري لستهم محرر الهلال بإقتضاء السر وإطلاع مناجزى على ما أعدت له قبل أن يتأهب لي بسلاحه ، ولما حازة مؤمنه بس وسن محرر الهلال .

من وحس أسون

لست أسوان في هذا الشتاء ، وأنا أذكر دعب الخراعي

هبط محلاً يقصر السرى دونه ويعجز عنه الطف أن يتعشما
وان امره أضحت ماضيه حله بأسوان لم يشتر له تعزم معلما

ونكرت كلام دعب في هذه لرحلة ضامة لانا قضينا ساعة من الوقت في التقصير نتحدث عن السفر إلى الصعيد بطريق انواء ، ومسافته لا يزيد في هذا الطريق على أربع ساعات ، وقد تنقص غذا إلى ساعتين ، ومسافة السفر يسكة المديد تنقص ما بين عشية اليوم وضحي الغد ، ثم ينتهي إلى حيث يستمع للسمع إذا شاء إلى صوت يتحدث إليه من القاهرة والإسكندرية كما يتداول الحديث مع جليسه في نادي يدبر المفتاح في المذياع فيصغي إلى لندن وواشنطن ، ولا يقصر مكن في الأرض عن إبلاغ صوته إليه ، أما الأطياف فما أكثرها في نور الصور المتحركة الذهبية هذا ! إن منها لأطيانا تقتلر من هواجس ، وأطيانا تنتقل من حيرة ، ولا تعجز عن التجشم ، ولا يبدو عليها أنه تعرف لأعياء كما عرفه أطياف دعب برحبها الله

تت أطياف وهذه أطياف ، وتلك بروق وهذه بروق ، وما أكسل السرى ، والأطياف فيما مضى ، وما أسرع البروق والأطياف في هذا الزمان ، فلو عاش دعب اليوم لتمنى ساعة من تلك الأيام التي كان يتبرم بها قبل ألف عام ، ولنظرو حيه فرأى أناسا يتسابقن إلى المكان الذي قصرت عنه أطيافه ويرونه .

ويغبطون أنفسهم على الحزم الذي ساقهم إلى هذا المقام في خاتمة العطف .

وقصة دجيل في هجاء العالم كله معروفة ، أما قصته مع أسوان فخلاصتها أنه وفد مع أخيه ، عبد المطلب بن عبد الله أمير مصر يومئذ فولاه أسوان ، ثم بلغ المطلب هجاءه إياه فانفذ إليه كتاب العزل مع مولى ، وأوصاه أن ينتصره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فينزل ويصعد مكنه ، ففعل كما أوصاه !

نكرت كلام دجيل ونكرت كلام أخ له من قبل في هذا السقام ، أهو أخوه في النسب يا ترى ؟ أهو أخوه في العربية ؟ أهو أخوه في الزمن الذي عاش فيه ؟ كلا ، ولكنه أخوه في صناعة الهجاء ، ولم يكن أخاه في قديم ولا عصره ، لأنه كان من أمة الرومان ، وكان عصره في القرن الأول للبلاد ، وهو الشاعر اللاتيني جوفنال Juvenal

من توافق المصادفت أن الشاعر اللاتيني كن كالشاعر العربي لا يلم أحد من لسانه ، وأن هجاءه لنقل العصر ، بربيه قذف به من روما إلى جزيرة أسوان ، لأن هذا الغثاء الساحر كان حظيا في العاهل ديوسيان !

قدم جوفنال إلى جزيرة أسوان قائدا للحامية الرومانية في ضواض الأرض وأسيراً غنيا في حقيقته ، ولم يستصع أن يطن رومسيه قلعة الجزيرة وفيها ومن حولها ، ولم يرض عن شيء رآه في ولايته التي مرضت عليه ، فكذب وأقذع في شكواه ، وأدعى على مصر والمصريين ما لم ينف أحد سواه .

قل بن المصريين يعبدون كل حيوان ، ولا يعنون شيئا إلا عبادته حتى الله ، وما كنن المصريون يسمون الثوم ولا البصل ، ولكنهم عذبوا خصائص من وذلك فتستغمر بها في الغناء وفي الملاج ، وجاء المصريون في عصرنا هذا فاشتهروا من الثرم عصيرا سموه ماء الحياة

وقد ل إن المصريين يأكلون لحم البشر ، وقص من أخبار هذه الأمة أن أناسا من أهل كوم أمبو الذين يعبدون التمساح هجسوا على رجل من أهل دنبرة أن تمشا فأكثوه !

والتمساح ، واسمه هنا ينقل من المصرية القديمة ، حيوان مقدس كالنبتة الرومانية ، ولكنه كان مقدسا عند أناس ورجسا لمعونة عند آخرين ، أما أن

الذين يقدسونه يأكلون لحم قائله فظلمة من الغربة التي اتفق المؤرخون على تكذيبها ، وحسبوا «أصراة» من أفاين الهجاء ، جباها اسطح على اشاعر الهجاء قيل أن يجنيه بشعره على أبناء كيم أمبو الأفعين ، المظلومين !

ومن عجيب التوافق بين الشاعرين السخطين أنهما يتفقان في الخطر كما يتفقان في المزاح ، فكان جوفنال يعجب عن يسأله عن سبب هجائه كما كان الهجاء عنده أصلا من الأصول التي لا تحتاج إلى سبب ، وكان دجير ينظم القصيدة المقنعة ويسألونه عن قيلت فيه فيقول لهم إنها ستجد صاحبها لا محالة ، وينسلف فيمضى قائلا : «إن من يتقيد على عرضة أكثر ممن يرغب إلك في تشريقه ، ويعيب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفه شرف ولا كل من وصفته بالجيد والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع به ذلك ،

غبي ضعة واحدة في لشعراء الهذليين مع تباعد الجنس والزمن ، ولا نعلمهم فتعكيبهم حين يعنون بالسخط على الحقيقة ، فما تحسبهم ضاحين في كل ما يقولوه على الناس ، وما نطنهم سخطوا بغير حق في كل مقال ، فلعل إصابتهم الناس عن بض ما أصابهم منهم ، ولعلهم شقوا بالعالم كد شقى العالم بهم ، ومن دلائل هذا الشقاء ، أن شاعرا هجاء في اللاتينية وشاعرا هجاء في العربية يردان معنى واحدا شبيها في دلالة على شقاوة الرجلين ، فيقول جوفنال في الألفية الخامسة عشرة : «إن الطبيعة خلقت للإنسان الكريم قلبا زهيدا فودعت فيه ينابيع الدموع ، وفي أكرم جانب في ضوية الإنسان ،

ويقول ابن الرومي

م يخلق الدمع لا مري عبث له أدري بوعه العجز

وقد تكين الحاجة إلى الهجاء كالحاجة إلى البكاء ، في طبائع الشعراء ، فتدلل أن الشعراء الهجائين ظالمون مظلومون ، وكلهم في هذه الخلقة ساء .

وأعود إلى دجيل فاقول إن الاعداء الذي استلب به أطباقه وبروقه ليس من فعل الزمن وحده ، ولكنها من فعل الخيبة التي كانت تلاحقه حيث ذهب ، فلا هو أقدر في مصر ولا هو استقر في صعيد ، حيث كان

وقبل أن ينشط العصر الحديث بأصداؤه الأثير وأطراف الستار الأبيض نظر الشعراء إلى أسوان بفجر هذه العين التي تستعجز البرق وتتهم الصبح بالتصوير : نظروا إليها بعين الرضا فوجدوا فيها بقية الطلاب على اختلاف المقاصد والآراء ، كما قال جعفر بن ثعلب أبو الفضل كمال الدين :

أسوان في الأرض نصف دائرة الخير فيها والشر قد جمعا
تصلح للناسك تنفي إذا أقام والفساك الخليع معا
وحسبها ما أباك مدعة تروق إلا بأختها أنما

وقد حبت الحياة إلى أبنائها حتى قال فيها أحد هؤلاء الأبناء من الشعراء
ما الشبيب إلا نعمة مشكورة فاشكر عليه
ما النفس إلا أن تمير بوانت لم يبلغ إليه

وقد نزل هذين البيتين هو الأديب إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، وهو من أسرة عريقة امرغا في التبع عجب ، ومن هذه الأسرة خاله النابغة أحمد بن علي لقب برشيد ، والحسن بن علي الملقب بالمهذب ، وكلاهما شاعر مشرك في علوم يدل كلامه على علمه كمد قل رشيد

وإن يستفيد البدر إكمال نوره من الشمس إلا وهو في غيبة البعد
أو كما قال المهذب في وصف ليلة :

نوله تكن نهر المعامات به نداجوم الحوت والسرطان
ندمت لبها الفردين كأنني دون النوري وجذيمة أخوان
وترلفت همس فما أرضى سوى شهب لدجى عوضا من الخلان

وكما قل

لا ترج إذا نقص وإن أمسحت من دونه في الرقبة الشمس
كسوان أعلى كوكب موضعها وهو إذا أنصفتيه نحس

وكانا لهذا مبين بلصدا والأشداد ، ولا سيما الرشيد الذي قيل عنه أنه صنع إلى الخلافة ، وكان يقول عن نفسه أنه خلق من نار ، فقال فيه ابن قايوس :

إن قلت من نار خلقت ست ولقت كل الناس فهما
قلنا صدقت لما الذي أطلقك حتى صرت لهما

وقال فيه شاعر يمني ، وكان الخليفة قد أوفده إلى اليمن بأعيا وسماء علم المهتدين ، فحسده أنباء اليمن وقال فيه أحدهم :

بعثت لنا علم المهتمدين ولكنه علم أسود !
ولكنه كان لا خطر إلى الحساد نظرة الأقران والأنداد ، وقد في أمير رجب قحيب مناه :

نحن خاب ظني في رجلك بعدما توهمت أني قد ظفرت بمنصف
لبيت قد قندتني كل مئة ملكت بها شكري ذي كل مواف
لأنك قد حذرتني كل صاحب وأعلمتني أن ليس في الأرض من يغني

عليه رحمه الله جميع من ظفر بالإنصاف ومن قد نه إصاف الناس وفاته هو أن ينصف الناس . فقد بتي بعدهم وحى أسوان ووحى زمان كس كان وكذلك يقيان !

... في أرض الشمال ...

قصة المدينتين

كانت لبعض الإخوان الفلسطينيين بن الله أنعم عليكم بحرية الاختيار في أمر واحد ، ولعل ذلك حسن وبشرة حسنة بنعمة أخرى تملكون فيها حرية الاختيار فيب بشفلكم اليوم وتوثرونه على كل نعمة . وهو نعمة الحرية القومية^(١) . إنكم تملكون اختيار الأجواء والأهوية في كل فصل من فصول السنة ، وترجعون إلى حسابكم أنتم لا حسب الأقاليم والكواكب لتخرجوا من أحصيف وتدخلوا في الشتاء ..

فحين في مصر تنتظر ثلاثة أشهر أو أربعة شتيع الصيف وتستقبل الشتاء ، وإنكم هنا لا تتجهون إلى هذا الانتظر المريع . لأن ساعة واحدة تتقلكم من حرارة يوليو إلى برودة نوفمبر أو يناير في بعض الجهات ، وعندكم المكان الذي يتذكر فيه السمار مططهم إذا طالت السهرة كما تقول أبدا في ليالي الربيع .. وعلى مسيرة ساعة منه مكان يتذكر فيه الساترون مطلاتهم في أبرد أيام الشتاء ، وقد أوحى مكان من هذه الأمكنة نعمة الفكاهة إلى قائد من قواد الحرب وهو في ميدان القتال . فكتب منه المورد المبني إلى وزارة الدفاع البريطانية بوقية يصف به إحدى المعارك في أيام الحرب العالمية الماضية فقال : « حلفت طائراتنا هذا الصباح تحت سطح البحر الأبيض المتوسط بسمانة قدم ، ولاحقت العدو عند أريحا من هذا الارتفاع » .

وقد كان الحر هذا العام على أشده في شوارع البحر الأبيض جديدها ، فم نشعر بوطائنه الثقيلة حين تركها الشواطئ وارتعدت إلى هذا رام الله أو رام ايل الفيحاء ، ولكنني ما أنتم على قضب معطم أيامي في فلسطين بين

(١) قد إمام السائر الأستاذ الفقه هبة الريحه م صيف عام ١٩٤٥ قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ولما عه منها كتب هذه القصص التي سويت حدة فلسطين اسببة والسياسية والاجتماعية في ذلك الحين ، وقد شرفها إلى ما يجب على العرب به فسن نرى هذه الحكمة

الشواطئ حيث تفرط الحرارة والرطوبة هذا العام على خلاف في السنوات الماضية ، لأنني لمست ليها عن كتب ذلك الصراع العنيف الذي أحسنه أعجب صراع بين مدينتين متجاورتين في تاريخ المشرق أو في تاريخ العالم بأسره ، وهو الصراع بين مينة يافا ومدينة تل أبيب ..

إن المدينتين متجاورتان تقيمان في مكان واحد ، حتى ليينا الشارع أحيانا في يافا وينتهي في تل أبيب ، ولكن السياق بينهما سماقي بين أقدم ميناء على شواطئ بحر الروم وأحدث ميناء عيه .. أو لعله أحدث ميناء على جميع شواطئ البحار .

كانت « يافا » علما مشهورا في التاريخ القديم قبل ألف وثلاثين قرنا من الزمن .. وكانت « الإسكندرية » جنبا في الغيب يوم كان سوفكليس ويوربيدس وغيرهما من شعراء اليونان يتعجبون بجمال « يافا » ويتسجون خيوط القصيد حول عرونها الفتنة « اندروميدا » ترى ربطها الأرباب إلى صخرة الشاطئ عقابا لب على رفض البناء بخطاياهم السماويين .. ثم هارت حتى نجا بها القدر من وحش البحر وهو راصد لب يقاتلها .. فأنسبمت بعد ذلك كوكبا من كواكب السماء .

وإنه نحسب أنه مينة في المشرق الأدنى عرض لها من تعاقب السمود والتحوس ما عرض لمينة « يافا » في جميع الدول وعلى جميع العهود ..

فعممرت وخربت مرات على أيدي البشر ، وعلى أيدي الزلازل والجوائح الطبيعية ، وصممت للعراك بين الدول التي تداومتها من عهد تحريمس وسنحاريب إلى عهد العرب والصليبيين ، إلى هذا العهد الذي لا يحسب في تاريخها من العهود الرخية الميمونة ، وإن كنا لنرجو ألا يكون من أقسى العهود ، لأننا قد صممت في تجاربها الكثيرة لما هو أقسى وأصرم من تجارب العهد الذي في فيه الآن .

كانت « يافا » تحول في معيشتها على الزراعة وعلى الصناعة وعلى الميناء وما يدور حوله من حركة سفن وحركة البيع والشراء ..

فتمسبت في جميع هذه الموارد ، ولا تزال مع هذا قائمة على قدميها تناضل نضالها المجيد في سبيل النقاء .

فالمواضع والشعرات التي عرفت باسمها من قديم الزمن لا تلقى اليوم في الأسواق القليلة ذات التحريب الذي تعودت أن تلقاه إلى زمن غير بعيد

والصناعة - وأفعها صناعة الجلود وصناعة الصابون - قد منيت بالمزاحمين الأقوياء في تل أبيب وما وراء تل أبيب من بلدان الشرق الأدنى .

أما الميناء فقد تحول عنه أكثر السفن إلى ميناء حيفا الذي تنهى إليه أنابيب البترول من آبار العراق ، أو إلى ميناء تل أبيب الذي يده مجلسها البلدي ومد إلى جانبه ذلك « الكرنيش » الطويل محاكيا به كرنيش الإسكندرية في كل شيء . حتى في « الأذرة الشمامية » التي تشوى أو تسلق على زواياها وتعمفاته ، ويقبل عليها المنتزهون والمنتزهات إلى أواخر اللي !

ففي اليوم تتماسك على مضض ، أو على صبر أجد ، وحسد من مدينة تلجج في موارده جميعا ولا تزال نهضة على قدميها في هذه المناظر المستتية .

إلى جانب هذه « الشبيخة » الصبور فتاة ساكرة لغوية تتيه عينا بدلال الفتنة وجمال الشباب ..

تلك مدينة تل أبيب ..

صبية لم تتجاوز الثانية والعشرين ، ما نظرت في مؤسسا الصباح في أعقاب الحرب الماضية ، ولم تتجاوز السبعين وتلاثين إذا غرنا إلى تشاتها في عهد الدولة العثمانية أيام كانت هذه الدولة تحب أن تستعين بالذعاية الإسرائيلية في مقاومة روسيا وبريلات القان ، ولم تكن نشأتها يومئذ مدينة ترخر بالسكان وتحتوى من الواقدين عشرات الآلاف ، ولكنها كانت روصة كنزفة وقضاء ساعات الأصيل في أيام صيف وزبيع ، وهذا سمين « تل الربيع » حين غرسوها في أول عهدهم بالطريق

كذلك نشأت منذ ثيف وتلاثين سنة على غير حذر من مواقرها السريعة لا من جنب الراعي ولا من جانب الرعية .

أما اليوم فليست هي تلك الروضة البعيدة التي يتسم سبها أهل « يافا » نقعات الغروب من نسعات الربيع

بالة من صراع عجيب بين شبيخة لأمس وفتاة اليوم ..

إنه لصراع ظالم إذا ترك فيه الثدار مفردين عن التحدي الذي فراه ، لأن يافا تقف وحدها هناك ولا تقف « تل أبيب » وحدها في مبدئها . بل تقف

مناك من ورائها آمة موزعة بين جميع أنحاء العالم تعينها بأحدث ما اخترعه العلم من الوسائل ، وأخفى ما يعقه المال من الأساليب ، وأقوى ما تسيلر عليه السياسة من الخدع والأحاييل ..

واليافيون لا يغفلون عن الخطر الذي يستهدفون له ولا يجهلون أن الأساليب القديمة لن تحس وحدها في اتقاء هذه المنافسة التي تعتز بأحدث ما عرفه الناس من ضروب التعبير والاستدلال

فقد علمت من مدير المجلس بلدى بمدينة يافا أنهم يعدون العدة لنشاء الكرنيش الذي يحارح كرنش تل حبيب ، وتنظيم الطرقات حتى لا تزال بمساحة إلى التنظيم

وعلمت أنهم يرفقون « شركة كبيرة » بناء فسق فخم وناد حديث يستغنى بهما من يريد الاستغناء عن ارتداد خندق والأندية في تل أبيب .

وهذا كله حسن واجب ، بل هذا كله قلب من كثير ينبغي الشروع في إنجازه قبل أن يطول التعمير فيه

وكن الحقيقة هي ينبغي أن شكر في هذا الحسد قبل كل حقيقة أخرى ، هي أن مدينة « يافا » من تقوى على هذا الصراع العنيف على أفراد ، فلا بد لها من عون سريع كنعون الآي ترجع إليه غريبتها ليحجرى الأمر بينهما على سنة الإنصاف ، ويرجى منه اتقاء البرزعة في هذا النضال .

السيونية والجمعة العربية

إذا عبرت « تل أبيب » رأيت في أكثر أوقات النهار زحاما بملأ جوانب الطرق من اليمين واليسار ، وخيل إلي أن اقوام منصرفون من محفل أو مقبلين على احتشاع في منصف الطريق

لأن حركة المرور لا تتقاع في « تل أبيب » من ساعات الصباح اليكر إلى ما بعد العشاء ..

ولكنك مع هذا تلاحظ هذا الزحام المتلاحق فتعجب لأنك لا ترى فيه أحدا يلوى على أحد ولا تكاد تلمح إنسانا يرمي إلى إنسان آخر بالنحية ، إلا في الأرض القاترة - يى يرجع إلى محض الخوف ..

وأعجب من ذلك أنك تنظر إلى القوم فلا ترى على وجوههم ما يدل على السعادة : سعادة الظفر بالأمنية الروحية والمطلب القرائي القديم .. فلا تملك أن تسأل نفسك : ما هذا ؟ أهؤلاء قوم يمشون إلى أرض أميعاء بعد التفرق في جوارب الأرض مئات السنين ؟

ويتخيل المسلمين في عرفات ، أو النصارى في معهد المسيحية المقدسة فلا ترى على وجوه القوم في « تل أبيب » شيئاً من « لابل » تلك الأخوة الروحانيات التي تقبض على وجوه الحجاج من جميع الأديان ولا يقع في نفوسهم إلا أن الحوم مسوقون إلى هذه الحجة المزعومة ، وأن الذي وجده هناك غير الذي آمنوا به وصدّقوه

وما في الأمر من غرابة إذا رجعت إلى « واقع » أو رجعت من المعقول ..

إذا كنت حجة اليهود إلى أرض الميعاد غير الحجة إلى عرفت أو إلى كنيسة القيامة أو ما شابهها من الديانة المسيحية

فإن المسلمين والمسيحيين يقضون مذهب الحج ويعودون إلى أوطانهم التي نشأوا فيها وألفوا معالمها ..

أما اليهودي حين يهجر بلاده إلى الوطن القومي بفلسطين ، فإنه يترك وطنه الذي نشأ فيه وألف معالمه ليستتبث نفسه في وطن جديد ولا يفعل ذلك إلا بدافع قوي من الأمل في تحسين الأحوال أو بدافع قوي من حماسة الروحية فليس من شك في أن اليهودي الناجح من وطنه - الأوربي أو الأمريكي - لن يهجر تلك الوطن ليستكشف الحياة زاوياً أو ياتبع في ناحية يجلبها من أرض فلسطين ، ولن يبيع نجاحه الممقق بأمل بعيد يعنيه به الزعماء الصهيونيون ، بالغا - يبلغ به الإيمان بوعود صهيون

ولنتذكر أن اليهودي قد آتف العمل في « تجارة » و« صنفات » المادية ، ولم يأنف العمل في الزراعة وتربية المواجن وما إليه من أعمال انطلاقة ورعى الحيوان .. فهو لا يقدم على تبديل مألوفاته إلا إذا اتفق الشئف واتسبب والأمل في لمجبول على إقناعه بالهجرة وإمداده « مزايا » النفسية التي تساعد على هذا التبديل .. وقلما تعم هذه البواعث إلى « من ضويل

والذي نفتلده أن « الحققة الصهيونية » هي قلة مصطنعة عارضة تخلقها تلك العوامل الموقوتة التي أشرنا إليها ، وينفخ فيها عاملان آخران موقوتان ، وهما دعاية الزعماء واضطهاد طوائف الإسرائيلية في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية .. ولولا هذان العاملان لبقيت الصهيونية حيث كنت أملاً من آمال الخيال.

ظهرت في الأيام الأخيرة مذكرات « اللورد » هيربرت صمويل الذي كان أول مندوب سام على فلسطين من قبل الدولة البريطانية .

وهو سياسي فيلسوف ينتمى إلى أسرة إسرائيلية كبيرة في البلاد الإنجليزية . ويتكلم بكثير من الصراحة عن موقف زعماء اليهود من الدعوة الصهيونية عند ظهورها واشتدادها في أعقاب الحرب الماضية ، ومن هذه المذكرات يتبين لنا أن ثلاثة من أعضاء اليب - الإنجليز الذين سمعرتهم الحكومة البريطانية في إعلان الوطن القومي بفلسطين كانوا مدريين بتطلعاته منشئمين من عقباها ، وعلى رأسهم « ابوين » متناجوا - الذي كان وزيراً ثم في وزارة لويد جورج الائتلافية .

فحماسة الشعوب الإسرائيلية لوطن القومي هي حماسة مصطنعة مبالغ فيها بنجر مرء ، وأقل ما يقال فيها أنه ليست « حماسة » اجتماعية التي تقاوم جميع المصائب وتذلل جميع العقبات

ولما قامت الحركة كلها على « دعاية » الزعماء ، وصادفت هذه الدعاية ما صادفته من الجناح لأخرين لا ماض منيها للمشاركة على نشاط الحركة واستمرارها ..

مذان الأمران هما - أولاً - سهولة الحصول على الوطن العربي القومي في أعقاب الحرب الماضية . و« ثانياً » صعوبة إقام في كثير من الأقطار الأوربية على اليهود ، لما كانوا يتقون هناك من ضريب الحجر الاضطهاد ..

فإذا تغير الموقف بعد الحرب العالمية الأخيرة ، فصعب المقام في الوطن القومي وسهل المقام في الأقطار الأوربية بعد زوال الاضطهاد منها وفتح أبوابها لمشروعات التعمير وصفقات التجارة ولما ل ، فقد تنكشف الحركة المصطنعة من حقيقتها لما كانت في « من تضعف من أن تقوى » على الشات إلى زمن طويل .

نعم إن الصهيونية تعتمد الآن - بعد القيام في فلسطين زهاء ربع قرن - على عاملين آخرين غير تلك العوامل التي بدأت الحركة من مرقدها في دفعها الأولى .. تعتمد الآن على الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل أبيب وما يحيط بها من استعمرات الإسرائيلية.

وتعتمد كذلك على الصداقات الحديثة التي تأسست في الحرب الأخيرة على تخفيض ، وانصلت معاملاتها بأقطار الشرق الأدنى وما جعلها من الأقمار .. لكن الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل أبيب خليط من الأوطان .. مختلفة لا يتفرح بعضها ببعض في زمن قريب .

أما صناعات الحديثة فلها مزاحم أقوى من الصناعات الأوروبية المتعطشة إلى تسويق ولها مزاحم أقوى من الصناعات الوطنية التي تعتمد على شعور البصر ، الضرورات الاقتصادية ، ولها بعد هذا وذلك كبح آخر من حراسة الأسرار الشرقية حيثما تنهت إلى أخطار الاحتكار . وبست أزمات تبطأ فيجب على انتهاء الحرب بالأزمات التي يسهل علاجها في هذه الأوقات

كنت أقول لإخواننا الفلسطينيين كلما سألوني عن رأي في قضية بلادهم وقضية لبلاد العربية : إنني متفقد قوى التنازل عظيم الرجاء في مصر الجبل الشرقية على الإجمال ..

ويكثر كنت أشفع ذلك دائما بتفسير التفاؤل الذي أعنيه وأعتقد فيه عظيم قرب

فالتفصيل المحمود هو التفاؤل الذي يفنوك بين العمل ممكن وأنه مع إمكانه متين .. وعسى أمنت بذلك فعليك أن تعمل وأن تحقق الغدوة التي ترجوها وإن كلف العمل ثقل الجهود ..

فلا فائدة من تعظيم خطر الصهيونية والارتفاع به إلى ما يراء طاقة الجهود البشرية ..

ولكن ؟ فائدة كذلك من تبوين هذا الخطر إذا لم يقترون تبوينه بالشروع في تخفيضه جيد .

والجامعة العربية خلية أن تنتهز فرصة العمل في هذه الآونة لأنها فرصة سبعة بعد الحرب الأخيرة وفي مفتتح الحياة الجديدة التي تستعد لها الأقطار الأوربية ، ممن كانت على صلة بالمسألة الصهيونية أو بالاضطهاد اليهودي ، وقد تفتح أبوابها غدا لمن يؤثرون المودة إليها من أرض الميعاد إذا عز عليهم الوقت بما وعدهم به النعاة ولزعماء ..

ولا غنى لبلاد العربية على أية حال - لخدمة نفسها لا لخدمة القضية الفلسطينية وكفى - من تنظيم الصناعات الحديثة ، وتنظيم الأسواق في وجه المعاملات الطارئة عليها ، ومن منع الاحتكار في أيدي فريق من الناس كما كان .

وإذا استقامت البلاد العربية على هذا الطريق فقد استقامت على الطريق السوي الذي يفضي بها إلى النجاح في جميع قضاياها ، ومنها قضية فلسطين .

الحالة الاجتماعية

المجتمع الفلسطيني قريب من المجتمع المصري في تكوينه وفي معظم آدابه وعاداته . ولا يختلفان إلا في بعض التقاليد التي ترجع أولا إلى امتزاج شعائر الأسرة المصرية بشعائر الحداد الموروث من أقدم نصوص ، وترجع ثانيا إلى الزراعة المصرية والبادية الفلسطينية .. تنحصر تنقسم إلى عاصمة وقرية ، وفلسطين تنقسم إلى حاضرة وبادية ، ولئن كانت بديتها أخصب من بادية الصحراء وأقرب إلى العمران ..

ولا يزال سلطان لبادية ظاهرا في تقاليد الأسرة الفلسطينية سواء منها الإسلامية أو المسيحية ..

والبادية كما لا يخفى تشدد في المحافظة الاجتماعية وتحب البقاء على القديم ، وأظهر ما تبدو فيه هذه المحافظة الاجتماعية في حجاب المرأة ونظام الحياة الزوجية .. فإن بنات الأسر في حوض فلسطين متعلمات على نصب وافر من الثقافة العصرية ، ولا يندر بينهن من تحسن لغة أو لغتين من اللغات الحديثة . ولكن قليلات الظهور في الحياة العامة ، وقلما تجسر السيدات منهن أو الفتاة على السفر في الطريق إلا أن تكون من أسرة قوية السلطان مهيبة الجانب تحمها سلطانها وهيبتها أن تتعرض للآتي والمهانة من بعض من ينكرون السفر ، وهم كثيرون ..

فإذا سقرت السيدة أو الفتاة من البيوت المتوسطة التي لا تخشى شوكتها فقد يصيبها ما يسوؤها في طريقها ، ولا يتقدم أحد لحمايتها ، لأنها تستحق ما تلقاه في رأى المسألة من طبقات العامة ومن يحسبون حسابها .

وتحزن لا تتمنى للفلسطين ذلك الشطط الذي تمادى فيه بعض السفارات في بعض الأقطار الشرقية ، ولكننا نعتقد أن تيسير الحجاب والتخفيف من قيوده الثقلة نافعان للمجتمع الفلسطيني في مرحلته الحاضرة ، ولعلهما نافعان له جنة النفع في مكافحة مثل أبيب ومغرياتها لأن الفتى الذي يصحب خطيبته أو زوجته في رياسته اليمية يشعر بالأمانة الزوجية مائلة أمام عتية في بيته ولى طريقه ، وتغيب هذه الصحبة المشروعة عن تلك الصحبة الموبقة التي تذهب عن كرامته وماله وقضته ملاده .

ونسلطان اليازية الخوى أثر في السياسة الفلسطينية ، لأن الزعماء هناك هم - بضمعة تكوين المجتمع - رؤساء العشائر وعمداء البيوت العريقة في الحياضر ، ونهم من نفوذ في السياسة بمقدار ما لهم من الأشياء والاتباع والاقرباء وأنصار الصعبيات ، وهم الذين نهضوا بأعباء الحركة في أشغالها ، وتعرضوا لمخاطر الميت والإيذاء من أهلها .

وقد أضيف إلى هذا العامل الموروث عامل مكتسب من نفوذ الدين أو مفرد الرئاسة الرسمية ، بل أضيف إليه ما تقتضيه أطوار العصر من رعاية البرامج والمبادئ التي تتعلق بها آمال الشعوب في الزمن الحديث ..

ولا تخلو فلسطين من ذلك الخلق الذي بخامر نفوس الشباب ويعجلهم على المسير والانتظار ، وسلولة الأحوال التي درجت عليها السياسة في أيدي الرؤساء والعمداء .

وقد سألني بعضهم سؤالا مريحا في حفل حاشد عن الزعامة السياسية والبرامج الوثنية فقال موجه إلى الخطب : ألا ترى أن نفوذ الشباب في الحركة القومية نون الرؤساء والعمداء ؟

فلمحت على وجوه الحاضرين أن صاحب السؤال ينوب في الإجابة عن الأكثرين منهم ، وأنه يعبر عن خاطر يساورهم وينور عليه النقاش الذي لم يسبق بينهم ، فقلت : إن الشباب يستطيع أن يسمع صوته فلا يقوى الزعماء على

إغفائه ، ولا يزال للشباب عمل كثير يضطلع به في خدمة وطنه قبل أن يتعمس لمهمة الزعامة الشعبية ، ولكنه إذا رزق الالعية النادرة التي ترتحه لعبه قومه فإن هذه الهبة النظرية لن تخفى على أحد ، ولن تحول الحواثر بونه وعن القيادة التي يستحقها ، إذ لا حاجة به يومئذ إلى التيسل والرحاء في طلب الاعتراف له بالكفاءة الممتازة والرعاية لموهوبة ، لأن الكفاءة امتنازة تفرض مكانتها من يعرفها ومن ينكره على السواء .

...

والفلسطيني وسط بين المصري وبين السوري والثاني في تقدمه من الهجرة وتعمر بالمدارات الاقتصادية في بلاده أو في البلاد الأجنبية فهو لا يهاجر كما يهاجر السوريون واللبنانيون .

وهو آخر على إنفاق المال من أبناء الأمم التي تعودت لحسابه على انحراف والمصارف ، وانتظمت على الموازنة بين الأرباح والخسائر ، منذ عهد بعيد .

ونزول إلى زمن قديم يعول على تربية الماشية والزراعة ، ويعول معها أحباء على التجربة النيرة التي تجرى في مواسمها عن سعة الزراعة ووفرة الطبيعة ..

وفي ضيق استقلال الدوى الذي تشغل عليه رياضة الحياة المدنية وتفتت بما فيها من الموانع والقيود .

وقد قل لي رجل من أذكبه السوريين ونوى الغيرة منهم عن القضية الفلسطينية : إن إخواننا هنا يتعبون كثيرا مع جماعة الصهيونية ، فلها تحاربهم سلاح لم يعميروه .

قلت وقد مورنا نحن من الخش على شاطئ البحر في جوار ، يا قافا ، بملكه رجل يهودي يهزق في الطعام لمن يستريحون إليه في أثناء السريق . و من يقصده في طلب الزهوا والاستجمام وقضاء فترة من الوقت في ضوحي الهدوء . قال المشقى الأريب : لو نزل رجل من بلدنا هنا يوما واحدا وتناول هنا وجبة واحدة لما فارق المكان قبل أن يعيد حسبته في ذك ويقدر نفقات المكان وتنفقت طعام ومكسب اليوم الواحد ثم مكسب الأيام

فإذا أعجبه الحال وراقه المكسب ، لما هي إلا أيام معدودات حتى يرى اليهودى خصا قائما إلى جانب خصه يبيع الطعام الذى يبيعه ويبيى المائدة التى يهيؤها ، وينزل عن بعض ربحه فى أيامه الأولى ليحول قصاد القمص القديم إلى القمص الجديد ..

قال صاحبى النمشفى : فليت الصهيونية تبلى فى هذه الديار بمن يتنافسونها هذه المنافسة وينازلونها بمثل هذا السلاح ..

قلت : إن المدرس عبر عسير على من يرى الصراع من حوله يعلم عاقبة التعاون فيه ..

وأحسب أن المصريين والفلسطينيين فى مجال الهجرة فرس زمان . أو فارسان متفلويان

نحن فلسطين مهاجرون فى مصر ، ومن مصر مهاجرون فى فلسطين ، وقد يعيش الفلسطينى فى مصر زمنا ثم يعود إلى بلاده ، وقد نرى بينهم من يلقب بالأنشاصى والبليسى والطنطى كمن نرى بيننا من يلقب بالقرى والرملى والعكاوى . وكانهم يتسابقون أو يتلاحقون فى حلبة واحدة لا يخرجون منها ولا يسرعون إلى تبديل معالها ، سواء فى امتداد الاجتماعية أو معيشة البوت .. حتى «الملوخية» وهى صنف مصرى لا يتنها الطهارة فى غير وادى النيل - قد أكلناها فى بيت أبى خضرة كما تؤكل على أفقر موائدنا التى تمتز بتقديمها فى بواكيرها أو معقباتها .. لأن أبقاء هذا البيت على تراثهم القديم منذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه ..

بين مصر وفلسطين جوار هو أقرب من حوار لكان لأنه كذلك جور التاريخ وجوار السكان

مصر والقضية العربية

سألتى فتان ضهيونى لماذا بين المصريين بمشاكل العرب ؟

فاستغرقت سؤاله ، ولم أكنه أنه سزال غريب ، فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه ؟

- ١٧٦ -

قلت : وجه الغرابة فيه أنك تتنظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومى فى فلسطين وتمسبه من الأمور الطبيعية التى لا تحتل السؤال والاستسار . ونكت نشعر من العرب التجارئين أن يهتم بعضهم ببعض . وهم مضطرون إلى هذا الاهتمام . نعم مضطرون إليه ولو لم ينظروا إلى الحمسة من الوحدة التصورية أو العلاقة التاريخية الروحية ، لأن استقرار السلاء فى الشرق الأدنى يعنيهم جميعا ويوجب عليهم أن يتداركوا أخطاره من وقوع شىء من ناحية المعاونة ، ولا استقرار لسلام فى الشرق الأدنى مع تهديد أمة كاملة من استقلالها ومصالحها ومعلم وحدتها .

فلاح عليه أنه كان يتوقع جوابا غير هذا الجواب

وكن خبره أصح منه من السؤال - وهو كتب فى صحيفة فلسطين بوسن الإنجليزية يرأس بعض شركات البترولية - فسألتى : هل تريد مصر أن تسير على سبيل الدولة العربية ؟

قلت : كلا .. وحاشا السيرة طيبة هبة بغير سعى منها ، لأن الأساس الذى قامت عليه جامعة العربية هو استقلال كل أمة من أمم العرب التى تشتد فيها ، ومن المجهود المستطاع لتمكين الأمم الخاضعة للحكم الأجنبى من بلوغ استقلالها ، ويسمى لمصر مصلحة فى التوسع أو زيادة اتبعات والأعضاء السبسمية والعسكرية والاقتصادية ، ولكنها ترى المصلحة كل المصلحة فى التعاون بينها وبين الأمم التى تقاربها فى الموقع الجغرافى والترات التاريخى والوحدة الساسية ..

إن شعوزة سياسية وحدها هى التى تسول لبعض الأدمياء أن يتحموا لأنفسهم صفة الزعامة على جميع الأمم العربية ، كما يتحلون لأنفسهم صفة الزعامة المطلقة على الأمة المصرية .

وانه يخدم أوث الأدمياء أنفسهم بتلك الشعوزة البغيضة إلى كل من يصب السرى وكل من يضمن فى الشرق بمبادئ الديمقراطية لأنها تضير القضية المصرية كما تعبر القضية العربية ، ولا تنهى إلى أمة مريحة لغير الأدمياء فيما يتبعونه من الأوهام والأحلام ..

- ١٧٧ -

إنهم يتوهمون أنهم يرواحون في سوق المنصب على قدر البشاعة التي يملئون منها ويدخلون في روع الأجانب أنهم قاديت على تسليمها فهم يبيدون ويشترقون في قضية مصر وقضية عرب عن السواء ، ويخرجون المسألة من حدود التعاون لمحمود إلى حدود جماعة حنكرة وما وراءها من الدعاوى والشبهات .

ونحمد الله على أن أوقائع قد أفهمت من يفهم ومن لا يفهم أن مصر تحفض هذا النوع من لشعوزة وبشاعة وتأناء ، وأنها تدف من - الدعة الذي يدقن الطبول وينفخون الأبواق حول أنفسهم ، ولا يهين سلبا من اسطالاب عن صفات الشريخ والتهيج ، لأنهم لا يعيشون غير أحسن المزاج في سوق المساومات

ليس في سياسة مصر اليوم - بحمد الله من نصرت على مثل ذلك المزاج ، فهم لا يعملون لمصر ولا لغير مصر ليحتكروا - بعمه - عليه - على هذا الشعب أو ذلك ، ولكنهم يعملون لأنهم يعرفون الواحد ولا يتناززون به حدوده ، ويخدمون القضية العربية خدمة الإخوان أو خزان ولا يخدمونها - ولا يستطيعون أن يخدموها - ومن طريق الضجة مدوية من يعلن بها المعتنون عن تسليم البضاعة في أسواق المطامع الأحدث

هذا التعاون على أساس الاستقلال الموفور لكل أمة من الأمم العربية هو قوام الجامعة العربية ، ولا قوام لها بغيره ..

وينبغي أن يفهم الاستقلال هنا على أوسع معناه أو على جميع معناه : فهو يشمل الاستقلال الأدبي كما يشمل الاستقلال في عرف أخلاقيات الدولة .

فلا اقتديت فيه على حق أمة من الأمم في الانسداد عن نفسه والتوقف على جهودها ، وليس من شأنه أن يحمل أحدا على توكل ولا أن يجعل أحدا على تجاوز أحواله .

لكل أمة عربية أن تنتظر الصعوبة من أخواتها وعازلاتها

ذلك حق الأخ على أخيه والجار على حاره ..

وعلى كل عربية أن تعمل بما في طاقتها لتحقيق مطالبها ..

ذلك واجب الإنسان على نفسه بل واجبه لنفسه

وقوام الأمر بين الجميع هو استقلال في الرأي والعمل وتعاون بين إخوان مستقائين في الآراء والأعمال ..

فلا سيطرة هناك ولا قيادة ، ولا إغناء من واجب ولا تجاوز في الحقوق ..

ومن دواعي الغبطة أنني رأيت - دليل الشعور بهذه التهمة العظيمة - على هذا الأساس القويم - في كل من لقيت من ذوي الرأي والمكانة بين خاصة وأبناء الأمم العربية .

فهم - مع إيمانهم بجوهر هذا التعاون الأخوي في تخفيف الأعباء ومضاعفة القدرة على النجاح - يعتقدون أنه قد خاعف شعورهم بالتبعة وتقديرهم للواجب ورعايتهم للحقوق ، لأن عمل أمة تسأل عنه أمة ، وكلمة فريق من المجاهدين قد تحسب على كل فريق

قلت للكاتب الصهيوني : إن مصر لا تريد السيطرة على الأمم العربية ولو جاعتها السيطرة بغير سمي منها

وأحسبني أردد كل رأي رشيد الأقطار عربية حين أقول إن الضجة الخاوية التي سرت لبعض الظنون أن تهجس قيب هذه الهاجسة قد ذهبت إلى غير رجعة ، وأن العمل الوقور هو العمل الوحيد الذي يليق بخدام هذه القضية الكبرى ، وأنه لا يستقيم على أساس كما يستقيم على أساس التعاون الأخوي في حدود الاستقلال المرعى ، ومريحا ينال الأمم العربية في الأمة المصرية ولوطالباتها بالحصة الكبرى من المعونة وتوجهت إليها بالجانب الأكبر من الرجاء .. فحيذا مضاعفة الواجب كلما تضاعفت الطاقة ، وحيذا أن تزداد القدرة ويردك معها التوفيق إلى تحقيق الآمال .

... بين الفلسفة ...

الله

في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة «وحي» قبل كل شيء. فإلى إنسان له «وحي» يقضي بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية، ولا يخفى من وحي يقيني بالوجود الأعظم وحقيقة الكونية، لأنه متصل بهذا الوجود. بل نعم عليه والوحي والعقل لا يتناقضان، وإن كان الوحي أعم من العقل في إدراكه لأن مسنده من كان الإنسان كله، ومن ظاهره بهضته، وبديعته، وما لا يعي ولكنه يقوم به قياما جملا.

ونحن نخطئ فهم العقل نفسه حين نفهمه أنه مقصور على سكة التحليل والتحيز والتفتيت، وأنه لا يعمل عمله الشامل لا على صفة التسيب المنطقي وترك الأجزاء من المقدمات والنتائج وإثبات البراهين على الأمور المعروفة. فالعقل موجود بغير تجزئه وتقسيم... وهو في وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا، ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين. وهو في وجوده هذا يقول: «نعم» ويقول «لا» يحق أن يؤولهما مجملتين في المسائل العجيلة على الخصوص.

وقد يخطئ القول في بعض الأشياء ولا يضمن الإصابة في كل شيء، ولكن الخطأ يلقى الصعقة الكاملة ولا ينتهي الوجود، فقد يكن العقل المجمل موجودا عاملا وهو غير منصوب عن الخطأ الشر أو الظل، ولم قدح ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه لتفكير، لأن التقسيم المنعني يخطئ أيضا كما يخطئ العقل المحمل في أحكامه المجملة، ولا يقل من أجل ذلك أن التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير.

فإذا عالت البهادة العقبة: «نعم... هناك إله» فهذا القول له قيمة في النحر الإنساني لا تتل عن قيمة المنطق ولقيس، لأنه قيمة الفكر الحر الذي لا يرجع

المنطق والقياس إلى مصدر غير مضطرب أو مستأقوى من سنده، وقد كان العقل المجمل أبدا أقرب إلى الإيمان وأقرب إلى قوة «نعم» في البحث عن الله، ولم يستطع التقسيم المنطقي أن يقول «لا» قاطعة سعة في هذا الموضوع.

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لإثبات وجود الله بالحجة والدليل، وتحسب أننا نضعها في موضعها حين نقرر في شأنها هذه الحقيقة التي يقل فيها التشكك والخلاف وهي أن البراهين جميعا لا تغني عن الوعي الكوني، وأن الإحاطة بالحقيقة الأخيرة لا ينحصر في عقل إنسان ولا في دليل يتمخض عنه عقل الإنسان. وإنما لترجيح هذا بين نوعين من الأدلة والبراهين، وهنا نوع الأدلة والبراهين التي يعتمد عليها المؤمنين، ونوع الأدلة والبراهين التي يعتمد عليها المنكرين، فإذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل عما وادى القيس ورسالته التي يستطيعها في هذا المجال، وهي في الواقع أوسع وأصلح للاقتناع بالفكر - فضلا عن الاقتناع بالبداهة - لا يبدو من كل ميزنة منصفة بين الكلتين.

ولا يخفى أن قاعدة الإثبات والنفي في مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل، فليس للعقل المنطقي خصوصية في الإثبات ولا خصوصية في الإنكار... وليس على أحد عبء الدليل كما ولا على أحد عبء الإنكار كله في البحث عن حقيقة الوجود.

ونحن لا نحصى هنا جميع البراهين التي استدل بها الفلاسفة على وجود الله فإنها كثيرة بشابه بعضها بعضا في القواعد وإن اختلفت قليلا في التفصيلات والمروء. ولكننا نكتفي من هذه، ونجمعها وأقربها إلى السور والقبول وهي: برهان الخلق، وبرهان الغاية، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء، وبرهان الأخلاق أو أروع الضمير.

محمد الإنسان

من الأقوال المتواترة بين كثير من مؤرخي المسيحية، أنها انتشرت على يد بولس الرسول، ولو لم يعرف مسيحيون قبل ذلك بهذا الاسم لعرفوا في الغرب باسم «البولاسيين» نسبة إلى «بولس» الذي كان يسمى قبل ذلك باسم شاول.

ويحمل الاستطردان بعض مؤرخي الغرب إلى التمسك الشبه من انتشار المسيحية وانتشار الإسلام في خصلة كهذه بين محمد عليه السلام وخليفة من أكبر أصحابه وهو الفاروق عمر بن الخطاب ، ويريدهم ولعا بهذا التشبيه أن الفاروق كان ، أيام جاهليته ، أشد أبناء قريش إيذاء للمسلمين ، وكذلك كان بولس قبل إيمانه برسالة السيد المسيح ، فإنه آمن بها وهو يتجرّد لاضطهاد اتباعها في حملة من حملاته على الشام .

وده متشبهة مغربة بالمقارنة في أكثر ظواهرها وأشكالها ولكنها تنقضى عند حقيقة واحدة غفل عنها أصحاب المقارنات بين الأديان ، وبت هي الفرق بين أثر الدعوة وأثر الداعي بالنسبة إلى الرجلين ، فإن بولس ارسل له يلق السب لمسيح ولم يفسده على التحقيق ، ولكن الفاروق كان هو نفسه عرسا من غرس محمد عليه السلام ، وكن في كل ما عمله بعد إسلامه طالبا محتجدا على به بعد محبوب .

واحتماح لرجال الأعداء من قبيل ابن الخطيب هو مقياس العظمة الإنسانية في الإسلام صلوات الله عليه ، فلم يحدث قط في تواريخ الدعوات الدينية كندية كانت أو غير كندية ، أن اجتمع حول داع من دعائهم ربط من أفاض الرجل يدين لشخص ذلك الداعي بالإجلال والمحبة ومعترفين له بالتفوق والرجحان واضعين مقتبطين كما اجتمع الفاروق وأقرانه حول جبي الإسلام ، وقد ظل الفاروق طوال حياته يتحدث بعذوية قول النبي له «يا أخى مرة ونداء له بكينته» «يى حفص» مرة أخرى ، وظل غيره من الصحابة يحتفظون بكل أثر «شخصي» ففروا به في أيام صحبتهم له سنوات بعد سنوات ..

كان للأتباء والدعاة أصحاب كثيرون أو قليلون ، ولكنهم لم ينكروا بين عداد العامين بين أبطال التاريخ ، ولم يجتمع قط في صحة طويلة لاسماء أمثال هؤلاء الأصحاب الذين حقرا بنى الإسلام ، ولا نعيمهم في هذا المقام ولكننا نذكر منهم أيا بكر وعثمان وعيا وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ومعاوية بن أبى سفيان وأبا عبيدة بن الجراح والمقداد بن عمرو ، وغيرهم من سابقين ومتلاحقين في هذا الممران ، كرمهم أمة في رجاء أو قدس على

جيش ، أو مؤسس لدولة أو سيد بين طية اقوم يؤتم به ويهاب ، وكلهم يلحظ في عشرته لفيه أنه يعتز برؤاسته وولائه ، فضلا عن إيمانه به إيمان المهدي بهاديه المصدق الأمين .

ذلك مقياس العظمة الإنسانية لم يتحقق قط لعظيم من عظماء بني الإنسان ولا استثناء لأحد من العظماء الدينيين كن أو من العظماء الدنيويين .

فالحداقة العاية كبر برهان من براهير لعظمة المحمدية في صورتها الإنسانية ، مع صورتها القدسية الإلهية .

ومحمد الصديق هو أعظم العظماء بين بني إنسان بقيس هذه الطهرة ، النفسية المدة في تواريخ العظماء .

ولست نقول غير الحقيقة التي تثب كل الشئ بمعيار نفوس ، إذا قلنا أن محمد الزوج أعظم نفعا وخلقا من محمد الحريق

إن الأذى من المحترفين بالتشهير الذي قد ابتدأوا كل ديب من دباب الدين ، وكل حو من أخلاق الكرم ، حين اتخذوا من صاح محمد عليه السلام مذمة يعيرون بها ، حاشاه ، بين رسل الله بل يعيرون بها بين عامة خلق من عبدة الله . ولو كان محمد كما أرادوا أن يكون طائف متبعة في زواجه ، لكان على النقيض مما كان - في حريمه عشرات من أجمل العقائد والجوايز ، من بيوت العرب ومن سبابا اللحم والروم ، يرفلن في إنحرير ويتحطن بالثوب والجواهر ، ويأكلن على سماط كسماط قيمر وكسرى وبلقيس .

ولكنه كان وحوله من الزوجات الكهلة والشيخة والتي مات عتب زوجها والتي عن عليها الزواج من غيره ، ولم تكن بين هؤلاء غير فتاه عذراء وحده هي بنت صديق أسى بكر الصديق ، وكل جميعا يشكين قلة المؤونة وتظف العيش ويفخرن بين الطلاق وبين ابقاء على هذه الحال :

«يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتم تردن الحدة الدنيا وربها فتعلن أنتم كنن وأسر كنن سراحا جميلا (٢٨) وإن كنتم تردن الله وموئله والدار الآخرة فإن الله أعد للسنات منكن أجرا عظيما (٢٩)» .

وإذا بحثنا عن بواعث أنواع التنوى كلها لم نجد بينها غير باعثن اثنين كان لهما الأثر الأول والأخير في اختياره عليه السلام لكل زوجة من زوجاته : وهما مصلحة الدعوة والمروءة العالية .

فقد بنى بثلاث من زوجاته لأنهن بنات أصحابه الأرائل : لى بكر ومصر وعثمان ، وليس للأخوة في الله من سند إنساني في بلاد العرب أثق من لأخوة في النسب والمصاهرة .

وأولى زوجاته خديجة رضى الله عنها كانت في نحو الأربعين يوم بنى بها وهي في نحو الخامسة والعشرين ولم يكن وقاؤه لها وفاء الحسن والمنة ، لأنه فضلها على أصغر زوجاته وأحبهن إليها عائشة بنت الصديق ، عليهما الرضوان .

وكانت أم سلمة مسنة حين قتل زوجها عند الله المفزومة في واقعها أحد ورملته بنت أبي سفيان تركت أباهما لتسلم وتركها وطنها لتهاجر ، وفارقها زوجها بغير عسر وهي في الحبشة ، يطلبها النبي من النجاشي وتزوج بها لكي لا ترتد وهي عذبة إلى أهلها ، وصلياً الإسرائيلية حيرت بين العودة إلى قومها وبين العتق وزواج الحرائر غير أسديا ، فاختارت زواجه باخشي عليه السلام .

وأكره ما كان من بواعث المروءة في اختيار زوجات النبي قد كان ذلك الزواج الذي خاض المبشرون في حديثه ، وزعموه عشقا غلبه على نفسه الكريمة . حاشاه ، فطلقتها من فناء زيد لضمها إليه .

فقد كنت زينب زوجة زيد بن حارثة من بنات عمومتها عليه السلام رافها منذ طفولتها إلى يوم زفافها ، ولم تكن من الغريبات اللاتي يفاجأ برأيتهن لأول مرة في بيوت أزواجهن ، وإنه كان كرم النبي هو الذي حجب إليه أن يرفع من شأن الأسير لغريب فيجعله أملاً لمصافحته ومصافرة بني هاشم من أبناء عمومتهم وقد شق على الفتاة أن تسكن إلى العيش مع رجل من غير أكلئتها ، ثم شق على زيد أن يواجه النبي بنسريخ بنت عمته بعد ما كرمه بمصافحته ، فكان كرم النبي يغثه على إعفاء الزوج من ضنك هذه العشرة وإعفاء الزوجة من إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها ، ثم يخاصي عنها الخاطئين الذين لا يتقدمون مخفارين إلى مطلقات الأرقاء ، وتمت القدرة كما أراد الإنسان بمروءة وأرادها النبي بتشريف الأسير وجبر المحرم الكبير .

وإن الإنسان - حق الإنسان - لمعرف من أمر محمد في اختيار زوجاته جنباً من المروءة الملى في صاحب الدعوة الإلهية ينبو عن تلك المعظمة الإنسانية التي تمثلت في مكانة الرجل بين صفوة الأبطال من عظماء الرجال فهو كذلك لأنه إنسان عظيم ، غاية ما ترقى إليه شمانل الرجل العظيم .

وقد كانت معاملة محمد لسانه صفحة أخرى من صفحات تلك المروءة التي يسمو بها - إنساناً عظيم - إلى شرف الرسالة الإلهية ، فمن وصاياه ، نيا إن خير الناس خيرهم لسانهم ، ومن رعيته لهم ، إنساناً قد ضرب لرجل هذا يعمر عن غاية العايات في العمل بملك الوصية ، فما من رجل مضت له في العشرة ، رويته سنوات طوال لم تغفل من لسانه الكلمة الذبية ولم تبت عن وجهه المسعة القاسية ، ولم تلق أمراًته بحالة من الشدة تدل من الروح للمراة ثم تبت من امرأة مرحل ، وهذه سيرة محمد مفصلة مطوية لم يهلل روتب خيراً من غيرها وأنه يستقي حديثاً من أحاديثها التي تؤثر بالنقل والرواية قد انتقت بها من كلمة زجر ولا نظرة سخط ولا لمحة تائب أو زبابة ولا يكن له في حالة غير حال الرضا موقف أشد من موقف الغضب في صمت انزال من غير إفساد ، وثبت شيمه من شيم الرفق الإنساني تتلاقى عنده ضامع المصلحة وطباع البشر من أبناء أم وحواء .

وليس لنا من صبيح رجل لا يعرف الغضب ، فليس من لا يعرف الغضب إنساناً لوكنها قدرة على انقراض حيث تحمد القدرة في موضعها ، وفي أحد ما تكون من رجل إن غضب حق الغضب استطاع أن يوقع من بغضب عليه من ليس في صفه الأقياء له الضعفاء ، وقد غضب النبي على أناس ضنعمو وكفروا نمت وقتلوا ، أمين من رجائه واستدراجهم ليعلموه الذين كرمهم ففقدوا سبه ونزعوا منهم ما أحسنوا به إليهم ، فغضب إنسان محمد وحبي محمد ، حيث يغاب الرضا والهوان .

غضب عن الغدر والشر والخداع والغلبة ، وجزاهم الجزاء العدل وهم غير أهل للرحمة ولم يحرمهم الرحمة وهي ليست عنده أو ليست من ألزم شمالك من حرمه رحمة الله لأن الرحمة بهم قسوة على كل خلق شريف في إنسان من غصا مو ، رافقه ورحمته في خير ما يحسد من إنسان .

والقد يكون الضعيف الإنسانى خير مقيس للعضة الإنصابية فى أرفع مراتبها، بل هو فى الواقع أصدق قياسا للعضة الحقة من مقارنة الأبطال الأشداء، من الرجال قدي من يللب بقدرته قدرة تصارعا وتضارعا عظيم، ولكن القدرة التى هى أعظم من قدرة الدهر الغلاب قدرة تعب نفسها باختبار ما لتفوق بالضعيف الذى لا ضقة له بجهل ولا غنى له عن رفقتها ولا أمل له فى خصفة من غيرها، ولا حصر لماثر النبى نبي شمل بها الضعفاء فى غفلوان قوته ونصره، ولكننا نحصره كلها إذا ذكرت منها تلك المروعة التى حست إليه أن يعبر حاطر الأمير الضعيف المنتقم عن أهله، فبرغمه إلى مقام مصافحته فى أقرب شاس إليه، وتلك آية من آيات الإنسانية العظيمة أروع ما فيها أن نرى من النبى العربى القرشى انهاشمى وليس أحق منه بعترار تنسب إلى مقام المصاهرة

إن محباً الصديق لآسان فى ثروة من عضه الإنسانية وإن محباً رب الأسرة فى الثروة من ريق الإنسانية وإن محباً المعتقم فى الذروة من بى الإنسانية وعمل إنسانية ولرحمة بالإنسانية

إن محباً السيد فى ثروة من ضيوة إنسانية وإن محباً الأب قد عرف ضعف الإنسان فكى بكاء الإنسان، فكان فى موضع ضعفه نعم الأب الإنسان، نعم النبى المرسل فى أن بكى وهو يحمل جثة ويده الصغير إبراهيم على يديه، ونثر إلى الجبل فقال: «يا جبل لو كان لك مثل ما سى نجدت»

ولكن «إن لك وإنا إليه راجعون» وكان النبى الصادق الأمين أقرب ما يكون يومئذ من الإنسان البكى الحزين، فلما انكسفت الشمس وقبل أنها انكسفت لموت إبراهيم أبت النبوة على الأب أن يبلغ «سورة هذا المنع فى سورة التوحى عليه» فقال الأب الذى انكسفت الشمس حقد فى هيبته «كلا إن الشمس والقمر آياتان من آيات الله لا تضلطان لموت أحد ولا حياة»

بهذا الحزن الصادق وبهذا الصديق الحزين استحو الإنسان محباً بمشينة الله أن يصيح رسوله إلى الناس «وإله أعلم حيث يجعل رسالته» كما قال عز من قائل

ومحمد «الإنسان هو الذى استحق كرامة النبوة فصنع فى تاريخ الكون ما لم يصنعه قط إنسان سواه: أربعمائة ألف ألف من بنى الإنسان هم اليوم فى مشرق الأرض ومغرب يقرنون اسمه باسم خالق الأرض والسماء كل صباح ومساء: لا إله إلا الله محمد رسول الله»

ليلة القدر

ليلة القدر خير من ألف شهر

واستحق عليه بين حة المفسرين أن ليلة القدر شرفت هذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها، وه خلاف بينهم على هذا المعنى، ولكنهم - كما دلتهم فى تحقيق كل دقيقة وجلباً من تفاصيل الآيات والأخبار القرآنية - يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجهه المحتملة، إذ يجوز أن يكون المقصود به ابتداء النزول كما يجوز أن ينسب به نزول الكتاب كله جملة واحدة، ويشير القرطبي، من كثير إلى قول الغزالي أن ليلة القدر اسم حش لجميع الليالى التى حركت فيها آيات - قد تبعتها عشرين أو أكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتفال، ولكنه قول لا يخذ به الكثيرون وإن أخذوا بتعدد الليالى التى تنزل فيها آيات الكتاب

والمفسرون الذين يحتفون أن ليلة القدر ليلة واحدة من ليالى شهر رمضان يرجحون أنها إحدى ليله العشر الأخيرات، وأنها على الأرجح ليلة السابع والعشرين منه لأسباب محل لتفصيلها فى هذا المقام

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله فى ليلة القدر يعزى رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهارة، ولم يكن فى ليل من الليالى، لأنه من المتواتر أن النبى عليه السلام هو طيب بأول آية كريمة يقول عاتك بفارح، «وقيل له (اقرأ) فقال ما أنا بقارئ» إلى آخر ما ورد فى الحديث المشهور، ولكن الأمر الذى لا خلاف فيه أن سورة الفلق التى افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الإشارة إلى الأمور التى حدثت كما قال الأستاذ الإمام، بعد شبرع خبر البعثة وشهور أمر النبوة وتحديث قريش لإيداعه عى السلام

فلا خلاف على وجه من الوجوه في تسميته ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو جملة واحدة ، وإن حكمنا - كما ذكرنا أنها هي ليلة الفرقان كما جاء في سورة البقرة ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (٢) فيها يفرق كل أمر حكيم (٣) .

فهو ليلة القدر لأنها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والمفريق بين المباح والمحظور ، والأمر بالسوء والنهي عن التكليف ، وهو أشرف ما يشرف به الإنسان لأنه هو لمطابق التمييز بالتكليف والمختص بالتمييز ، جميع مخلوقات . ومن أجل هذا فضل الإنسان على الملائكة ، لأنها لا تتعرض مع شدة ضيقه إلى الإنسان من فئة التمييز بين المباح والمحظور وفصلية الوصول إلى الخير والامتناع عن الشر بشيئة من الدنيا ، البسول ، وقد استحدثت عنه محسنه سبحانه بالامر - قراءة واختزان تمييزه على الملائكة بفضل العلم كما جاء في وصف سليفة من الكتاب المبين ، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَشْرَاقًا فَآخَرَكُمْ ثُمَّ يَكُونُ حِمْلُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) هو خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم (٥) وإذا قل ربك للملائكة إني مبعوث في راس حديد فربما أنزل بها من نعمتي فيها ويسفك الدماء ويحيى نسح حديثي فممن لم يقل إني أعلم ما لا تعلمون (٦) وعلمهم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال استويي باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٧) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنت أنت اسم الحكيم (٨) قل يا آدم انزل من الجنة بأسمائهم فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٩) .

وقد جاء وصف الإنسان بهذه العزبة بعد الأمر بقراءة في أول آية خيطب بها علي السلام ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (١٠) الذي علم بالقلم (١١) علم الإنسان ما لم يعلم (١٢) . وهكذا ينبغي أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان وسمى التقدير والتمييز الذي خص به الإنسان ، ومعنى الأمر بالحكيم الذي يفرق في ليلة القدر ، بشرف العظيم الحكيم ، فالشرف الذي فضلت به ليلة القدر إنما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف القرآن والفرقان ، وشرف التكليف الذي به الإنسان إلى منزلة أشرف

المخلوقات وحق عليه أن يذكره لأنه محاسب عليه ، فيذكر في كل يوم وليلة أنه مسؤول عما يفعل وأنه مشرف بين الصديق جميعاً لأنه مناط السؤال والحساب . وعلى هذا المعنى وحده ينبغي أن نفهم التقدير الذي يرتبط بنزول القرآن وبامر القراءة والعلم الذي يفرق به كل أمر حكيم .

ومن حقائق اليقظة التي يبين بها المؤمن بالله أنه سبحانه وتعالى يقدر الأقدار ويقسم الأزواق ، ويحيى ويميت ، ويجري قضاءه في صروف الحوادث وأطوال الحياة والأحياء ، ولكن القرآن تلك ليلة واحدة من ليالي الزمن أمر لا يقول به المؤمن بليلة الواحد اسرمد الذي لا أول له ولا آخر ، ولا تأخذ سنة ولا نوم ، وإنما يتخلف هذا الاعتقاد من بقايا الأديان التي ظلت تعدد الأرباب ونخص كل رب عتبه بوقته وسدته ، أو تشبیهه به يعده الإنسان من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من بني نوعه المحكمين فوه ، وتجعل للمعبود والنحوس أياماً تتعق بضائع تنجود وبذارات الأفلاك ، ويستنزله العارفين بأسرار النجوم عندهم توسلاً إليها بشدة القرابين والضحايا ورموز الطلسم والعقائد .

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عبدة التقدير في إحدى ليالي السنة ، وسرت إلى بني إسرائيل بعد اختلاصهم بعباد النجوم والأرباب الأرضية أو الفلكية في أرض بابل فأخذت سبيلهم مع سائر الحرافات والإسرائيليات إلى عامة المسلمين ، فظهر في تلك الأساطير التي أحاطت بأنوار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذي يشمل به شرف الإنسان وشرف التمييز والكيف إلى معنى يتقضى بعمل حكيم ويبطل حكمة الإسلام في جملة ، لأنه يرتفع السعادة والشقاء والمثوبة والعزاة بغير الأعمال والمقاصد ويعود بها إلى أرصاد الآيالي والآيات ورموز انتقاعات والقرابين .

كان قسما اليابانيين يحتفلون بسمتهم الزراعية ويبتهلون إلى آربابهم في مطلعها أن يغرق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة آمن ورخاء ونعمة وثراء ، لاعتقادهم أن آرباب النجوم تقضى في الليلة الأولى من مطلع السنة كل ما يفصر من أمير الخصب والحدب والرزق والحرمات والحياة والموت ، وكان من عتدهم أن للعصر شجرة تخضر أوراقها أو تذبل مع

اخضرار الشجر على الأرض وذبونه ، فمن كتب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضى عليه بالموت ثبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعدنان الحطب بغير روح ، وكان من عقابهم مع هذا أن اخضرار ورقة وتبولها مرتين بمواسم الصلاة وطلاسم السحر التي يتولاها الكهان ويفرضون من أحلبها القراس والهدايا على طلاب الصواب والهدى .

وقد نقل الإسرائيليون كل ذلك إلى عيد من أعيادهم التي اختلطت فيها عبادة الإله بعبادة الأرباب الوثنية ، ثم تسربت منهم إلى عامة المسلمين ، وانخرع بها من غير لمام من كان يحسب أن القوم ينقون ذلك من مصادر الكتاب الصحيحة فضافوا إلى ليلة القدر أكثر ما كان يقال عن مراسد السنة الزراعية عند البابلس ومواسم التفكير عند كهان إسرائيل .

ولعل انتقال هذه منهم بليلة القدر إلى منتصف شهر شعبان ، مع وضوح نسبتها إلى شهر صيام في القرآن الكريم ، إنما جاء من ذلك الاعتقاد القديم في السنة الزراعية إذ كان شهر شعبان إنما سمي بذلك لانشعاب عروق الشجر فيه على ما جاء في روايات الجاهلية ، فهو أشبه بما كان يقال في بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من «انشعاب الأعمار بين الاخضرار والذبول» .

لكنه في الواقع ، انشعاب آخر بين العقائد الإسلامية في صميمها وبين العقائد التي تخلفت عن عبادة الأوثان والأرباب من دين الله .

فالعقيدة الإسلامية في صميمها لا تتمثل في شيء كما تتمثل في التكليف والتعويض ، وفي المخلوق الذي يبدل عمله ولا يسيبه أجزاء أو الأجزاء من عمله غيره ، وفي تشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين أشبه هذه اللامالي في كل شريعة يتأط فيها قدر الإنسان بغير الأعمال والنيات ، وإن المسلم ليعود إلى إسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر أنها ليلة فرقان وحسب ، وأنه يدعو الله فيها لسيرته بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكير .

القصة في القرآن الكريم

القصص في اللغة هو تتبع الأثر لمعرفة المكان الذي نزل به أصحابه أو سلوكه ، ومن هنا قبل الكتابة عن القوم أنها قصة ، لأن من يحكى عنهم يتتبع أثرهم يعرف خبرهم ، فهو يقيم سيرته في الزمان ، كما نقص السير في لمواقع والجهات .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بالمعنيين في سورة واحدة ، فجاء في سورة الكهف : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (٦٤) بمعنى تتبع الأثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٦٣) بمعنى تتبع الخبر في التاريخ .

ولكن كلمة القصص في القرآن الكريم تنصرف على عمومها إلى معنى الهداية إلى الأخبار والآثار الباقية من سير القديس لفيرة ، وهي تساق في الكتاب لمقاصد كثيرة تجعلها كلها هذا المقام .

فهى تساق للعبارة والبرهان أو في القصة والتربية العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية .

وتتلى قصص العبرة والموعظة في القرآن الكريم لتسير الأحياء بمسائر السابقين من الأمم الأولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الأولين من الكلام المسموع أى المكتوب ، وقد تكون الكلمة إحدى الألفاظ التي تعربت عن اليونانية ، لأن الأساطير عندهم بمعنى الخبر المسجل في المعروف ، ولا يبعد أن تكون اليونان قد أخذها عن العرب لأنهم أخذوا الكلمة عن الأمم السامية وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب إلى رسم الحروف ، ولا تزال أسماء الألفا والبيتا والجاما عندهم منقولة من الألف والباء والجيم ، بل يرجع أن كلمة «كلموس» اليونانية أى «القلم» مذقواه من العربية ، لأن أقلامه أصيلة فيها ، ومن مادتها «القسم» والضم والقطم والقحم والقرم ، وكذا تقيد القطع كما يفيد التعليل ، وكذلك لسطر والسطر بمعنى الخط أو الخط في العربية ، يقال سطره وخطه بمعنى واحد ، فليس من السعد أن تتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التي لاشك في انتقالها من الأمم السامية إلى اليونانية .

وقد تردت في القرآن الكريم أخبار الأولين على سبيل العبرة والموعة ، وكان مدارها جميعا على تذكير الأمم ببقية من لا غرار بالمتعة ، كما اغترت

بها الأمم تخالفة ، وكانت هذه العظائم ألزم العبر لتلك الأمم التي آمنت بالأوثان والأرباب وتم تؤمن بالوحدانية فإنها إذا علمت أن أربابها لا تحميها من الكوارث ، ولا تقدر على إصابتها بها ، ذهب إيمانهم بتلك الأرباب ، ووجب عليها أن تبحث عن قوة إلهية تملك القدرة التي عجزت عنها معبوداتها .

وفي القرآن غير القصص التي تدعو إلى العبرة بمصير الكافرين أنباء تروى عن الأنبياء الذين أرسلوهم إلى الأمم الغابرة فكذبتهم وتنكروا لهم ، ثم ظهرت دعوتهم وحقت النعمة بمن كذبوهم وأنكروهم ، وبقيت تلك القدرة لينتفع بها من يعمل عليها ، وينفو أثرهم ، ويلقى من قوله مثل ما كانوا يلقيونه من أقوامهم .
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ إِذِ انبَأَتْ بِمَا جَاءَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُ بَصِيرًا ﴾
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ إِذِ انبَأَتْ بِمَا جَاءَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُ بَصِيرًا ﴾
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ إِذِ انبَأَتْ بِمَا جَاءَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُ بَصِيرًا ﴾

وهذه هي الجملة حكمة القصص التي جاءت في الكتاب عن جهاد الرسل وعاقبة النصر على الدعوة ، تثبيتاً للأفئدة وتيسيراً للدعاة وانصالحاً للقلوب .
نصبر على الجهاد .

ومن قصص التعلية والهداية في القرآن قصة موسى والخضر عليهما السلام . يرى بعض المفسرين أنه درس لأصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من السابقين بالأسرار والإشارات الخفية ، ويرى الثقات أن القصة درس لأصحاب الشرائع حقاً ولكنهم يفهمون من هذا الدرس أن سمعة العلم من شروط القضاء بين الناس ، وأن العدل منوط بمقدار ما يعمل الحاكم من شؤونهم وحقائق أحوالهم وأسباب مصالحهم ، فلا يتساوى في العدل قاض يعرف تلك الأحوال على حقائقها وآخر ينظر فيها بما يبين له ظاهرها ، وذلك درس لا غنى عنه لمن يقضى بشريعة من الشرائع تحوى على قسطن واحد ولا يختلف فيها ظاهر وباطن ، كما يعتقد القائلون بالأسرار والإشارات الخفية ، فلا حاجة بالقاضي العدل إلى غير العلم بحقيقة القضية التي بين يديه ، ثم لا يختلف فيها بعد ذلك قولان .

ومن الغريب أن نذكر أن قصص القرآن جميعاً تساق للموعظة والتعليم وحسن التدبیر ، وإنما تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين . فليس استقصاءها تفصيل التواريخ ولا تحصيل الوقائع والمباني ، وليست حكمته موقوفة على شيء غير ما في الكفاية لهذه المصداق كما يفهمها الناس .

١٥٢ -

وتكن الجانب التاريخي المحض من القصص الدينية قد كان له فوسه النافع للمتعجلين من أدعياء التحقيق - العلمي - منذ أوائل القرن التاسع عشر ، نعمهم لا يستغنون عنه بعد انتصاف القرن العشرين ، فقد كان يزود الخبر في كتب من كتب الدين كافٍ عندهم للجزم باختلافه وحساباته في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية التي لم تحدث قط في غير أوهام الشعراء . فلم تكن سنوات على الشروع في حركة البحوث الحفرية حتى ثبتت علامات اصطفاء التاريخية لكل خبر من أخبار تلك الحوادث المشكوك فيها ، وثبت أن عمدة التاريخ كانوا خلفاء أن يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث ثم لم يعلموا به من مصدرها العينية ، قبل أن يتوفروا على حركة الحفر والتقصي في آثار شرق الأدنى وما جاور بلاد النهرين .

وفي هذه الأخبار ما كانوا يفرغونه في الكتب ويمرونها على غير الله لأنهم لم يعرفوا أنه خطأ جديراً بالاهتمام في غير المصدر الدني . فتكوا في حين عاد رشود وشكوا في حملة الفصل وهلاك أصحاب الفصل ، وشكوا في زلزال والأعاصير والطوفانات والجوائح والحروب التي سبقت سبق حيرة في قصص القرآن وانفرد بها أصحابنا من كتب الأدباء . فلما حققوا الآثار وصححوا مراجعهم تسن أن عادوا ويثمدوا من أخبار بطليموس ، وإن هلك أصحاب الفصل من تواريخ الحبش والروم ، وأن المدن التي ساخت بها الأرض أو عسفت بها أراج حقيقة لا تقل في صدقها عن حقائق طيبة ومنك وطروادة وميسني ، وإن هذا اللغة تقول لنا اليوم بعد المقارنة بين اللغات كل ما كذبوه من الأصول أو من الصلوات بين شعوب الأمم وأعراقه في أحاديث المتنبيين ، وإنهم هم في تكرهم وتحققهم المزعوم قد أبدعوا لهذا العصر صورة جديدة من صور خرافة لم تكن مقبولة عند المخرفين المتقدمين ، وهي خرافة الملوك الذي تكرها ما يجهل ويجهل ما يتكر ، ويظن أن كلمة التحقيق وحدها سطة تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والإنكار .

وإذا أنكر هؤلاء المتعجلون كل شيء في الدين فلعلهم لا يستنبطون أن يتكروا اليوم هذا الدرس الذي تعلموه من كتب الدين ، فقد تعلموا على غير تعد منهم أن التعجل بالإنكار جهل شائن كجهل المتعجلين - تصديق .

ومطبخ شهر الأردن

كان منا رجل من رجال الأعمال وسفير ، وشاعر ، وكاتب ، وصحفي ، ومنا المسلمون والمسيحيون ، وجرى حديث الصحة ونظام التغذية المفضل فقال رجل الأعمال : «إنني تعولت بين حين وحين أن أصوم أسبوعاً أو أسبوعين عن كل طعام غير السوائل وأفضل من السوائل عصير البرتقال».

وقال السفير : «إنني أصوم فترة كهذه وأكتفي فيها كل يوم بوجبة أو وجبتين من اللبن ، ولكنني أفضل عليه أصواتل الأخرى».

وقلت : «إنني أعالج الصوم مرة في كل أسبوع ، واختار يوماً من أيامه للصوم عن كل طعام غير السوائل ، وأفضل منه مغلي البابونج أو عصير الليمون الحلو أو عصير البرتقال . وقد أحتاج في أيام الأسبوع الأخرى إلى إسقاط وجبة من البحوث الثلاث ، وأكثر ما يكون وجبة العشاء».

ولا أذكر هنا قيل في هذا المعنى غير ما تقدم . ولكنني على يقين أن القارئ يسمع في مجالس مثل ما سمعنا في ذلك المجلس رغب غيره ، فإن لم يسمع حديثاً عن الصيام لإصلاح الصحة سمع حديثاً عنه لاجتناب السنّة أو لزيادة نصيب الجسم من بعض الأغذية الحيوية ، أو سمع عن الصيام السياسي الذي يراد به فرض رأى أو الإحتجاج على معاملة ، فليس أكثر من أنواع الصيام في هذه الأيام

ولا حاجة إلى الإفاضة عن الكلام على أنواع الصيام التي يعالجها الجنس اللطيف حرصاً على الرشاقة وعتدال القوام ، أو رياضة له في سبيل الجمال تشبه الرياضة التي يعالجها اللاعبون في سبيل القوة والنشاط . فإن حديث الصيام من هذا القبيل في كل بيت وكل ناد . وبلغ من شيوعه أنه أخاف المصانع التي كانت تعمل على نشراب الخفيف كالجعة والمنقومات وما إليها وتعلم أن وجود الجنس اللطيف مع الرجال أكبر مشجع على الإكثار من هذه الشرربة ، فبدأت تقرأ عن الجعة التي تخفف السنّة وعن التي تزيل الرواسب وتحفظ على الجسم «هندامه» واعتدال قوامه .

وبراء هذه العنشرون مصالح لك المصانع على الأقل في بعض الأحيان .

ليس زماني إذن زرع الإعراض من الصيام كأنه عادة من عادات الأقدمين التي عفى عليها الدهر كما يقولون ، بل هو في الواقع زمان تزيد فيه ألوان الصيام ولا تنقص . وكثر فيه اختلاف أنواعه ولا يقل ، فما علمنا من عصر قط أنه امتنع أن يسمى صوماً «صيامياً» كالعصر الذي نحن فيه .

ونقول «اصيام» عن اختلاف أنواعه لأن الأنواع التي ذكرناها أنفاً ليست هي كل الصيام الذي يشتغل به أبناء العصر الحاضر ، فتلك جميعاً أنواع «جسدية» تروى لحفظ صحة أو حفظ الرشاقة أو حفظ القوة والنشاط ، وغيرها كثير من أنواع الصيام يدرسها بناء العصر الحاضر ولا يطلق وصف «الأنواع الجسدية» لأنها تروى لتربية خلق ورياضة النفس وتعويد الإنسان أن يملك عاداته كما يشاء .

وقد نفتح باب البحث في هذه «الصيامات» على أثر التوسع في دراسة الأديان والحكمة بين وعلى أثر التوسع في الدراسات النفسية وعلاوة العقل فيها بالية . وعلى أثر نقول ببيان توليد الأمراض العقلية وشفاؤها بتعاطي بعض العقاقير أو الامتناع عن بعض أصناف الطعام .

وكثر الكلام على «جرجا» الهندية ، كما كثر الكلام على عادات المتصوفين والنسك التي ملكتها من زمان أسلافهم وضمائمهم ، فلا يقل الكلام على الصيام في سبيل الروح والضمير من الصيام في سبيل الجوارح والعضلات .

والصيام الذي فرضته الأديان أحق هذه الأنواع بالبحث عن دواعيه وعن معانيه ، وقد طرأ تبدل في أصل الصيام الديني قديماً قبل ظهور الأديان الكتابية فلا حاجة إلى استقصائه في هذا المقام .

أما حكمة الصيام في الأديان الكتابية فهي محصورة في أغراض معدودة : وهي تعذيب النفس وتنشيطها عن الخطايا والسيئات ، وتربية الأخلاق على نحو من الأنحاء .

والدين الإسلامي من أديان الكتابي الوحيد الذي فرض كتابه الصيام فترة معروفة من زمن غير محدد معروف من التزام .

ولا خلاف بين الأئمة في الحكمة المقصودة بهذه الفريضة وهي تقويم الأخلاق وترتيبها ، وإن تعددت الأخلاق التي تذكر في هذا المقام .

فمن الجائز كثيرا أن صيام الغني يعلمه رحمة - فقير ، ولكنه مقصد لا يشمل الفقراء كما يشمل الأغنياء وكما ينبغي في كل فريضة عامة لا تنحصر بإنسان ولا بطائفة من الناس .

أما الخلق الذي يعم الأغنياء والفقراء ولا يستلزمه من فريضة عامة كما يستفاد من الصيام فهو الإرادة ، ألزم الصمت لكل إنسان ، إن الإرادة لازمة في كل تكليف وفي كل تبة وفي كل قضية ، فلا قوة للفرائض جميع بفبر هذه الإرادة .

وهي لازمة للفقير لزومها للغير ، فإن كان حادها حوج إليها من الآخر فهو الفقير . لأن الغنى قد يحد عنده ما يعوضه فريضة في أعمال الإرادة والفريضة واجزة ونصاء ، وليس هذا المعنى حسنا ، فنفذ في إرادة حادها .

الإرادة إذن هي فضيلة النفس في الصب .

ومنى عرفت هذه الحكمة فأداب رمضان كمدورة قبل مستندة من معناه . ولا حاجة بالصائم إلى أن يترك ما يريد انصيامه ولا يقوم بفريضة يتلها ويعلم نفعها ويحمل جهدها ، وإن لم تكن مفروضة عليه .

فليس من أدب رمضان أن يتل الصائم وإن يتعمد لمحدثه وأن يبتدئ منه ما يدل على الضيق بالفريضة كنه مكروه عليه مطيع بها بغير رضاه .

وليس من أدب رمضان أن يهرب الصائم من إرادته بقضاء النهار كله في النوم ترك الطعام ، لأنه غافل عن مواعيده غير متنبه إليه .

وليس من أدب رمضان أن يقلت زمام الإرادة بعد غروب الشمس فلا يعرف الصائم إرادة تصدق عن الإفراط في الطعم والشرب إلى موعده الإمداد .

وليس من أدب رمضان أن يصوم الإنسان وهو مدبرض للتيلة بصيحه فإن من كان مريضاً لم تجب الفريضة عليه ولا معنى له ، الفريضة إذن ، إلا أنه يريد نفسه الهلاك ، وهذا محرم عليه .

كلمة ، إرادة ومدها تلخص آداب رمضان ولا تحتاج إلى إسهاب في تفسيره وتعدد أنواعها .

ومزية ومضمان أنه فريضة اجتماعية مع فرضه على أحماد المكلفين ، فهو مرمد مطوم من العام تفويض الصاعة على نظام واحد من المعيشة وعلى نمط واحد من تغيير العادات ، وليس أصلح تربية الأمة من تعريفها هذه الأهبة للنظام وتغيير العادات شهرا في كرمته ، تتلقى فيه على سنن واحد في الطعام واليقظة والرقاد وما يستتبع ذلك من تبة الجمدة كلها لهذا الشهر خلال العام .

وإذا استطاعت الجماعة أن تريد ، تلك التنظيم وذلك التغيير ، فليس ثمة نمط من أنماط المعيشة لا تستطيعه على هذا المثال في الشدة أو الرخاء .

رمضان شهر إرادة

أنبه أدب الإرادة ، وحكت حكمة إرادة ، وليست الإرادة بالشئ اليسير في الدين والخلق ، فما حين وما الحق إلا تبعته وتكاليف ، وعماد التبعات والتكاليف جميع أنها قنات حديد .

ومن ملك الإرادة لزمام الحق جميع في يديه .

نوعلا محمد عليه السلام

من الأمثال التي تعاد ولا تمل أمثلة للكاتب الروسي «ديستيفسكي» عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في قصة الأخوة كرامزوف .

وخلاصة الأمثلة أن السيد المسيح عاد إلى الأرض وأخذ في وعظ الشعب وتشمره بالمكوت فقبلوا غبه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفصروا عن وعظهم وبعاتهم المعبددين ، فاشتق هؤلاء على مكنتهم وأوعزوا إلى رئيس محكمة التفتيش فاعتقه وترعده بالتحاكمة ، لحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح . . . وقال : إن هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبتدئين في تنفيذ انقضاء قبك .

أمثلة تعاد ولا تمل لأن تجربة به لا تنقضي في حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله في أحاديث الصالحين وفسدين .

ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيله ، وإنما يكون مبالغا لو كان ما تخيله بعيدا أو غريبا في باب ، ولكن في الواقع أقرب شمر إلى الاحتمال مع هذه البشرية

التي تسيطر فيها الشيطانية والخنزيرية والحمارية في وقت واحد ، فلا تزال حرة على من ينفعها والعبودية في أيدي العابثين بها ، وإن كرروا الميث بها كل يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لأفكره كثيرون ممن يعيشون بأسسه ويتحلون هدايته . ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك انصيب ممن يرفعون العقبرة بهداية الإسلام وإسلام برئء منهم ، وكل من هنالك من حلالة أن المسألة لا تمر بتلك السهولة التي توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من ينصني في "سلام لمثل عمله" ، وأنه سيخدم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته . إن كنت سيئاته مما يقبل التكفر .

وأسل نفسي كيف يتفجع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبي عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وما هي المسائل التي موحدها بها إلى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسل نفسي فتخطر لي مسائل خمس ترجع فيها إلى شخصه الكريم ويفنى جواب فيها كل الغناء . فلا لباجة ولا اختلاط ولا حاجة إلى الاجتهاد والتبديل من مستند أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد في هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هي : مسألة الأحاديث النبوية ، ومسألة الروايات في قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الإسلام عندها وقبولها في الإسلام فيها .

مسألة الأحاديث النبوية :

إن سجل الحديث قد بلغنا الغاية من الاجتهاد المشكك في جميع الأحاديث وتبويبها وتقييم رواياتها وأسانيدها ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت وإراجيح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا كل قسم شروعه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علماً مستقلاً يتقدم به علماء مستقرون .

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الأحاديث الثابتة على عشر الأحاديث المتداولة في الكتب وعلى الألسنة .

وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الأمور جميعاً إلى تصابيحها : «لم أقل هذه الأحاديث» وينتهي القيل والقال وسفل الخلاف والجدال ويوطل معهم بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون إلى الحديث ككاتب في التضييل وترريج الأباطيل .

قراءات القرآن :

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الأحاديث في أشكها وبنائج الاختلاف عليها ، فإن الروايات التي لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئاً من أحكام القرآن ، وسكن الأخذ بها جميعاً ولا ضرر في ذلك ولا ضرر .

إلا أنها لا تحتمل أقل اختلاف مع وجود النص الذي شرع عليه القرآن فمما يقوله فيها فهو مجتبع اقراءات ومرجع الروايات ، ومتر استمع الناس إلى تلاوته - في عصر التسجيل - فلك تخبرة الأب في ذاكرة الأجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون في مجالس شكر الحكيم .

الخلافة والملك :

وتأتي مسألة الخلافة ، من معضلة الخلافة ،

تلك المعضلة التي سالت فيها بحوز من البدء وجدود من العناء ، ويقبت وراء كل انقسام تذكره في الإسلام حين تذكر السنة وشيعة والإماميين والزيديين والإسماعيليين والتراويين ، وحين شكر النجاشيين والأمويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المتقسمين وأقسام المتقسمين .

ثم أوصيت يا رسول الله في أمر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية ؟ وهل تريدنا اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها ؟

فإذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوصي بكذا - فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فإذا في شخص من غير سوء ، وإذا

هي بقية من بقايا الماضي تحال إلى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقي بها حيث لا حرج ولا ضرر .
وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

الرسالة بعد ختم العرسين :

والخطب أهين من ذلك جدا في مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فإن المخالفين للإجماع في هذه المسألة واحد في كل خمسة مائة مسلم ، وسينتهي خلافهم عما قريب ولكن إذا انتهى بتكلمة من الرسول الذي يؤمن به المسلمون جميعا فذلك هي النهاية افاضلة ، وقد نمتع في المستقبل أضرا لا يناس عليها ضررها في الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسة مائة أن ينشق الخمسة فلا ينشق منهم واحد .

المذاهب الاجتماعية الحديثة :

وما قولك في حلول له في دعاة المذاهب المصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟
لا حاجة إلى السؤال عن الديمقراطية ، فإن سابقة الإسلام فيها أصلح من كل سابقة .

ولا حاجة إلى السؤال عن الفاشية فإن الإسلام بمقت الجيارين والمتجبرين ، ولا حاجة إلى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فإنها ملعونة في كل دين ، وإنما يسأل اتبى عليه السلام في الاشتراكية فيقول ما قلته القرآن حيث نهى أن تكون الثروة دولة بين الأغنياء .. ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه من المسلمين على قويم المذهب وأسلم الحلول .

وتأتى على النامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين في الأحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أمادييت سبي مما يحدث عنه الصحفيون وأشباه الصحفيين .

ويسمع من سبي عليه السلام في أولئك كه حواء بقلبي عن أم حواء .. وعن من كان جواب .

وتعود إلى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين إن كاتب هذه السطور آخر من يؤمن بإقتاع العميل أو بسلطان المودع في الإجماع .
كانت هذه السطور قد رأى بعينيه أناسا أغرب وأصفى ممن يكون انتمس في راحة النهار .

ومن المستحيل عندي أن يعاندك المعاند ويكابر المكابرون في « شين » و « نين » يسويان أربعة وفي واحد وواحد يساويان « شين » .
رئيس المستحيل عندي أن يكابر المكابرون في معنى الواحد ومعنى اثنين وإن هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس بفرق من الأرقام .
هذا عدد النبي عليه السلام وقضى قضاءه في أحكام الإسلام فلا وله لا يعد الناس من يد كت في كلامه وبيانه وفي ملامح وجهه وعلامات حشوته ، ولا والله من يسلس المقادير من يلج في العباد ويضيق عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس به بالتسليم والقبول .
سأ أنه ، فيما نصب . مدد لا ينفع أصحابه ولا يطعمون في امرجه ، مه حتى تغدوم الحواشي بالندم عليه . وصلى الله على محمد في الأولين وآخرين . قد مر لا أن يعود فلا تغز عليه هداية المهتدين وريضة الذين لا يهتدون ، فلا يسمون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين .

لوعلا السيد المسيح

في إحدى روايات الكتب الروسية العظيمة - دستيفسكي - يخل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض في طوفة عابرة ونزل بشيبلية في « بان سطورة » التفتيش فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعفاء والبرصاء والمحرزون يلقون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

ونه ليمضي بين الشعب يضل على حبه وحنانه ويبسطون له شكائاتهم وسؤوفهم إذا برئيس ديوان التفتيش - المفتش الأعظم - يعبر العكان ويتأمل سيد الشعب من حوله فضيحة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يستلوه ويضعوه حجز السجناء في انتظار التحقيق .

ويأتي المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم :
« إنني أعرفك ولا أجهلك ، وهذا حسرتك ، لماذا جئت إلى هنا ؟ لماذا تعوقنا
وتلقى الحشرات والمقبات في سبيلنا ؟ »

ثم يقول له فيما يقول : « بت كفت الناس ما لبست لهم به طاقة ، كلفتهم
حرية الضمير ، كلفتهم مودة التمييز ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطبقوا ما
كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طبت منهم .. والآن وقد عرفنا نعمنا داهم
وأعديناهم من ذلك التكليف .. وأعداهم إلى الشرائع ونشعائهم ، تعود إلينا
لتأخذ سبيلنا ونحدهم من حيز بحسب الاختيار وحرية الضمير ؟ »

« ليس أتخل على الإنسان من حمز الحرية ، وليس أسعد منه حين يخل عنه
محملها وينقاد طامعا لمن سبه المدينة ويوهمه في الوقت نفسه أنه قد أطلقها له
وفوض إليه الأمر في اعتقاده وعصبه فلماذا تسوم الإنسان من جديد أن يفتح
عينيه وأن يتطلع إلى المعركة من خلف نفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟ »

« إننا نحتسنا السلطان قديس وليس لنا أن نعتزده ، وليس في عزمننا أن ننزل
عنه ، فدع هذا الإنسان لتدريج من حيث أتيت ، وإلا أسلعتنا لهذا الإنسان
غدا وسنعتاه علينا وحاسبنا بهيبته وأختل بمسحراته ، ونقرين غدا هذا
الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا أن نخلصه منه وأن نديك
كما ندين الضحايا من المعنيين والمعموقين . »

قال أيفان كرامزوف بطل رواية نتي تخيل هذا الملتقى وهذا الحوار « إن
السيد المسيح لم ينس بكمة وتم يتبادل هذا الوعيد وهذا العزاء بعبريس أو
ازدراو ، وتقدم إلى المفتش الأعظم - وهو شيخ فان في التسعين - فلم شففته
وخرج إلى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار

خلاصة لما تخيله الكاتب تعقبه في خطاب طويل منزه بحكمة العبد كما
يراهم الحكماء ، من أحرفه - آخر نتي يتبادل الحكمة المسيحية . حكمه
الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد من الحقيقة ولا نستبعد
ما قلناه المفتش الأعظم حين أثير الرسول الكريم أن يسلمه لمن يشور عليه
ويصب عليه الزيل والغضب .. لأن أحاط به ولثم قدميه وترسل إليه .

كلا . إن الخيال في ذلك الخطاب غير بعيد من الحقيقة ، وأقرب شيء إلى
طباع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم في نغمته
على الرسول الكريم

وأقرب شيء أن يكون لو عاد السيد المسيح إلى الأرض أن ينكر الكثير مما
يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كنية وفريسيين ينمى عليهم الرياء
ويعلمهم من جديد أن السبب للإنسان وليس الإنسان للسبب ، وإن العبرة بما
في الضمير لا بما تلووه به الألسن ويبدو على الوجوه ، وأن الرخص في طوية
الإنسان ؟ في ضايا الكتب والأوراق .

أقرب شيء أن يكون أن ينمى على الناس ما نغاه قبل ألف وتسعمائة سنة ،
وأن يجد إنسان يوم كإنسان الأمم في شروبه وعداوته ، وفي ثقافته وثقافته ،
وفي أخلاقه عرث السبب وإفساله على القشور ، وفي استعماله بالتقوى حين
يتقى ، ونعاجه في الجمود والعنوان حين يجحد ويمتدح ، ضمرا جديدة في زو
قديم .

ذلك أقرب شيء أن يكون

وأقرب شيء أن يقال إذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، وأن يردد المسام قول
أبي العلاء

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي إلى غناء اجتهاد
قديم بشقي المصلحون ، وفيهم تلك الشهداء ؟ وفيهم يأتى الأنبياء ويذهبون ؟
وفيهم اختفت البنات واصطرح عليها المتدينون ؟ فيم كان هذا ؟ فيم جاءه
رسول بدم رسول ؟ وفيهم توالى التابعين بعدهم بإحسان أو بنير إحسان .
حاشوا وعادوا

وانصروا والبلاء بان ولم يزل داؤنا المنياء
لئن لم هذا يكون أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة
الخيال

ولكن نحققنا تكبري التي تبرز بنا جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا تروى
من جانب واحد . ولا سيما الحقيقة التي تخلد على أزم من في أطوار الإنسان
منذ كان . وتأخذ معه أنى يكون .

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسقة ، يرسل إليه الإنسان ثم يصل إليه ويقعد عنده ، وكيف بعده عن كل عناء .

إنما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائم ، يتقدم فيه الإنسان شيئا بعد شيئا ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهوده يوما إلا ليتقدم بعده إلى جهار مستأنف ولا يودع الضمير في مرحلة من مراحلها إلا لينقاه ويجاهده ، ولن ياقاه في سلام .

ومطابنا المحسوسة نهدينا إلى القياس الصحيح في هذه المشكلة ، وهي أولى بأن نتركها من المطالب الخفية التي تتجلى بالضمير وتبعث إلى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ، ومرات حيث يبصر ولا يرى غير العجب والقلات .

متذا يقول أن عناء التعليم يعمل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في الخامسة ، وراه يحمله وهو في العاشرة ، وراه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين . ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يفرض على الجاهل كل القضاة .

متذا يقول أن عناء الطب باطل إذا رأى لسان يمرضون بعد علمهم بتجرايمهم وبعد افتقارهم في الطبابة ومواقع التواء وموانع الشفاء ؟

متذا يقول أن الناية عبث لأن الطريق لبس طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله في غاية كهرية الضمير هي سر الأسرار في حياة الإنسان من كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة أن الشر واقع ، ولكن العبرة كيف تنظر إليه وكيف تواجهه أو كيف تتفهمه .

وإذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح إليه مستزيد منه ، كأنه وقع فيه وهو مضطر إليه ناليم عليه ، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغاضاة بين النعم والجهل وبين القصد والاضطرار .

إنما الإنسان غير الحيوان البهيمة لأنه صاحب ضمير ، وإنما يقاس ضمير الإنسان بالقيم التي يقو بها والمثل العليا التي يتمثلها ، والمطالب التي يطلبها ويتأهلها أو لا يتأهلها ، وما دام المصير والرسول يعلمون الإنسان قيمة يغلبها ويرفعون أمامه مثالا أعلى يتسامى إليه .. فهم عاملون وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وإن دام الشر ولم يتقص عن الخنوب والجرائم وأرقام الإحصاء .

وإذا قلنا يوما أن الإنسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين أنه أفضل من الإنسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وأن عمله غير مطلوب وغير معروف كما يعمل الحيوان .

إنما تقاس الأديان بما توعد به من القيم والجوائز ، وبما تزيد من نصيب الإنسان في حرية ضمير وفي حرية التمييز بين الحسن والقبيح . وقد عادت الأديان كثيرا ولا تزال تدر على العمل الكثير ، ولكنها لن تمنى الإنسان يوما عن جهاد الضمير .

كان جهلاء أناس فيم نمبر يتقدمون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع اعتقاد ولا يرى في علم يرمض غير سعداء أبناء سعداء .

وكان العارفين بقولهم عن هذه أنهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا اعتقدوا أن ديننا من الأديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث لأن الدنيا باقية فيها الشر ، باقية فيها البغي ، باقية فيها الكفران .

أي فرق بين العارفين الذين يتتبعون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجامعين الذين ينتظروا السعادة المطلقة في «الألفية» الموعودة آخر الزمان . بعد قرون تعذر بل مستحبات أو بالملئات .

لعل هؤلاء الجامعين أقرب إلى تقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون ويتفكرون ، لا غيبة ، وقد سطروا الجاهلون بغير تكرار .

لرعاة السيوف الدسيح اليوم ثوب كثيرا يصنعه ويبيع منه ، ويصنع كثيرا بين أتباعه ويبيع يعملون باسمه ويتأصمون يومئذ ، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنعا كثيرا خيرا من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية . فلك في شروط
الضمير الذى لا ختام له . وهو الغاية وراء كل ختام

وسيعلم الناس في العصر الحديث - إن لم يكونوا قد علموا حتى يوم - أن
عقيدة الإنسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداخري أو مستأجبه .
ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلح . إن احسن - إلى : إصلاح .
كما يصلح يدينه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عاج نفسه مرضاته
، فالمعينة مسألة الإنسان ، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة : إنسان .
وعليه إذا عالج إصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءاً من نفسه بل سناً يعالج
قوام نفسه ، ولا يعالجها بضاعة يردّها إلى صميمها ويفزع من أسقامها فلا
فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان .

... في الشعر العربي ...

المذاهب العربية

نشأ الشعر في اللغة العربية فن مستقر جدته بين الفنون التي عرفت في
العصر الحديث باسم الفنون الجميلة . وثبتت دية نادرة جدا بين أشعار الأمم
الشرقية والغربية . خلافا لما يبدر من الضمير لأول وهلة .. فإن كثيرا من
أشعار الأمم تكسب صفته الفنية بسبحة من آخر . كالفناء أو الرقص أو
الحركة على الإيقاع . ولكن النظم العربي فن معروف المقاييس والأقسام بعد
استقلاله عن الغناء والرقص والحركة . فإلا يصعب تمييزه بطلقة
شعرية بمقاييسه الفني من البحور والأشعار .

ونست هذه خاصة من خواص الملامح السامية أخوات العربية . فبنتا إذا
أخذنا سطرًا على حدة من نصيدة عربية لم نستطع أن ننسبها إلى وزن محدود
أو مقياس متفق عليه . ولابد من اقترانه بسطور أخرى يتم بها الإيقاع ولا تترك
في قول كل شاعر ولا في سطر كل قصيدة . فهو والفاصلة النثرية التي يمكن
أدائها بالغناء أو بالإيقاع على حركة الرقص . مساويان .

ومن الشعر العربي ما يعرف كل سطر منه بعدد من المقاطع والنبرات . ولكنه
بغير قافية تنتهي إليها هذه السطور .

أما ضروب النظم التي تنظم فيها القصيدة . فنكها في نشأتها كانت نغنى أو
تنشد على إيقاع الرقص . ثم استقرت بتوازنها السجدة على نحو مشابه
للأوزان العربية . وهي الموشحات التي اشتهرت عندهم باسم « استنزا » أو
اسم « مونيته » . ويدل كلا الاسمين على أصلها من الرقص والغناء .. فإن
استنزا كلمة إيطالية بمعنى الوقوف تقاسمها ستاند Stand بالإنجليزية .
وسونيت . Sonnet من كلمة سونج Sing بمعنى الغناء .

فالشعر انحرى لا يضبط بالوزن أو بالقافية موجود في اللغات السامية واللغة الآرية. ويعتبه لا يزيد الإيقاع فيه على الموازنة بين السطور بغير ضبط متق عليه. ويعتد بضبطه الإيقاع وهدد المقاطع والتيرات، ولا ينتهي إلى قفة ملثمة في تصيدة أو المقطوعة الصغرة.

إس الخزن لمقسم بالأسباب والأوناد والتفاعيل والبحور خاصة عربية ندية المتأثر في لغات العالم. وكذلك القافية التي تصاحب هذه الأوزان.

ومرجع ذلك إلى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربية الأولى: أغلب سبب هـ لغناء المنقود، وبذاء اللغة نفسها على الأوزان.

فإنم التي يفرد فيها الشاعر بالإشهاد تظهر القافية في شعرها .. ين السبعين يتحويون إلى الشعور بموضع الوقوف والترديد، ولكن الجماعة اشتكت في لغناء لم تكن بها حاجة إلى هذا التثنية، لأن المثنى حسو بحذف الف. بفواصله ولوازمه وموضع التبر والترديد في كلفه وفقراته. فبنتت مع إيقاع بغير حاجة إلى القوافي عند نهاية السطور. وإنما نشأت الحد في قافية، ووقفه يشبه القافية عند تقاربت السطور وتساها القيم إلى اثنين يستعين.

يقول العلامة جليون موري - وهو من ثقافات البحث في الأوزان والأعاريض - «إن إحدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية في اللغات الحديثة. ففي لغتين لاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لأن الأوزان فيها واضحة. وإنم تدعو الحاجة إلى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة شدة للوقوف. وبغير هذه العلامة تنقل الأوزان وتغض ولا تستبين للسامع مواضع الانتدال والانتمال. بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كثره منث. وقد اختلف الطابعون عن طبع الكتب هذا الاختلاف في بعض المتأخر المرسية من كلام شكسبير، فحسبها بعضهم من المثنى وحسبها الآخرون من المثنى. وقد يلاحظ أن اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه إلى النسب العددية. وإن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم يلتزمون الأوزان. وإن ستر غافية في أغاسي لريف الإنجليزية ترون لترخص في أوزان الأعاريض.

ويستلزم الأستاذ موري إلى الشعر الفرنسي فيقول: «إن القافية الفرنسية حين رجع فيها الوزن إلى مجرد إحصاء للمقاطع، وأصبحت المقاطع بين مصونة وصامتة - نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة إلى القصة، فصارت في شعرها ضرورة لا محيص عنها، ودعا الأمر إلى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه».

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في أشعار تغريبين سبب لم يذكره الأستاذ موري وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تتم.

فبنتت شاعت أناشيد الجماعة قل الاعتماد على القافية وكثر الاعتماد على حركات الإيقاع، ولو لم تكن متناسقة الوزن على نحو محلي. لأن الغناء بالكلام الشئز ممكن مع توازن القواصل وموازة السطور.

وأنشيد الجماعة قد شاعت بين العبريين لأنهم قبيلة منقطة تنزل تابوتهم في رحلتها وتنشد لدعوات معاً في صلواتها الجماعة. وفي هذه دعوات ترنيم على وقع الدفوف كد جاء في الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج حيث «أغنت مريم التية أرف بيدها وبخرت جميع النساء براحاً بحرف ورقص، وأجابتهم مريم: «رنوا الرب فإنه قد تعظم».

وكذلك شاعت بين اليونان أغاني المسرح التي ترجع في تشب إلى الشعائر الدينية، ثم انتقلت منها إلى الأمم الأوربية.

وما يؤيد الصلة بين غناء الفرد والزام القافية إن شعراء الأدب الغربية الذين ينشدون قصائدهم للمستمعين قد لجأوا إلى القافية والتمزج في راعتها أحياناً ما يلتزمه عدداً شعراء الموشحات.

أما البيئة العربية فلم تكن فيها قبل الإسلام صلوات حمعة منتظمة بدواعيها ومحفوظاتها، وإنما كان الحداء هو الغناء الذي يصاحب إنشاد الشعر على بساطة كنها بساطة التردد. ينشده الحدي على غراد وتصفي إليه القافلة أحياناً في هدأة الليل، إذ يعتمد الحس كع على السمع في متابعة الخدم إلى مواضع الوقوف والترديد، فتقفو النغمة على وتوتت ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه.

لهذا اعتنق المنظم بحسنه في الصنعة ، لأن هذه الصنعة لازمة لتمييزه مع الغناء . يجمع غير الغناء ، فاستلزم قوافيه وانتظم ترتيبه انتظاما لا بد منه لكفايته مع بسطة آقبن الغناء

وإن تعمست مدخلا لنز الحركة الموقعة مع الحذاء فهناك إيقاع واحد متابعه في خصات الإبل وفي خضرات الهرولة التي تصاحبها على القدم ، وإلى هنا الإيقاع يرجع وزن الرجز على قصد وعلى غير قصد ، ومجيئه على غير قصد أدل على تمكن لعادة وعلى أصالتها في الحياة البدوية .

أنا ابن عميد المفضل

في أنت أصح نمسيت وفي سبيل الله ما نسيت

وهي تكون حركة الهرولة في الطواف بالكعبة ملحوظة في كل دعاء مروي كيف يختلف المختلطين في صحة الرواية ، كما قيل عن امرأة أخزم بن العاص حين ماتت ولدها كعبة فقالت

إني جعلت رب من نبهه ربيعة بمكة العليسية

فبورك لي بها إليه واجعله لي من صالح البرية

فهذا يفهم الناظم كيف تكون حركة الدعاء مع الهرولة ، أي كان صاحب النظم أو من ينسب إليه

هذه الحريجات الفردية هي التي ميزت النظم العربي باستقلاله ووضوح قافيت وترتيبه ، ولو وجدت في الجاهلية العربية صلوات جامعة تشبه فيب اللحنات المحفوظة لوجدت فيها القصائد التي تمثل لنا حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية . أما من أنشد الصلاة كما عرفها العبرانيون ، أو من أنشد المسرح كما عرفها اليونان ، ولكننا نعرف العرب من قصائدهم الفردية كما نعرف الأمم الأخرى من أمثال تلك القصائد ، فلا يفوتنا منها غاية ما تدل عليه هذا سبب من أسباب تلك الظاهرة النادرة التي ظهرت لنا في القصيدة العربية . وكانت ندرة بين الأمم السامية والأمم الآرية على السوا

أما السبب الآخر فهو أصالة الوزن في تركيب اللغة ، فالمعاصر فيه وزن ، والمستقبات أوزان ، وأبواب الفعل أوزان ، وقوام الاختلاف بين المعنى والمعنى حركة على حرف من حروف الكلمة تتبدل بها دلالة الفعل ، بد يتبدل به الفعل فيحسب من الأسماء أو يحتفظ بدلالته على الحدث حسب حتم التي يتبدل إليه .

هذه أصالة في موضع الوزن من المفردات والتراكيب لا يستغوب معها أن يكون للوزن شأنه في شعر هذه اللغة وأنه يكون شأنها في لغة أشد ما على خلاف المعهود في منظومات الأمم الأخرى ، ولو صرفنا النظر عن أثر لإنشاء الفردي في تثبيت القافية واستقلال فن العروض عن فن غناء في خصات العربية ،

نعم إن اللغات السامية تجري على قواعد الاشتقاق وتزيد الأسماء من الأفعال ، ولكن المقابلة بين هذه اللغات في أقسام مشتقات وتفرع كلمات من جذورها تدل على تمام التطور في قواعد الأوزان العربية ، على شئ هذه القواعد أو أساسها في أخواتها السامية ، بل تدل في باب أعراب خاصة على تفصل في العربية يقابله الإجمال أو الإهمال في أخواته وفي غيرها من اللغات الآرية التي دخلها شيء من الأعراب .

رواضح مما تقدم أننا قصرنا القول على النظم من حيث هو أوزان عروضية أو قوالب تحتوي الكلم المنظوم فيها .

فهذه القوالب هي التي تطورت في اللغة العربية فأصبحت قد استتقت بمقاييسه عن فن الغناء أو فن الحركة الموقعة ، أما الكلام المنثور في تلك القوالب فهو عمل ممتد مع الزمن يأتي فيه كل عصر بما هو عليه من بداع أو الزيادة أو المحاكاة . وإنما تعود إلى القوالب والأوزان في كل عصر تسأل هل هي صالحة لأداء المقاصد الشعرية ومجازاة الأمم في تطورها التي يمتد مع الزمن على حسب حالاتها من الشعر والنظم والقديرة على بناء ؟ وهل تسمح للتبدل إذا وجب التعديل لوفاء بمطلب جديد من مطالب التعديل ؟

إن تجارب العصور الماضية تنجلي عن صلاح الخوالب العروضية لمجارية أغراض الشعر في أحوال كثيرة ، ويسود منها أن أساس العروض العربي قابل البناء عليه بغير حاجة إلى تنبؤ وإنشاء ، فقد كنت بضعة بحدود من أوزان الشعر كافية لأغراض الشعراء من الجافية ، أشهرها الطويل والكامل والوافر والخفيف ، ثم نشأت من أوزانها مجزوءات ومختصرات صالحة للملء حين استحدثت الحاجة إليه في العواضر العربية التي عرفت الغناء على إيقاع الآلات ، ثم اتخذت من هذه البصر أسماء وموشحات وأمازيح تتمدد فوافدها مع اختلاف مواقعها وتطول فيها الأشهر أو تقصر مع التزام قواعد الترويد فيها ، واختار بعض الشعراء نظم المثنى أو التزدوجات ، وبعضهم نظم المقطوعات التي تجتمع في قصيد واحد متعدد القوافي أو تنفرد وتتعدد بآوزانها مع توحيد الموضوع ، وما نقلت إلا زيادة الجينية إلى النظم العربي لم تحقق بها أوزانه ولم يظهر سبق الترجمة أن هذه الأوزان قاصرة عن التوزيع فيها على نمط غير هذا النمط من إنشاء ، وتتويع ، واستجابات الأوزان لمطالب المسرح كما استجابت للمطعم المترجمة ولما يشبهها من الفصائد التاريخية المطبوعة .

وقد أقرده الموسيقى المصري الأستاذ خليل الملاك في فصله وافيا في كتابه فلسفة الموسيقى الشرقية لبعده التوزيع والإيقاع وتطبيق العروض العربي على الضوابط الموسيقية فتنبه من بحثه إلى إمكان التوزيع في الأوزان العروضية واستطاعه الموسيقار والتأليف أن يفتح اشكالا غير محدودة من أشكال الموازين ، واعتمد في تجاربه على الجهاز الفني المسمى بالمترونوم وهو صندوق صغير من الخشب دومي الشكل ، يفتح من إحدى جهاته الأربع فيكشف عن قضيب معني مقسم بخطوط ، وعليه ثقل متقل يحدث حركة متساوية ، فيقسم القيثا الواحدة من الزمن إلى فقرات تتراوح بين أربعين ومائتين وثمان ، فيمثل المثلث الفترات المتتالية في البطء ويمثل الحد الأعلى الفترات المتتالية في التسرعة ، ولم يلجأ الموسيقيون إلى وحدات للنفقات غير وحدات لقواعد والأوتاد والأسباب التي يستخدمها العروضيون ولم يجعل لها أقسام من أنفسهم المعرفة كاسب الخفيف والسبب الثقيل ، والوت المقرون والوت مخفوق ، والفانصة الصغرى والفانصة الكبرى ، وإنما

استخدم الضوابط الموسيقية تحت الموضوع بمصطلحات فنه ، وترك محدل بحث عروضيين يتقدمون فيه بمصطلحاتهم التي لا تمتدح إلى التخصص أو التبرع في نين الألمان ، فخلص من بحوثه الموسيقية والعروضية معاري نتيجة محققة خلاصتها - كما دل - إن أشكال الموازين الشعرية غير محدودة أو أن حدودها - على ما ترى - أشبه بحدود الكلمات التي تتألف من الحروف الأبجدية ، عر حين أن الحروف الأبجدية قلما تزيد على الثلاثين .

فد - نظره - إلى ما نه من أشكال العروض ، وما يثنى أن يتم منه مع التوزيع والتوزيع ، ثنت لنا أنها قائمة على أساس صالح للبناء عليه وتجنب الالتباس والاشكال فيه ، على نحو يتسع لأغراض الشعر ولا يلجأ إلى تنبؤ

...

وقد كله به التعليل بذاته - متفرقة بين الكلام المنشور والكلام المنثور من حسنة أو صعبة ، فإن التسهيل المطلوب للفن من الفنون كانتا ما كس - يشعر أن يتسر عند بقا ، الفن لنا مقرر القواعد والمقاييس ، وما جهل الناس قط - المكاه أسهل من الغناء ، وأن المشي أسهل من الرقص ، وأن الحركة الممرطة أسهل من الحركة الرياضية ، ولم يكن ذلك قط مسوغا للاستغناء بالكلام عن فن الغناء أو بالمشي عن فن الرقص ، أو بشريك الأعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضية أو الحركة في ألعاب الفروسية ، فمهما يكن من تسر أوزان بالتوزيع والتوزيع فلا مظاهر في النهاية من التفرقة بينها وبين نكلام حرس في سهوله لأداء ، وإنما المطلوب أن تكون فنا سهلا وبس المصير مدبر السهولة التي تخرجها من عداد الفنون .

ولما في هذا السباق من تفرقة أخرى هي التفرقة بين القواعد والقيود هي كل من من خنن ، فلا سبيل إلى الاستثناء عن القواعد في عمل له صفة فنية ، ولا ضرر من الاستثناء عن القيود التي تعوق حرية الفن ولا يتوقف عليها قيام الذي يسلط في عداد الفنون .

ومن تجرنا في تاريخ الشعر العربي يتبين لنا أن قواعد النظم عند مزانية نشأ عن فن تصريف يلجأ إليه تميز المعاني والتعبيرات في مختلف البتات

والأزمنة، فلا موجب للفصل بين قواعد النظم وأغراض الشعر في تجربة من التجارب العربية التي وعيناها منذ نشأت أوامر الأوزان إلى أن بلغت ما بلغت في منتصف هذا القرن الشرقي.

ذلك شلى التجارب العربية، فما دل التجارب في أمم الحضارة التي اتصل بنا وتصل بها وتبادلنا وتبادلها مطاب الخلق والأدب كما يحدث الآن بيننا وبين أمم الحضارة العربية؟ ماذا يفرص على هذه الثقافة المتبادلة في ميدان النظم والشعر على اتصال بينهما أو على أفراد.

أما في النظم فلا خفاء بالأمر من ليس نظره في أدب وأدب الأمم الغربية التي تصل بها في العصر الحديث.

فبعد لا تردد فيه أن هذه الأمم لم تبق في القرن الماضي دعا مستفيدة منها ولم تكن قد سبقناها إليه في عصر من عصورنا، فبنا أقمروا الأعارض معتمدين أو مباليغين فيس عندهم ما هو ثقل وحمل من الموشحة في أوزانها التي تحبل التنويع والتشجير إلى غير شيء، وحتى يعتد تعدد الثقافية فيها ندحة وزينة في وقت واحد، فإن أصلا حرية شعاع توزيع التقاوى حيث شاء يوشك أن يعفيه من قضاها كما يرى، لا يبق جمل على جمال، ولم يبدع الأورسور - حتى في شعر المسرحيات الطلحة - فذا من الأناشيد أتم من الموشحة وأصلح منها مخلصين وحركة الإيقاع.

فإذا ترخص الشاعر العربي في القواعد ففسط الثقافية واختار الوزن الذي يسمونه النظم الحر أو النظم الأبيض - عجز ما بلغوا إليه أنهم عادوا إلى الأسر القنارية أو إلى الاكتفاء بالعقيد التي لا تبلغ في سقتها مبلغ الأسباب والأوتد والمواصل، وكل أولئك ماور من لأطوار التي تخطها الشعر العربي في الأزمنة الماضية أو سبقتهم إليه أمة من الأمم الشرقية وتوقف بها انطور عنه - لا يتباطل بالتقاليد الدينية.

فليس عند الغرب من فنون النظم جديد نتخذه منه في أبواب التزيين والتشريع، ليس في فن النظم جديد نتأخذه من التجارب الغربية لم تكن عننا أسسه العربية، ولم تكن عننا أصوله وفروعه وجذوره، وأعصانه على حد تعبير «المؤرخين».

لكن الأمر يختلف كثيراً في الكلام على «الشعر» أو الكلام على الأدب ومدارسه ومذاهبه ودعواته التي تحث بها الحياة الغربية في كل حقبة، ولا تتميز منها دعوة واحدة دون أن يتميز لها حكم خاص بالشعر يتناول قبل أن يتناول غيره من الفنون الجميلة ولا سيما فنون التعبير.

هذه المذاهب الشعرية تعتد كما تمنعهم وتمتد بأثرها إلى أقرانهم وأفعالهم كما تمتد إلى أقراننا ووالنا.

لأنها من أطوار الحياة التي لا تنحصر في دوائر الفن ولا في أدوار الثقافة على إطلاقها، وإن يكن منظرها الثقافي هو الجانب الذي يشتغل به النقاد والمؤرخون في ميادين فنون.

هذه الدعوات أوسع نطاقاً من أن يحاط بها في مقال ولكنها تقترب من الحصر المستطاع إذ جمعناها في أدوارها الإنسانية العامة التي توشك أن تكون أوضاع دورية في هذا المحيط الزاخر، إذ هي عالقة بطبيعة الإنسان في حملتها، وطبيعة الإنسان واحدة كما قيل في كل زمان ومكان.

ونحن نعلم أن أبرز ما حصر المباحث الجنسية في أربعة أمرجة، وهي المزاج الدموي والخارج الصفراوي، الطغمي والمزاج السوداوي، ثم جاء العلامة مفلوف بعد تقسيم خصائص الأجسام بين الهرمونات وعائلات الدم وودائع الرعي الباطن والوعي الظاهر أقساماً لا تتعد ولا تحصى - فعاد إلى الأمزجة الإبقراطية تسيراً للقوارق العامة وجعلها أساساً لتجاريه النفسية التي تعد إلى هذه الساعة من أحدث تجارب العلماء.

فذن على هذه البيرة تقسم الخلق الفني في الإنسان إلى أقسامه الثلاثة حين نقول: إن الناس كانوا منذ فطروا وأقعيين وخيالوين، ومحافظين على القديم وطلبا للجدد - أو أنهم كانوا إذا اكتفيا بقسمتهم إلى قسمين اثنين: صنفاً يمشي في وسط القطع وصنفاً ينزع إلى الأطراف، أمام ووراء وعلى كلا الجانبين من الميعين وليس من، وقد تفكك بعض الجادين فأطلق على الصنف الأول اسم فريق الصنعة وعلى الصنف الثاني اسم فريق المعين.

ويرى من تاريخ الأمم الغربية منذ ملكت حرية التفكير أنها دارت دورتها بين مذاهب الأدب خلال القرون الثلاثة الأخيرة، وإنها نزع في دعواتها المتعاقبة كل نزعة طبيعية تعسرها أصلاً الحياة بعد عصر الجمود والتقليد.

ففي فترة البقعة الأولى كان من الطبيعي أن ينزع الإنسان إلى استقلال الشخصية الإنسانية في وجه التقاليد لمطبقة والقيود العتيقة والأحكام التي تطاع بغير فهم ، بل بغير شعور في أكثر الأحوال . وهذه هي النزعة التي سميت بنزعة الإبداع ، والحركة الشخصية ، Romanticism .

ومن الطبيعي أن ينتهي هذا الإبداع من كل جانب عن غير مدى مطلق عليه - إلى شيء من الفوضى والشوهد يستحب معه التوقف إلى حين ، وهذا ظهرت دعوة العود إلى الاتباع والاطراد على نحو جديد يتأسس مطابق الزمن ، فنشأت من ثم دعوة الاتباع أو الامتداد الجديد ، Classicism .

ولما حكم اختلاف الطبع حكمه بين أنسدر الواقع وأنصر الخيال نهنا مجال الاختلاف بين الواقعيين Realists والخياليين Idealists .

وقد يظهر هذا الاختلاف في صورة أخرى بين الطبيعيين Naturalists وبين الفنيين أنصر الفن للفن ، Art for Arts sake .

وتنيل أن الواقعيين والحيثيين متقاربون لأنهم جسد من أنصار الواقع ، وإنما يفرد الواقعيون بمعارضة النزعات الخيالية ، وسرد الصيغون بمعارضة النزعات الصناعية ، نزعات الإغراق في التزيق والتسويق ، ولما اقترنت هذه المذهب جميعا في عصور النهضة العلمية ، لانقسم بينها بؤول في هذه الحالة إلى قسمين . قسم تغلب عليه الصيغة العلمية وقسم تغلب عليه الصيغة الفنية ، وينسج كل قسم منهما لكثير من الآراء ، واشتات من الأساليب .

ولا جوى من متابعة المناوين التي تنتهي في الغرب صيغة النسبة المذهبية Ism فبأنه تتطوى جميعا في هذه الدورات ، ويحيث ذكر منه بمالم من الآراء والأسباب . ولكننا نجعلها في حدودها الواسعة إذا كتلينا منها بالروماتيزم والنيوكلاسيزم والريازم والأبدايزم ، فلا يخرج من هذه المذهب مذهب جاد يناط به عمل من أعمال البناء والإصلاح في عالم النفس ، ولا تزال حتى اليوم وافية بتعراض البحث والمنافسة بين المختلفين عن الفنيين فيما يستحق الخلاف .

وعى تعدد المذاهب والمناوين في الغرب لا نرى هناك لمسا على الإطلاق بين أحد من أتى أشرونا إليهم وبين عشرات المذاهب التي ينتحلها الدعاة على

عجل منذ الحرب العالمية الأولى - ونشر أن تعيش إحداهما أو تستل من سواها بصفة من الصفات التي يقتولها التطبيق والتمييز .

فلا ليس على الإطلاق بين مذاهب لجد ومذاهب الهزل في الآداب الغربية . فمذاهب الجد تدعو كلها إلى البناء وتقوم بالبناء فعلا ويعيش ما تتيه ، ومذاهب الهزل لا تحدث بشيء غير الهدم وإلغاء فلا لون ولا شبه ولا رسم ولا قاعدة في التصوير ، ولا نظرا ولا معنى ولا منطق ولا مدلول في الشعر والنثر ، وأنه لمن الخط الحسن أن تقصر هذه النوعى عن الفنون التي ترتبط بها ضرورات المعيشة والاجتماع ، فإنها لو تناولت لسمعت بفن المعمار الذي لا حجرات ولا جدران ولا حجارة ولا طلاء فيه ، وسعنا بمجامع الموسيقى التي لا تميز بين الضوضاء والألحان ، ولا محل فيب للمعازف والآلات ، من هذه المذاهب ما يطلق عليه اسم المستقبلية Futurism أو فريق الواقعية Surrealism أو الذنبية Fauvism . . بل منها ما يسمى بمدرسة النثرة Dadaism ويقول أصحابه أنهم اختاروا له هذا الاسم من أول تاتت لطفل Du Da وتطلق أحيانا على حصان الخشب ليسهل النطق به على ألسنة الأطفال ، ومزوى مذهب هؤلاء الدعاة أن التعبير الصحيح عن النفس الإنسانية إنما يرجع إلى صورة الطفولة ورموز الأحلام وخطابا الوعي الباطن كما تبو للعالم في المنام أو كما يرسلها الناطق عقوا بغير تأمل وبغير انتباه !

ومن هؤلاء الملطفين المذاهب من يختار اللفظة ويسأل عن معناها فيسخر من أسائل لأنه يبحث عن المعنى ولا يكفى بوقع اللفظة في الآن أو من منظرها ضمن القارئة . فمن عناوين مارييت أمام المستقبلية «زائج ثعب تيايم Zarg - Tumb - Tumb» ومن عناوين تيمبل أربنجنو موفيسى Bifs + 18 ما لا يفهم ولا يترجم ، وإنما هو مقابل عتنا لحرب الباء ثم الياء ثم الفاء ثم علامة موسيقية ثم زاي ثم علامة - ثم رقم ١٦ .

وقد عقب صاحب تاريخ الأدب الإيطالي على إمام هذه المدرسة فقال إنه لم يجاوز حدود السخف في شعره . . ولم يقل كلام المورخ من مجاملة ، لأن «سخف» معنى بوصف بالرداءة . . ولا معنى هنا ولا وصف لردي أو غير ردي .^(١)

(١) صفحة ١٨٥ من كتاب تاريخ الآداب الإيطالية تأليف . ريت هاش وكنتز .

ولا بد من وضع هذه الدعوات في موضعها من تاريخ الآداب الإنسانية والآداب الأوربية التي تظهر بينها فما هو موضعها الصحيح ؟

موضعها الصحيح أنه مثل جانب السخافة الذي لا بد أن يتمثل في بية بياح فيها القول لكل قائل والقراءة لكل قارئ ، ولا يخجل فيها العاجز من عزه ولا صاحب الحاجة من لجأته ، وهم جميعا في غمرة من محن الحروب والفن والقلق والآفات ، فهل تخلو هذه البيئة من جانب سخافة في الأنواق وانعبات ؟ وإن هو هذا الجانب إن لم يكن هذا مظهره الذي يتمثل في صوت القنوت ؟

والاستدراك أن هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت إليه ، فإنها خبيثة أن تدرس كما تدرس عوارض الأمراض والعلل والنكبات ، ولكن البون بعيد جدا بين دراستها لهذا الغرض ودراستها للاقتداء به واعتبارها من مدارس الفن ولأدب يساذج الذوق والجمال .

ولا نقولنا في معرض الكلام على الشطط الفني ملاحظة وثيقة الصلة بموضوع الخلط الذي يقال عنه إنه هو الفن الصحيح أو أنه هو التعبير صادق من غيره عن لوعي الباطن والسريرة الإنسانية في أعماقها «اللامنتطقية» على حد تعبيرهم المثلث .

فالخط البذر منهج لم يخلق دعاه «اللامنتطقية» في القرن العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئا واحدا فيه لم يسميهم أحد إليه ، وهو إطلاق اعتناوين اهامية عليه واستعارتها من دراسات التحليل النفسي أو من دراسات العلوم الطبيعية ، وقديما وجد في اشعراء والقناتين من يجتنب به هراه أحيانا إلى رفع الكفة وطراح الحشمة والابتذال في اللفظ أو المعنى أو في كليهما ، فيترسل في الهزل واللفظ كأنه في إجازة من «نفسه القضي» كما يقولون ، وينسب إلى هذه النزوات شعر السجانة والهزل وشعر الإباحة والجموح ، وينسب إليه كذلك ضرب من الشعر الذي يخيل إلى الناس أنه محدثهم بالحكم والأمثال وهو في أسلوبه لهازل ساخر يضروب الحكمة والمثل ، كما صنع بين مؤنوني أيشيفري (٨٠١ - ٨٦٨) في قصيدته البائية التي يقول فيها :

عجب عجب عجب عجب بنو تمضي ونهادس
ولهم فاس يزده لبن يبدولناس إذا حلب

لا تغضب يوما إن شئت
من أعجب مالي مصر يرى
وانتخل يصرى قلبه بلح
زهر الكتان مع البلس
والناس إذا تسموا غضبوا
الحرم يرى قلبه الغيب
أيضا ، ويرى فيه رطب
أن همسوتن ولا كذب
بنصاري حركهم ضرب

وأدخل من هذا في باب «اللامنتطقية» مذهب من مذاهب الزحل في اللغة الدارجة يعاقبون فيه وبين الأدوار المقصودة ، فينبغي أن يذوق العقل ويذوقه بالنور المجنون إلى نهاية الزج ، ويحفظ من هذه الأحوال كثير من محرمات هذا والأجيال القريه ، من امتثلها في كتاب ترويح نفوس حسن ، ألا ترى رجل يقول فيه

كسرت بطيخة رايت العجب
وفي المداين خق مثل السكر
وفي الضلاع أقوام طوال الذقون
من دمهم تزرع نعوذ احما
في وسطها أربع مداين كبار
في كل واحدة أربع قلاع حصار
ودمهم بصري شبيه انسار
في خلقه اعشمت عليه امثال

وأحيانا ينقسمون الأدوار إلى دور مساح ودور سكران ، أو يصوغون فيها المفردات على أسنة الصبيان كما يجري على أسنة العامة

يا لبل باعين مفرش أكذب
وأبوف صنادة ريسها
والصفحة شيلة مركب
والقط الأعور حارسها

إلى أشياء هذه «اللامنتطقية» المتواضعة التي يشتمها أصحابها في مواضعها ويسمون بها بأسانها ولا تعدو عندهم أن تكون «نفس» يمتدحونه إلى حين ويعرضون به «اللامنتطقية» في صورة فننة ، يعلمون ويقوم الناظرون بإدراك أنها من قبيل الصور الهزلية أو «الكاريكاتير» . ولا يعبون من الإنسانية أن تحلها في محل فنونها وأن تنبذ المنطق في سبيل

فإن كان لابد من هذه اللامنتطقية في الآداب العربية فعندما متها ما يغنيها ولها فيها مجال لا يخرج بالعقل من دائرة العقل ولا يلحق من دائرة الحنون .

الشعر أسبق أم النثر؟

السيد جورديان شخصية مشهورة من الشخصيات المضحكة في إحدى روايات «موليير» التي استوى بها على عرش الفكاهة المسرحية في الآداب الفرنسية ..

ومدار الفكاهة في شخصية جورديان أنه غنى من محدثي النعمة أراد أن يتشبه بالنبلاء فاتخذ له معلمين يعلمونه الرقص والمسايفة والبلاغة ، وجاء بالخرائط التي لا تخطر على البال وهو يحاول أن يفهم دروسهم ويعقب على شروحهم وأقراهم ، فإذا هو كما قال يتكلم « لنثر » طوال حياته ولا يعرف حتى عرفه من كلام معلم البلاغة !

لقد أفهمه معلمه معنى الشعر ومعنى النثر ، فقبل إليه أن النثر ما ليس بكلام موزون منظوم ، وتخيّل إذن أن كلامه ضلّ حياته داخل في ذلك التعريف ، وأنه كد أن يقضى بقية حياته وهو يجهل هذه المعجزة .. أولاً أنه تلقى الخير أخيراً من الأستاذ

أراد موليير أن يجعل السيد «جورديان» مضحكاً بهذه العبارة فقلع فيها أراد وضحك الناس مما قال ، لأنهم تركوا على البديهة من غير تطويل في البحث والاستقصاء أن السيد «جورديان» مخطئ في تصوّره الساذج ، وأن النثر شيء غير مجرد الكلام لئلا ينطبق عليه تعريف الشعر . وهو الكلام الموزون المنظوم .

فإذا لم يكن الكلام شعراً فليس من الضروري اللّزم في هذه الحالة أن يكون نثراً لا محالة . قد يكون كلاماً وليس بشعر وليس بش . لأن المقصود بالنثر هو التعبير الأدبي في غير نظم أو وزن من أوزان البحور الشعرية ، وقد يتكلم الإنسان طول حياته وهو لا ينظم ولا ينثر ، إذا كان كلامه خلواً من التعبير الأدبي في المنظوم والمنثور .

وإذا سأل السائل : أيهما أسبق : الكلام أم الشعر ، فلا محل للخلاف ولا لإمالة الروية قبل الجواب ، فإن اللغة سابقة للكلام المنظم والكلام المنثور على السواء ، ولكن السؤال الذي يقع عليه الخلاف هو : أيهما أسبق ، الشعر أم النثر ، ونعتقد نحن أن الشعر أسبق من النثر بزمان ضئيل ، نعتقد هذا ولا

نحسب أن الدليل القاطع في تقرير هذا الرأي مستطاع ، ولكنه رأي يقوم على القرائن لتاريخية والقرائن النظرية ولا ينتضه من أواقع شيء معلوم حتى الآن .

فمن القرائن التاريخية أن الشعراء أقدم من الكتاب ومن اثنين على العبرة ، إذا صرنا النظر عن الكلام المكتوب أو المحفوظ في الأورق .

فشعراء العرب في الجاهلية لا يسبقهم ناثر ، ولا يحفظ العرب كلاماً منشوراً يفترق تاريخه بالتاريخ الذي نظموا فيه قصائدهم المروية ، وما بقي من كلام الكهنة لمسجوع فهو - إن صح - أدل على قدم الشعر والثقافة . لأن الكلام المقصي محاكاة للشعر الذي تتزعم فيه الأوزان والقوافي ، وبذلك على سبق الكلام للكلام المنشور ، ولم يثبت قط أن الشعر هو سجع متطور ، لأن التاريخ لم يحفظ لنا قط كلاماً مسجوعاً عن عصر من العصور ليس فيه شعر . ولم نعرف عن الشعراء في قدم العصور أنهم سجعوا ثم تطوروا فنظمو ، ولم نزل أسجع الكهانة غير أوزان الشعرية ، في طبيعتها وموضوعها ، فالكهنة لا يشر من السجع إلى النظم والشاعر لا يتعلم الكلام الموزون من المراتة على الكلام المسجوع .

والآداب اليونانية هي يرجع الباحثين عن أوائل الآداب الأوربية القيمة ، وفي شاهد آخر على سبق النظم للنثر في جميع الآداب ، لأن «هومير» قد نشأ في زمن سابق للقرن السابع قبل الميلاد ، وكان من معاصريه في بعض الأقوال «أرستوبوكس» الذي أشار في قصائده إلى كسوف الشمس ، وحسب الفلكيين أنه كسوف أبريل ٦٤٨ قبل الميلاد ، أو كسوف مارس سنة ٧٦٦ قبل الميلاد ، وليس في المحفوظات اليونانية كلام منشور يرجع إلى ما قبل التاريخ .. وكل ما بقي من الكلام المسجوع الذي يقارب ذلك التاريخ فهو من قبيل سجع الكهان ، أو من قبيل السجع الذي يستعان به في الخطابة ، وأقدم ما ورد من نكره لا يرجع إلى عصر سابق لعصر الناقد المعروف ثراسيما كوس Thasymachos وهو من أبناء القرن الخامس قبل الميلاد .

أم الأدب اللاتيني فقد كن من الواجب أن ننعكس فيه هذه القاعدة لأنه الأدب القديم الذي امتاز بالرسائل المثورة لسعة أطراف الدولة وتضد الحدة إلى سراسمة بين سكان تلك الأطراف المترامية ، ومنهم الأدباء والبلد .

ولكن الثابت مع هذا أن الأديب ثلاثينية سابقة للملاحم والقصاصات في لغة اللاتين بعد تطورها ، وأن مناهج الشعراء سابقون لمشاهير البلاغة والكتاب وأصحاب الرسائل المنقاة ، ومنهم شيشرون الذي أديب الخطيب .

وما يؤثر عن قدم الشعر في الآداب العربية والأفريقية شبه بمنثور عن آداب الأمم الشرقية في جعلتها ، وليس في آدابها نثر أقدم من قصائدها المقدسة وأغانيها الشعبية الأولى ، ولا محفوظات المسجوعة بحقة بمحفوظاتها من الشعر الموزون

وقد يخطر على البال أن احبب جمع إلى الحفظ لا إلى النثر ، وأن النثر قد سبق الشعر ولكنه لم يبق شعر لأن الكلام الموزون أسير حفظاً من الكلام المنثور ، ولكنه خاطر مريد به سر نقضه بقليل من الروية فيه ، فإن سهولة الحفظ نفسها تحتج إلى تعليم ، وليس لها ملة إلا أن يكون الكلام المحفوظ أقرب إلى الطبع إلى النثر في الفكرة وأغنى عن الصناعة ، وأن الكلام الذي يصعب حفظه يغير السجور في الورق يعتمد على صناعات كثيرة ولا يكتفى فيه الاعتماد على الذاكرة ، فهو ممدود بمعرفة الحروف ومعروفة الألفاظ الكتابية وتطور المجتمع من جعل الحاجة فيه إلى التدوين بغير الوسائل الفطرية ، وهي وسائل الحفظ والتفصيل على الذاكرة

وقد يسو للسيد جوردان أن تنثر النظم عن النظم شيء غريب ، لأنه يخلط بين مظهر النثر ومظهر اللغة ، وهي ولا شك سابقة لظهور الشعراء والبلاغة .

لكن السيد جوردان مضى كما أراد مولير ، ومضى كما رأينا من فهمه لكل شيء ، فالواقع أن تأخر النثر عن النظم ترتيب طبيعي لا غرابة فيه ، إذ كانت شروط الشعر تتوافر قبل توافر الشروط المطلوبة للكلام المنثور ، ويكفي لظهور الشعر أن تظهر في إنسان من الناس ملكة غنائية ، وهي من أقدم الملكات في الأحياء ، أما الكلام المنثور فله الحاجة إليه في المجتمعات الأولى ، وما أكثر الشروط الصناعية التي ينبغي أن يتوافر في المجتمع قبل شعوره بالحاجة إليه !

ولا تخطئ بين الخطيب والنثر فهما شيان مختلفان ، فإن الخطابة في المجتمعات الأولى صفة من صفات الزعامة ، وليست كذلك صلة النثر البليغ ، ولكننا - على فرض التشابه بين الخطابة والنثر - قد نصير ظهور الشاعر

قبل ظهور الخطيب والنثر ، لأن ملكة الشعر لا تتوقف على تشوه القبيحة السياسية ، التي تستمع إلى الخطباء في شؤونها العامة ، بل لها توجد مع الدوافع الحيوية التي نهم كل فرد على حدة ولا تتوقف على سياسة الجماعات .

والغالب أن الشعر نظرة وأن النثر تعليم ، وأن الباعث إلى الكلام البليغ يأتي بعد الباعث إلى الغناء ، فقد تغنى الصبي الذي لا يتكلم ، وليس بالمعقول أن يصل الحيوان إلى الكلام وهو عاجز عن الغناء وعن صوغ كلامه في النظم المعين .

في حصة مروي عن أسنان المدرسة الموسيقية القديمة مصطفى رضا بك - رحمه الله - أنه كان يحب للنئين يعرضون بين المقامات الموسيقية وعزوين النفثات ، وأنه كان يشبههم بمن يتصدى لكتابة خطاب قبل أن يميز بين الحروف وخواص حطيط ، وهذا قياس مع الفارق كما هو ظاهر ، فإن الأخرى أن نذكر الشعر الذي لا يعرف أسماء المقامات والأنغام كالشعر الذي لا يعرف أسماء البحر والأعاريض .

وقد وجد الغناء قبل أن توجد أسماء مقاماته وأنغامه ، ووجد الشعر قبل أن توجد أسماء بحره وأعاريضه ..

نحن المعجب حقاً بما أن يوجد نثر قبل أن توجد الحاجة إلى التدوين ، فحينما وجد النثر فهذه جماعة تحتاج إلى تدوين الكلام ، ولم يكن صاحب النثر نفسه في أي يدور ما يقول بالحروف أو بغير الحروف .

ولهذا نرى أن سبق الشعر لا عجب فيه ، وأن سبق النثر فيه شيء من العجب ، وأن أولهما بالسبق هو أغنانهما عن الصناعة وتطور الجماعة ، وأقدم من الاستغناء بالنظرة على أبسط ما نكون .

الشعر لازم

الشعر لازم في أمنا هذا كما كان لازماً فيما سلف من ألوف السنين ومئات العصور

يقتضي من لزومه شيوع الصاروخ كما قيل ..

بل هو الرم ما يكون حين تشيع الصواريخ وتشيع معها أخواتها من صفائح
الحديد والخشب وآلات النار والكهوياء .

وكما غلت المادة وصنائحها وآلاتها تحبس الإنسان مكان روحه . وارتد
إلى قرارة عواطفه ووجدانه ، ويطمئن على نفسه : ألا يزال إنسانا بعد . أو هو
قد فقد الإنسانية في كائن وصار مع الصاروخ وأخواته آلة من الآلات . وقطعة
من الخشب والحديد . وشراظا من النار والكهوياء .

وما كانت بالإنسان حاجة إلى أن يتسنى خيلة حياته بين حنيه . يوم كانت
عشرته من الأحياء . ومعلمه من خيرات الأحياء . ويقامه بين صفوف الأحياء .
ورحله على متون الأحياء .

ولكنه في عصر الصاروخ . أحوج ما يكون أن يتسنى موطن تلك الحياة . وأن
يستمتع إلى تجوى فزاده بلسان أحياء . وأن ينظم لشعر ويحس إلى النغم
ويشهد مير الجمال والعطف في كل سطور ومسبوع .

وما كان الصاروخ ليحل محل الشعر وأخواته من فنون الجمال . إذ كان الناس
لم ينظفوا الشعر لأنهم بحثوا عن صاروخ فلم يجدوه . وإنما نظموا لأنهم
بحسوق وينطقون ولأنهم يترقون مع الزمن فيزداد انطق عندهم بالجمال ويحسن
الإنسان من التعبير الجميل ما لم يحسنه الحيران . ويستطيع من النظم ما ليس
يستطيعه الطير بالتفرد . ولا الخيل بالصهير ولا سباع الغاب بالزئير .

ولئن سبق الصاروخ الخيارة لن يسبق الصاروخ سباح الخيل .

لقد سبقه الخيال يرم نحدث للإنسان عن حصان الأبنوس . وعن أجنحة واق
الواق . وسبقه الخيال قأمل على أصان كيف يكون الطيران بالقوة . وكيف
يكون الطيران بالخفة . وقد كان العبد . بجزمين جزم اليقين إلا طيران في الهواء
بغير أداة أخف من الهواء . عجزا منهم عن فهم الطير كيف يطير حين لم يعجز
الخيال . وإنما هي القوة يطير بها في الجناح كما يطير بها الحصان الضار .

إن الشعر لازم للإنسان . لناطق . ما دام ينطق ويمثل ويترقى بالتلفظ في
معارج الكمال ومعارض الجمال

إن الشعر أكرم ما يكون للإنسان في عصر الصواريخ .

وإن حفاوتنا في هذا العصر شهادة لعصر الصاروخ وتعليه . لأنه لم يتخلف عن
عصور تعلم فيها الإنسان كيف يكون إنسانا بالمنطق الساحر واللسان المبين .

وفي القرب الذي يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة . وآيات كهذه الآية .
تربها بلزوم الشعر عنوانا على الهج به والحرص عليه .

في السنوات الأخيرة - سنوات الصاروخ - صارت الجائزة العالمية للأدب
إلى ستة من الأدب : خمسة منهم شعراء . وهم خيمييتي الأسباني .
وبسترنات انروسي وكوسيمبيو الإيطالي وبيرس الفرنسي وسيفريس اليوناني .

ومهما يكن من الرأي في إنصاف جائزة نوبل العالمية . أو في نظرتها
الناقدة إلى الأدب والفنون فلا نكران عليها أنها علامة من علامات الزمن
بحسوبة وحسن . وبما يراه من لزوم وما لا يراه .

ولا علامة الشعر تلزم في هذا الزمن . أصدق من العلامة التي تدل على أمم
حمس : بينه من المشابيات وغوارق ما بين الأسبان والروس والمليان
والفرنسيين واليونان .

إذا لزم الشعر في لغة اللغات فإنما يلزم لأزام ما فيه وألزم ما في الشعر أنه فن
من الفنون .

والزم ما في الفن أنه ذو قواعد وأصول . نوائم في كل لغة ما طبعت عليه تلك
اللغة . وتوائمت في اللغة العربية - خاصة - أنها لغة الوزن في كل كلمة وفي كل
صيغة . فليست فيها كلمة واحدة تعزل من وزن اشتقاق أو وزن سماع . لا
شعر بغير فن . ولا فن بغير قاعدة .

واذنب يقولون بغير ذلك يقولون عجبا يستغربه السامع ويستغرب الذي يسمع
وريفقه ما يقال كيف يصنف إلى السمع وكيف يستجيب له الفهم . وكيف يتكرر
بعد تكرار اللسان فيه .

يقولون إن قواعد الوزن تدعو الإنسان أن يقول ما لا يلزم . تكلمة للوزن حث
لا محل له من الكلام .

هل يقال هذا في الشعر وحده أو يقال في شتى الفنون عندنا وعند غيرنا من العالمين ؟

ماذا يصنع منشء الغناء ؟

ماذا يصنع الراقص في حركات يديه وقدميه ؟

ماذا يصنع الموسيقار في صوته المرسل بغير كلام ؟

ألا يزيد المعنى في غنائه يطابق فيه بين الألفاظ والألحان ؟

أنبطل الألحان لأنها تسوينا المد في الصوت وراء ما يلزم .. كما يقال :
لأنها تسوينا الزيادة في الحروف والكلمات وراء ما تتم به جملة المبتدأ والخير
أو جملة الفاعل ، أو جملة المحمول والموضوع ؟

أنبطل الرقصة التي تسوم المشي أن يخطو فوق خطوه أو يقصر عنه
بأختياره ؟

إن الفنان لا يضع في مده أو زيادته غير ما يلزم ، بل غير اللزم قبل كل
لزم : وهو رعاية الفن والقاعدة في الفنون وليس الخزن زينة في المقال بل هو
قوام المقال كله ، إلا أن يكون من غير الخزن ، وتما التعر تفاعل كامل بين
لفظ والمعنى وقاعدة القواعد الفنية في وزن أو نظم مقنن .

وبلغة الشاعر هي الملكة التي تقدر على هذا التفاعل بغير حشو أو فضول ،
و يكون المشو والفضول - إن كنا - زيادة للمعنى وتأكيد للأثر ، لا وقرا
محلا عليه ، ولا فضولا ملصقا به ، ولا لغوا مضافا إليه .

وكل بيت في الشعر المطبوع آية على صدق هذا التفاعل اتقام بين الألفاظ
والمعنى والأوزان ، وآية على لزوم الوزن كلزوم لفظ الشعر ومعناه .

أما مثل من أبيات لامرئ القيس وصفا للفرس :

وقد اعتدى والطير في ركناتها	بمنجسرد قبيد الأواهد هيكل
مكر مفتر مقبل مدمر معا	كجنموه صخر حطه السيل من عل
كسبت بزل اللبد عن حال متنه	كمسارت الصقواء بالمتنزل

لاشك أن كلمات «الهيكل» و«من عل» و«المتنزل» قد جاءت لوزن القافية
للامية

ولكن هل هي زائدة ؟ كلا .. ونجرب حذف الهيكل لنرى كيف ينقص المعنى
والأثر . ولو كان من الكلام العشور .

نقول مثلا : «إننا نشعر بكبريت قبل نهوض المايور بمنجد قبيد الأواهد ..»

فنسمع وصفا للسرعة ولا نسمع وصفا للشكل والمجم والمنظر ، وإنما يتم
ذلك كله حين نقول إنه قبيد الأواهد هيكل أي أنه ضخم جسيم .

ولقد يقال أن كلمة أخرى تحمل حمل «هيكل» حين نقول «ضخم أو جسيم أو
مكين» .

فهل ترانا نشعر بأثر هذه الكلمات كما شعرنا بأثر الهيكل فيما حققته الكلمة
من وصف اجسامه وانصورية المثال ؟

جواب ذلك عند من يهتمون الثقافية بزيادة الفضول ، إن لم يكن جوابهم هنا
من فضول المقال .

ونأتي بعد ذلك إلى كلمة «من عل» وهي التي تتم وصف الجلسود وهو ينحط
مع السيل ، فهل يتم أثر وصف هذه الكلمة ؟ هل التذكير بالخطاط الحجر من
الأعلى فضول وزيادة بغير داع ؟

وهل ذكر لمطر دون وصفه بالمتنزل تنزيه للبيت من اللفظ أو هو مما يتم هذا
الوصف للمطر بالتنزل والزلل عن منن الصقواء في هذه الحال .

وأبيات غير هذه الأبيات من كلام المعري يقول فيها مفخرا :

لا في سبيل المجد أنا فاعل	عصف وإقدام وحزم ونائل
أعندى وقد مارست كل خضية	بصق واش أو يغيب سائل
تعد ذنوبي عند قوم كثيرة	ولا تسبني إلا العلاء والفضائل

فمما لا شك فيه أن التاش والتسائل والفضائل قد جاءت في مواضعها هنا لأن
الثافية لامية .

ولكن لماذا نغيرها بضرورة المعنى ؟

ولماذا نثقل معنى غير هذه المعاني حتى تؤدي بهذا النظم وهذه الثقافية ؟

ولماذا نعدد فحاصل أخرى تزيد على هذا العدد أو تنقص منه ، بعد ذكر
الوقاف والإقدام والحنث والتش ؟ وإذا كانت كلمة العطاء مثلا تؤدي معنى كلمة
النائل ، فلماذا نفضلها عابها ؟

التجديد في الشعر

إذا أوجزنا قلنا إن التجديد هو اجتناب التقليد ، فكل شاعر يعبر عن شعوره صدق في تعبيره فهو مجده وإن تناول أقدم الأشياء ، هل تسمى في هذا العلم أرضي أقدم من الشمس ؟ إن الذي يصفها اليوم سائداً في وصفه غير مثلك تصويره مجدد تمام التجديد ، وإن لم يأت بكلام جديد .

عشقر هكذا تجدد الشمس الهار ، وتجدد الأرض الربيع ، ويجدد سنان الأمس بحب جيل بعد جيل .

نكر الشعر بقول بدلاء الشطر الذي « صوت بمصر رباع بهاء » ، إننا ولسنا لدينا عتقة بالية لأنها تعيننا كل عام بربيع كاربعة ندى تقدمه ، كنت تحفة دالية . فما لذي يختلف بين هذين الأسس ؟

و قد يمدف الشعر كسمة محتفلة بعد الطنبور فيقول : « تناول الطنبور صورة على الصورة التي عهدنا آدم في جنة الفردوس » ثم يمدف « بيزه في صرر هنا وضرب هناك » فهل يكسر البيت بحذو « هذه الكفة ينرى » أو يأتهم على هذه الغبراء ؟ التجديد - في كلمتين - هو حذو تقليد

أما إن تعمدا الإسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميع فني

ان كلمة محتفلة تصير لنا احتداد فني وتغلبه بجلسه ويعبر عن استعداد مختلفة في قبولها للتجديد ، أو مختلفة على الأصح في حجب عن التجديد .

« من البلاغاة إلى غنى حسن ، نبدأ بهم بغايلون بالميت ارضي » فلا هذه العناصر هي اللفظ والجوهر ، الموضوع ، وفي أي هي التوقيت فم يكون نرى في نفوسهم كثرة فيه وهم لا يرون ذات الاحتمال ولا ينتصرون بها مما يجيء إلى السجند مع الزمن . فاللفظ الذي يتألف منه شعر يبقى انفسه لا تتقلد ولكمال . فما حدث « محتفلة » هنا فصولاً لأجل الوزن . بل كن تفاعلاً بطراً عليه تغيير يذكر ، ويصلح في هذه الحالة في امرئ القيس كما انكته مع الوزن سبباً لاستدراك نقص واستكمال أثر ، لم يكن له في الشعر صلاح « شعر البارودي » ، مع قليل من التحوير الذي لا يختلف فيه المختصون من داع منه لهذا الاستدراك .

إن تردد اليقين بالشعر اللازم واغن لاكزم ..

وبعنى باللفظ هما المفردات في غير الجمل والأبيات وهي المفردات التي بطر عليها الزيادة الخيلية كل بضعة قرون ، أو يطرأ عليها اختلاف الاستعمال من فترة إلى فترة في حياة الألف الواحدة ولابد لشاعر من متابعة هذه الأضوار وقد يكون هو عاملاً ، أو مل الزيادة والتصرف في كلمات .

إلا أن الجهد في تجديد المفردات يظل على السواد أقل وأهين من الجهد في تجديد الأوزان ويجدد الموضوعات ، فله حجم الشعري النود قريب من الحجم الشعري في عهد أصحاب المطلقات ، أما الوزن فقد اختلف في عدد الحوز ، واختلف في عدد القوافي ، ولا يزال قديلاً للاختلاف ، وفي حذو إلى الاختلاف .

ويقول ابن الرومي في وصف مثنى كربة الصوت والغناء :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا في غناء ولا تعلية صبيحة
له إن جاور الطنبور محتفلاً صوت بمصر وضرب في خراسان

فقد لاشت فيه أن خراسان جاءت « وزانا لصبيان » بل لاشت أن محتفلاً هكذا تجدد الشمس الهار ، وتجدد الأرض الربيع ، ويجدد سنان الأمس بحب جيل بعد جيل .

نكر الشعر بقول بدلاء الشطر الذي « صوت بمصر رباع بهاء » ، إننا ولسنا لدينا عتقة بالية لأنها تعيننا كل عام بربيع كاربعة ندى تقدمه ، كنت تحفة دالية . فما لذي يختلف بين هذين الأسس ؟

و قد يمدف الشعر كسمة محتفلة بعد الطنبور فيقول : « تناول الطنبور صورة على الصورة التي عهدنا آدم في جنة الفردوس » ثم يمدف « بيزه في صرر هنا وضرب هناك » فهل يكسر البيت بحذو « هذه الكفة ينرى » أو يأتهم على هذه الغبراء ؟ التجديد - في كلمتين - هو حذو تقليد

أما إن تعمدا الإسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميع فني

لزوب يتم فيه المعنى اللفظ بالوزن والقافية ، وتؤدي فيه ملكة شاعر السجع عملها « لغة » ، « ديا » بين نغمة وحروفه وكلماته ، تتراوح في جميع الشدة - لاعة في الأثر وإساساً للسمع ، وإشباعاً للاداء ، ويجب انصوار وتجدد في الوقع والإبداع . وعلى ذات جبلت ملكة الشاعر السجع ، من رزقه قال وتغنى وأفهم « نثر » ، ومن لم يرقه فلا حي له في قول الشعر ولا في القول فيه . ولأن يسكت فلا يقول شعراً ولا يقول عن شعر خير له ولناس وحذو لشعر ، الفهم والعقل والاسماع .

كذلك يقول بعضهم متعجباً : هل توحى حرب طروادة إلى هوميروس بالإيالة
ولا تظهر في العصر الحديث إيالة أضخم منها بعد الحرب العالمية العظمى ؟
ولو كان هؤلاء القاصون يسمون وسمى الاستكشاف في الشعر ما حظر لهم أن
شاعرا عصرياً ينبغي أن يتغم إيلالة في الحرب العالمية ، لأن شاعراً قديماً
ظم ليده في عصره من أي لهم مثلاً أن هوميروس كان ينظم في
الحرب العالمية إيلالة وأنه عاش في زماننا ؟

من أين لهم أن يسموه حرب في التي توحى بالنظم فيها ؟ لقد تكون
الحرب بين عرسين ، قالوا انهم في إثارة النفس من حرب الملايين
من الخنازير في عصره ، يعرفون من حركة عرسهم ،
كانت لا ينفقه الشعر من جسم الشعر ليسر في حدث كان رفع من
شعر العرس في موضوع من الشعر المسرحي الذي لا يرسم
لخصية واحدة صحيحة من من شاعر الغنائي الذي يتحدث إلى من
للبل فيصدق العيب والشعور ، بكل فضل الشاعر في الملكة التي توحى
فيه شعره بوزن العذراء التي يطلقه على موضوعاته ، ونحن لا نفضل الشاعر
المسرحي على الشاعر الغنائي إلا لأن الشاعر المسرحي يستطيع شعر الغناء
ويستطيع زيادة عليه ، وهذه الزيادة عليه هي الحس المتجاوب في النفوس
سعيدة ، فإن كان هذا الحس هو صاحب الفضل بهذه المسكة أيا كان
الموضوع الذي يختاره لنضه ، وإن لم يملكها فالموضوع لا يعطيه ملكه هو
محروم منها .

وإذا كان التجديد في اجتناب التقليد قائماً كذلك هو اجتناب الاختلاق ،
والاختلاق هو كل من يجترأ يخالف ، وإن لم يكن هناك موجد للخلاف ، إن
ما يخشى على من يجرأ على مخالفة لا يستصعب من مني على
فيه ، ولكن في عصره في به درسه وقد مزج به في مستشعر الحديث ، ولا
مضى على الأسس من آخرت الشعر ، وذلك الاختلاف والاختلاق

...أدب فني...

من هو الأديب ؟

كان من الأدباء يتحدثون عن وظيفة الأدب الاجتماعية ، فاختلوا في
المراد من وصفة الأدب في السجفات القديمة ، وظلقت في مجتمه ،
العصرية ، فنصروا من أسلافهم ومن هو الأدب في المجتمعات القديمة ؟
أدب ينظم عن الأدب في المجتمعات قديمها وحديثها لأن الأدب بمعناه الذي
نعرف اليوم قد كان معروفاً هكذا بين جميع الأمم وفي جميع الأزمنة ، وهو
ولاشك أحد : يصعد لأول مؤل
قالت إذا نزلت اليوم ببلد من بلدان الحضارة وقلت لهم دلوني على رجل من
أدبكم لم يجهلوا كما تريد ودلوك على واحد ممن يصح أن يطلق عليهم وصف
الأديب كما تعنيه .

وتكن على من ينك أهل الباطنية مثلاً إذا نزلت بينهم وقلت لهم : دلوني على
واحد من أدبكم .

بهم لا يدعون عن الشعر ، ولا على الرواية ، ولا على النسيان ، ولا على
الخطيب ، وإن كان العلم بالشعر والتاريخ والخطب مما يدخل في نطاق صناعة
الأدب في الأزمنة الحديثة ، وإنك ما كنت من أديب في صدر الإسلام فهموا
بمصدر شاعر قريباً من لعنجهية البدوية واللوث الأعرابية .

واسم على ما هي من عهبة ولوثة أعرايبتي لأديب

قد تحدث في هذا الأديب الذي يدلوك عليه فنحوض معك في سحر شائق
... هذه الحقبة ...

نعم ، ولكنه في هذه الحالة يحزن شعوره وأب ، أو مسامحة ..
أديبا ، أو مؤرخا وأديبا .. ولا يلزم حتما أن يكون واحدا من هؤلاء ليقال أنه
أديب ، فهو محدث حسن الحديث أيا كان موضع الحديث ، وأية كانت صفاته
الأخرى التي تقرن بحسن الحديث

وبهذا المعنى كان أديب الزمن القديم محدثا في مجلس الصباح أو محدثا
في مجلس الأمير .. وبهذا المعنى أصبح أديب الزمن الحاضر محدثا لقراءه
و مستمعيه ، ولو لم يجتمع بهم مجلس أو مقعد

ولم تنزل بوظيفة الأديب لأخا جعد ، محدثا ، في العصور الأولى أو في هذه
العصور .. وإنما العبرة بما يقال ومن يقال به في جميع الأحاديث .

فمن الناس من يحدث بغير ريب ، ومن يحدث ليضرب لناس أمثال
لبطولة والشرف ، ومنهم من يحدث سرور عن النفس ، ومن يحدث ليكشف
للنفس سرورها ، ومن يحدث ليس ويلير ، ومن يسلم ويلهي كرام الناس ،
ومن يقصد بالتبذية واللغو غير هؤلاء الكثر

وكلهم على هذا المعنى أديب ، وكان تدرج تحتين بين أديب وأديب .

فلا ينزل الأدب لأنه حديث ..

وإنما ينزل الأدب إذا نزل موضوعه .. يرفع إليه

وقد نزل الأدب في عصرنا هذا ويصعد على جميع هذه الدرجات ، يمكن من
أديب العربية في أوائل القرن العشرين من يوصف بالأديب لأنه سمير مجلس ،
ثم شهدنا من أديب العربية في أواخر هذا من يحدث قراءه جميعا كما يشاء
فيجد من يصغي إليه ، وكل ما تغير بين من واليوم أن الحديث كان بالأمس
موقوفاً على سامع واحد أو سامعين قلان ، فأصبح اليوم موجهاً إلى مئات
الرف ، ولعلم لا يجتمعون بالمتحدث في مكان .

وربما صرح أن شئنا آخر قد تخير بهذا الصدد ، وهو أن الأدب - حيثما كان
مضاعفة تنتشر الجزء - لم يكن ينظر حذاءه فيما مضى من غير الأحاد
القليل ، وأن الأديب كان بين أحيائه في الورق ليقرأه كل من حصل عليه ،
ولكنه لا ينتشر الجزء الذي يغنيه في عتب من هؤلاء القراء ، وإنما ينتظره من
فرد يتصل به ويعول عليه .

ولعلم يدلونك على منك في أنس محضره وظرف معشره لو أنك نزلت بمصر
أو بقلار من أقطار العربية في أواخر القرن انتامع عشر ، وسألتهم أن
يجمعوك بأديب من الأديب .

أما معنى الأديب كما نفهمه ، فهو من المعاني المستحثة التي تطورت فترة
بعد فترة في العصور الأخيرة ، فكان الأوربين يفهمون من مقابل هذه الكلمة
Man of letters أنه رجل مطع على الكتب وليس المهتم ، لأن دراسة الكتب على
اختلافها كانت هي الفارق بين العلماء والجهلاء ، ثم شاعت الدراسة وتوعدت
ففرقا الغرق بين عشرات من الموضوعات التي يطالع عليها الدارسون ، ومنها
الموضوع الذي خصص لمعنى الأدب بمطلوله لمصطلح عليه في هذه الأيام ..

ولكن ما هو هذا المبدل ؟ ومرة أخرى من هو الأديب ؟

أهو الشاعر ؟ أهو القصاص ؟ أهو ناقد شعور ؟ أهو المطلع على سير
الأديب والقصاصين والنقاد ؟

إنك إذا قلت : فلان شاعر ، لقد وصفته بغير حجة إلى وصف الأديب بعد ذلك ،
وكذلك نصف القصاص .. سواء كتب القصة لمطوعة أو لندرة القصيدة ..

فإذا قلت عن العارف بالشعر والقصاص أنه أديب قيل لك : حسن ، ولكن ما
الفرق بين مؤرخ الأدب وناقد الأدب وبين الأديب ؟

حينئذ يلوح لك أن ذلك القيم لم يكن على قلال بعيد ..

ونعني بالمبدل القديم ذلك المرشد الذي كنت تسميه في العصور الأولى أن
يرشدك إلى أديب فيذهب بك إلى رجل حسن الحديث ..

فالأديب بكلمة واحدة هو ، الحديث في جميع العصور ، وقيته في كل عصر
تختلف باختلاف حديثه ومن يحدثه ومن يتطالع منه الحديث ، سواء كان حديثه
مما تسميه الأذان أم تعبته الأعين في صفحات الأوراق .

وبهذه الصفة وحدها يمكن أن تميزه من أشاعر ، ومن القصص ، ومن
الناقد ، ومن مؤرخ الآداب .. أليكون الأديب شاعرا ؟ أليكون قصاصا ؟ أليكون
ناقد لشعر والقصة ؟ أليكون عالما مطالعا على تاريخ هؤلاء وتاريخ غيرهم
ممن يحصل بهم التاريخ .

أما اليوم فالأديب على تقيض ما كان بالأدب . إنه ينتظر في الجزم .
 يوجه إليهم حديثه على يد المطبعة أو المذياع ، وهم مناب وألوف في وضته وفي يحسب من المجانين يل من صفوة العقلاء . أو يضعن المستمعين إليه كلما
 غير وطنه وفي زمنه وغير زمنه . لا يلقاهم ولا يقره في أعاب الاحوال .
 وذلك هو باب الخبر الكثير . وذلك أيضا هو باب النشر مستنير .

الفن بين الصدق والكذب

ما الصدق ؟ هو كما عرفوه مطابقة للواقع .
 ولكن ما هو الواقع ؟ وكيف يطابقه ؟ هل تحسنه بإدراك الحواس ؟ أو تضيقه
 بالكلمة اللسان ؟ أو تضيقه بوعي القرينة ؟ أو تحيل ؟
 كل أولئك مطابقة . وكل مطابقة من . . . صدقت صدق على حسب
 التعريف . ولكنها على هذا تختلف قيمتها أوسع اختلاف في التعبير والتسليم .
 فهذا رأيت مرجا من مروج أربع صدقت في وصفه حين قول له رقة من
 الأرض أربعاً ألف شراع . يتخللها جوار . وفيه ثمر من فصيلة كذا . وكذا
 وزهر من فصيلة كذا . وكذا في علم النبات .
 صدقت في وصفه حين أقول أنه صبر مريح .
 وصدقت في وصفه حين أقول أنه يتفق كما تتفق الميرون . ويرده كما
 تراه الموجبات . ويغير كما تغير التعريف . وتخرج فيه النظرة كما يمرج صدق
 الشباب في الحسابات المصادق . وتنشئ فيه مصاغير كما تتفق الوصائف
 الخلال في الأعراس .

أما إذا قلب إنني رأيت فيه ثغورا ووجعنا . ولحمت فيه أحداقا مؤثقت .
 واستخفتي العرج من قنود حسانه . واستطرتني الحرب من ألحان عيانه . فما
 نأبى كاتب . وما أنا بمخلاف لم قتته في تلك العبارة التي أوردتها مسرد
 تشبيه . وكل ما هناك أنني حسنت الكفات والكثافات . واعتدلت على فطنة
 السامع في فهم هذه التشبيهات . فغيرت من الواقع بأسلوب يختلف في اللفظ
 ولا يختلف في المدلول .

إن كان هذا هو الكذب الذي أراه حين قالوا إن «أعنت الشعر أكنيه» فهذا
 هو الواقع بعينه فيما نراه .

لأن استغناء الأدب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له باب الاستقلال . هي
 المعيشة والاستقلال بالرأي . والاستقلال بالشعور .
 إلا أنه قد يغني عن هذا السيد أو ذاك ثم ينفيد بهذه الجماعة أو تلك .
 ويستعيد الجماعة ثم من استبعاد الآحاد .

وليس من الحتم أن تستعيد الجماعة محدثها لأن جديدة مونت شتي من
 القدس . ولمن يحدث هذه الطوائف أن ينصر الحديث لغيره . ومنه ويضن به
 على غيره . وأن يقنع بالمهذب الكريم من سامعيه ويخفى كشمه عن سواه . فنه
 ولا شك أن يختار وإن صلبت عليه الموازنة بين أسباب الضمير .

وهناك باب من أبواب الصرية يطرقه من يستعجب حين يند . فحين
 يحدث . أو يرى وحده . كأنه يتحدث في نفسه . أو يند في نفسه .
 يستعده . وهذا لا يأخذ نفسه بكلفة الحس في محضر . أو يند في نفسه .
 وهو على كل حال يحدث على نسط العصر وأصليه . ويخلفه سمحت القديم
 عن ما كان عصره من فط وأسلوب .

وليس لوظيفة الأدب في اعتقادنا تعريف أصدق من هذا التعريف ، فإنه هو
 التعريف الوحيد الذي يزيل اللبس بينه وبين الشاعر والرواية والتقد والتؤرخ .
 ولا يمنعه مع ذلك أن يأخذ بعضهم أو سهوم من جميع هذه فنون . على اعتبار
 أنه مادة من مواد الحديث .

فمن هو الأديب في كل عصر من العصور ؟ هو الحديث على كل مجتبه . على
 اختلاف العصور . وتساؤل مرة أخرى . هل الأدب إذن وضعة اجتماعية ؟
 فإذا أردت أن الحديث يجري بين متحدث ومستمع أو مستمعين فالأدب
 ولا شك وضيفة اجتماعية .

ولكن خلق أن لا تنس بعد هذا أن الملكة الشخصية شرط لا معدى عنه في
 كل حديث كأننا ما كن نأله ومستعموه . فإن الناس جميعا أعضاء في بنيته
 جماعة . ولا يحسن اتحدث منهم إلا الآحاد المعنويين .

ونماية ما في الأمر أننا نطابق الواقع هنا بوعي القريحة والخيال ، ولا نص
أن نصيغه بلغة الص ، أو لغة الحساب والإحصاء .
وإن كان نوع المطابقة غير صديق على أية حال ..

* * *

مثل آخر قريب من هذا المثل

أعزى غدر يغرب في رحلة مهلكة في مغارة موحشة ..

تساقف فبقوا لك إنها عامرة بالغيلان والسعال ، وتجاوية بأنواء الجير
والعفريت من يسلكها لا يسلم من شر سكنها هؤلاء ، ومن سلم منهم فقد
كتب به عن حبيب

في أعزى الغدر كتب أبو نيفس ولكن في حساب واحد ، في حساب
لرحمة لسرافية والمبحث العلية

في أرحمين ولا حشش بحرين تلك الصمراء ورواها من جبروت وفد
مستبين ، عشت في تلك الصمراء بسعادة ، وفي السعادة حتى نكرو
لأعزى من مكن العثور عليه ..

ولكن إذا كتب في حساب الجفر قيين أقما من حساب آخر هو صادق فيه ،
أو صادق لواقع فيما يدعي ؟

بلى ! هات حساب هو صادق فيه كل الصنق ، مطابق للواقع كل تطابقة ،
وهو حساب الشعور والخيال ..

لأن وصف الخوف من الهلاك ، ولا فرق بين انهلال من الغول والسعادة
والهلاك من الوحشة والانتفاع ، ونماية ما في الأمر أنه وصف الخوف محققاً
منه ككافات والكائنات ، ولا يزال صادقاً حين قل لنا : أن من يسلم من شر تلك
الحديقة فقد كتب له عمر جيد

وكذلك قر في عرائس البحار ..

وكذلك قل في كنوز الأرض وما يحرسها من المردة والشياطين ..

وكذلك قل في همسات تسيم ونجوى الأنفاس ..

وكذلك قل في واقع تطابقه بالشعور والخيال ، ولا نقصر المطابقة فيه على
اللمس والعيان ..

* * *

وننتقل إلى الشعر الذي يتمثل فيه هذا الشرب من الواقع فنكرين أبي
الطيب في وصف الأسد .

ورداً إذا ورد البحريرة شارباً ورد الفرات زئيريه وتنبلاً

فغصاء الطبيعة بقرون لك أنه كذب .. لأنهم يقيسون سرعة الصوت في الهواء
وسرعة الصوت في السماء ، ويقسرون المسافة بين البحيرة ومصر والعراق ،
فيقدرون النسبة التي يتخافت بها الصوت فيجدون أن زئير الأسد الذي وصفه
يصل إلى التبر ولا يصل إلى القرب .
أذكرك أبو الطيب فيما وصفه ..

إن قلت نعم مع علماء الطبيعة ، قلت لا على الأثر مع سامع دد الزئير ..
لأن زئير الأسد ملأ جوانب نفسه وشاع في منافذ حسه ، قد يدع فيها فراع
لغير الرهبة والحذر ..

ورغبة تملأ كل مكان في دنياه ، خليفة أن تملأ كل مكان على وجه الأرض ،
راو في الساعة التي ملأت الرهبة فيها ، وذلك حسبه من مطابقة الواقع كما وقع
في لحظة من اللحظات ..

ولو أن أبا الطيب قد توهم في وصف شعوره بزئير الأسد أنه وصل في
الدقيقة إلى بعد كذا من الأميال لما خائف الواقع في حسه لعلم "طبيعي" ،
ولكنه لا يذكر لنا شيئاً عن الواقع في طبيعة الشعور

وهذا هو الواقع الذي بعيننا ونعنيه من وصف الأسد وزئيره

كذلك يقول البحري في وصف البناء اسامق :

دع الحسام ولده ترنم فوقه من منظر خطر المنزلة هنل

فصيب في تمثيل شعر كما يحسه ابواقف على شرفة : ذلك نصح ولا
في صيب في تمثيل شعر كما يحسه ابواقف على شرفة : ذلك نصح ولا

ويقول أبله العلاء في مستغربة الموت والحياة

وبلعد قد صرنا صرارا ضاحك من تزامم الأضداد

والواقع في اللحد لا يفسر، ولكنه من حق أن يفسر إذا استطاع، وإن هناك سخية في تعاقب الموتى على مكان واحد يكرهونه. ويتزاحمون على كائهم يشتهونه. فإذا أعزنا اللحد سخريننا فتحن لم نغير من السخوية ولا من الواقع، ونكتها استعارة، لا تنفع معها الحقيق...

هذه خلاصة القول عن الفن بين الصدق والكذب..

فلن يكن الفن جميلا إذا كن لنا كاذبا لا يطابق الواقع ولكن أى واقع ؟ وأي مطابقة ..

الواقع في الشعر، ومطابقة لذلك الشعر، وهي مطابقة لا ريب فيها، ومطابقة صدق من كل مطابقة أخرى، إذا كنت المطابقة الأخرى خلوا من تمثيل ما تشعر به وتؤيد في فن من الفنون، سواء أدبناه بالقلم أو بالريشة أو بالأزميل أو بالآلة والمزمار.

ويصدق على الواقع التاريخي ما يصدق على الواقع الحاضر أمامنا ..

فمن مثرتنا بطلا في غر عصره فأحسن تشيله فهو صادق في الفن كاذب في التاريخ، أو هو شاعر حسن ومؤرخ رديء، نلومه على كسله وجهله، ولا ننكر عليه لصدق في حسه وفناله ولا القدرة على حسن تعبيره وتمثيله فنمنحه درجة النجاح في شعر ونفن عليه به في التاريخ ..

وكل فن جميل، فلن يكون كاذبا أبداً، لأنه لابد له من مطابقة الواقع، على اختلاف صور المطابقة في الشعر.

ولقد قسر عن أرواح تشخيص وعفاريته أنها لو برزت إلى عالم الحياة لما برزت في غير الصورة التي تصورها .. وما قيل عن المخلوقات الخيالية في شعر شكسبير يقال عن كل مخلوق خيالي يمثل لنا حاله نفسية نشعر بها ونصوره فيه، لأنه ولد من شعورنا، فإن مطابقة فلا صلة بيننا وبينه في عالم الحس ولا في عالم الخيال.

... المدرسة الرومانسية ...

١ - حب الأزياء

كان باريس في بادئ الأمر بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الأوربية وكان بلاطها المظلم مصدر التراسم والتفاني في أزياء الأرب كل، تصير مع الأرب، والآداب والعرف المتبع في مجالس الطبقات العليا، وكان لها الشأن كل الشأن. يومئذ في جميع البلدان، لا تخلو فترة يسيرة من الزمن حتى أن سفر النفس بين فرسان البلاط وحسانه من شارة جديدة وزى جديد، ولم يكن جيب من طرفه يتحدثون بها في عالم الأدب والفن كما يدفون بالعرف في عهد النصارى والأزبد، فلما بدأت بهمة الأحباء الحديثة باستيعاب الأساليب اللاتينية واليونانية رغب بها طلاب الحديث ريت من عند العهد فبرموا به وتطلعوا إلى نمط جديد، فلهذا الأنماط بين، آخر من أواخر القرنين العشريين من المدرسة المحارية إلى المدرسة الرومانسية إلى مدرسة البرابدية إلى المدرسة الرمزية إلى هذه المدارس التي سبقت بالمستقلة نارة وما وراء الواقعية نارة أخرى، ولا تستقر طويلا على حال ولم يكن النصف اناس إلى عاصمة الأرياء، وانظارهم منها اجذب بعد الحيد هو الباعث الوحيد إلى تعاقب هذه المدارس بمختلف الأسماء وأنما وإنما صادرة، هذه الحالة معينة لهم من حب الاندفاع في السبق الفرنسية، فتصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفذ قواه. فلا تجد في غير فرنسا ولما كهذا النوع بالمدارس الأدبية المتلاحمة، ولا سيما كهذا السهم من أسلوب بعد أسلوب وصيغة بعد صيغة. وفي فرنسا تتسلسل لا تجد هذه المدارس في القمم العالية أو الأعلام بارزة من أذواق الأدب المعبرين، وإنما تجدوها في بيئات الأوساط وأشياء وأسماء الذين يخضعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع. أما أعلام الأدب الفرنسي من أمثال موليير وراسين وموتير وشكسبيريان ولامرتين وهوجو ومسبوا والتول فرانس وبيروست فانت لا تصنع تحت راية من هذه الرايات، ولا على سارية من الشارات، وإذا بدت على أحدهم مسحة من

٢- مميزات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة في التعبير الإنسان . بل عادة قديمة في طبيعة الإنسان .

فالحمام مثلا يعبر في صمته عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا في صورة وحش أو مارو مرهوب . والكاتب الذي لم يعرف الحروف الأبجدية يرمز إلى المعاني بالشخص والرسوم . ويعبر عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب . وقد يجرى إلى شجرة بعد عرفان الحروف لأنها توع من التصوير الذي يساعد على اختصار التعبير .

وكهان الديانات يرمزون ويعبرون كثيرا إلى الكنايات والألفاظ . لأنهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواه الناس على دخالها . فيختارون الرموز في التعبير وإن قدروا على الإيضاح والتفصيل والنسوك المتشوقين يرمزون لأنهم لا يستطيعون المعاني العارضة التي تعبر بها نفوسهم في حالة كحالة الخبيبية أو نشوة من نشوات الذمول . فيؤثرون التشبيه لأنهم - جزئيا - عن التوضيح ويخاضون من يعرف حالهم يرمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم إلى زيادة إيضاح . وكان بعض الدول يقرر الرتبة على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها فيشيرون إلى عقائدهم يرمزون بلهجاتهم ويجعلون للألفاظ الشائعة معاني غير معانيها المتفق عليها في اللغة المتداولة . ثم ينفذون تلك الرموز إذا ارتفع عنهم الضغط والأكرا .

وقد يكون الرمز اختصارا لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة كرمز الرياضيين والكيميائيين بخطوط وانقط إلى الأفلاك أو العناصر أو المقادير . فالرمز شدة ما عرف في تعبير الإنسان وفي طبيعة الإنسان . ولكنه ما عرف على حالة واحدة لا يفر منه معروض الرمز والكتابة . وهي حالة الاضطراب والعجز عن الإيضاح . ثم يرمز الإنسان قد وهو قادر على التصريح والتوضيح . ولم يجد كلمة وضحة تعني وأوضح ثم أثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء . فإذا لوحظت هذه الحالة فترمز أسلوب متلف عليه لا يحتاج إلى مدرسة تنبه الأذهان إليه . فالحق لا ينشبر مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يهلك

هذه الصيغة أو تلك فهي مسموعة لا تتحرف به قط عن اللونين الخالين اللذين يرجع الانقسام بينهما إلى طبيعة الإنسان لا إلى تقلب الأزياء بين جيل وجيل . وهما لون الراقية ولون المجازية . أو لون البساطة ولون التتميق . وسهما بعد ذلك بما تشاء من الأسماء .

٢- ظهور الرمزية

وكان الصف الأول من صفوف الطلبة في هذه المدارس هو صف الأحياء . أو صف الأساليب اللاتينية واليونانية القديمة . ولا يخلو من دعوة إلى بساطة الطبيعة . على ألسنة الفلاسفة والشعراء .

ثم تفتن الأدياء في المجاز على أنما شتر من الأساليب المجازية التي توشك أن تتعدد بتعدد الأحياء . فأسلوب هوجم مجازي . ولكنه مجاز يريك الدني كثنائها في مركب دائم من الطبول والأوراق ومن الفنائم والأسلاب . وأسلوب لامرتين مجازي ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أما في عالم مسجون تنهاس فيه الأرواح وتتخافت فيه الأصدا .

واتفق في الأيام الأخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين . فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية . ونزعت كليهما إلى الأسلوب المدرسي البسيط - أسلوب اللاتين واليونان - ممزوجة بلون الدراسات العلمية التي اشتغل بها كل عقل مثقف في عهد المدرسة البرناسية على التخصص .

وبدل اسم المدرسة البرناسية على مذهب بعض الدلالة لأن أصحابها يسمون أنفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين إلى البرناس وهو جيل أبولون وعرائس الفن في اليونان القديمة . فالبرناسيون معاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الأدب اليوناني القديم . ومحدثون علميون من ناحية التجديد العصري على نمط لم يعرفه قداماء اليونان .

وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أي الكلمة في موضعها الذي لا تتجاوز له للتتميق أو للتحويل . وعقيدتهم « أن الفن فن . خير قصد آخر غير أحكام التعبير وحسن الأداء .

وأقرط اليونانيون كما يقرط الدعاة إلى المدارس الخاصة فيندفعون فيها

بالصور والتشبيهات أو يحكم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء والشاعر لا يحاب إذا مثل لنا الكواكب والأزهر فتسببها ثوب الأحياء . ومن ضاق به اللفظ فعمد إلى التخيل والتشبيب فاندس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الإنسانية حيث كان الإنسان وبأى لغة من اللغة الغر أو أبا ن .

وقموى تلك أنه لا حاجة إلى مدرسة لتعليم الناس كيف يبرزون ويكونون حين ينبغي الزمرو وتنفي الكتابة . ولكنهم قد يحتاجون إلى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد يتسبون في دفعة الإفراط والمصدمة . وفي أن حياة تنطوي على كثير من الأسرار . وأن العالم نور وظلام وجهر وخفاء . وفي مفاجئنا أحيانا بمعاني لا ترجم عنها الألفاظ ولا غنى فيها عن الإشارة والاستعارة . أو عن تمثيل الظل بالظل . والمحجب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة إلى هذا التذكير في نصف الأخير من القرن التاسع عشر . ولم تكن هذه الحاجة مفصولة عن الآداب الفرنسية في الواقع لأن كانت حاجة من حلجات التطور المعقّر في العلم بأسره . ولكنها أظهر ما تكن حين يكون الاندفاع من الأمل إلى الأضداد

فالعالم الجوربي قد تنقل في ثلاثة أطوار عقبية منذ عصر الإصلاح

مور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود . وصار ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى أوتت أن بسبب بكل سلطان . وطور ثارت فيه بديهة الإنسانية لتذكير العقل بالحقيقة التي سببها في شططه وغلوته . وفي أن البديهة الإنسانية تشاطر العقل حقيقته في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود .

وفي الضير الأول كان السلطان للكهنة ورجال الدين . وكنت النصوص التي يساء فهمها وساء العمل بها هي مرجع مراجع كلها في العالم والحكمة والفنون والآداب .

وفي الضير الثاني تفرد العقل بتفسير كل شيء . ورغم أن العلوم التجريبية وحدها كفية بالكشف عن جميع الحقائق وجميع الأسرار .

وفي الضير الثالث صنع «رد الفعل» صنيعة المذهب في أمثال هذه الأضوار . نشأ المفكرين أنفسهم على العقلية Rationalism كما نشأ الفانون على الواقعية

Realism وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذي يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل .

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الآداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهور . بل ظهوروا «متأخريين» عن رواد هذا المذهب في الآداب الأوربية الأخرى . وفي عالم الفنون التي لها تأثير بين على آداب

فكانت موسيقى «الماجنر» تدوى في أرجاء القارة الأوربية قبل أن تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الحرب والمثد من الواقعية إلى لغة الأغوار والكنيات . وكان كولردج وديونج وسونيفر وتيفسون من أعلام الشعر الإنجليزي يتناولون المعاني الغامضة تارة بالرمز والكنية وتارة بالكلمات التي تسألها في الغموض . ويكفي أن يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في روسو وفولتير . وتأثير بيرون في لامرتين . يشكروا أن المدرسة الرمزية في الآداب الفرنسية لم تكن غريبة في الآداب الأوربية حين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وراحت إلى أوائل القرن العشرين

لكنها ظهرت مسانقة مدعوة إلى الظهور بدعوة التصور في التفكير والشعور . ثم استجفت الاحتجاب قبل أن تتكس من اثبات على الأساس الصحيح . وصدقت عليها الفكاكة التي تحدث بين طرفاء ينداد عن بهلول المجنون . حين قالوا إنه كان يغنى بدهم ويسكت بشرمين

فإن المدرسة الرمزية التي وجب عليها وجب سكوتها بعد ذلك مرتين . ولم يلبث الفرنسيون أن أطلقوا عليها اسم مدرسة تهبط والانحدار Decadents ولم يظلموها بهذه التسمية الصائفة . لأن شعراها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمز أن يرمزوا إلى كل وضيع خليع . وأن يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لا لزوية من مزايا التعبير والتقرير . فلو تبيأت لهم المعنى الواحد عبارتان تؤيدانه على السواء لفضلوا الأغمض منهما على الأوضح في غير سبب معقول لهذا التفضيل . بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ وأقرب إلى البديهة وأثبت في الأقدام .

وما هو إلا أن تلقفوا من الأقواء كلمة عن مذهب فرويد وأقوال العلماء النفسانيين عن «الوعي الباطن» و «تلاوعي» المكنون في أطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجسدية إلى رمزية أبعد منها في التطرف والجنوح . فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ما وراء الواقع . تترجم

الرموز بالرموز ، والألفاظ بالألفاظ ، وراجت هذه البدعة الحديثة في عالم
التصور ، لأن رواجها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهوراً كاملاً من
المقبولين والأدعياء ، ولما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع
الأحاديث من طلاب الصور الملتفة بين الأغنياء .

وعلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعي الباطن أنهم لا يفقهون ما
هو الوعي الباطن وما هو الوعي الظاهر على السواء ، فإن الوعي الباطن قديم
لم تخلقه النسبة الحديثة في كتب العلماء الفلاسفة ، وقد كان الناس يعيرون
الباطن حين يصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من الظاهر والضمائر
والوحيات ، من شأن العقل الباطن أن يظل عقلاً باطنياً حيث خلقه الله ، في
برزت له بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغى العقل الظاهر وتبطل عصر
الحواس ، وتقتب معالم الأجسام والأشياء ، ولا موجب لتغيير التصوير بالقلم
أو الرقعة بالتضمن والتجسيم عن الوعي الباطن أو العقل الباطن لأنهم يستعملون
أصنافهم بمرج الآوان ونقل الأشياء لا بالتدريج على الكهانة وتنتش خلاصة
ووهي الألفاظ .

فأمرية في حدودها المعقولة - ما لم تجعل الدنيا كلها رموزاً وكتابات
وأصناف - تعيش في الظلام ولا تعيش في النسيان ، وهي ضرورية ما شعر
الإنسان بضرورتها في تمثيل الغائبات والأسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة
إلى الضرر إذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز »
والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق .

وهي على الجملة « خطر » حين نصبح مدرسة قائمة بذاتها لأن الإنسان لا
يحتاج إلى مدرسة ليكون إنساناً يغبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير
باللفظ الصريح ، ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية ، وقد
عرف الناس الاستعارة في جميع اللغات فلم تكن استعارتهم إلا ضرباً من
الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تقصد هذه الاستعارات إلا حين أصبحت قسماً
مصطنعاً وانقطع ما بينها وبين البداة الصادقة والتخيل السليم .

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلاً
شيرة أدبية على غرار المثمنين والعقلين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر
الثوري عامة من أوزانه المتعجرة وقيوده العتيقة ، ولكن لم يقفوا عند ذلك
فحاشوا أن يقال فيهم أنهم : غنوا بدهم وسكنوا بدهمين .

من مؤلفات عملاق الأدب العربي الكاتب الكبير عباس محمود العقاد

- ١ - الله
- ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء
- ٣ - مطلع النور أو طوفان الجنة العمدية
- ٤ - عبقرية محمد ﷺ
- ٥ - عبقرية عمر
- ٦ - عبقرية الإمام علي بن أبي طالب
- ٧ - عبقرية خالد
- ٨ - حياة المسيح
- ٩ - ذو النون عثمان بن عفان
- ١٠ - عمرو بن العاص
- ١١ - معاوية بن أبي سفيان
- ١٢ - دأب السماء لئال بن رياح
- ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي
- ١٤ - قاضية الزهراء والفاطمين
- ١٥ - هذه الشجرة
- ١٦ - إبليس
- ١٧ - جحا الضاحك للفحك
- ١٨ - أبو نوح
- ١٩ - الإنسان في القرآن
- ٢٠ - المرأة في القرآن
- ٢١ - عبقرية الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده
- ٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة
- ٢٣ - رجب عظيم الهاشمي قائد
- ٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي
- ٢٥ - وجعة أبي العلاء
- ٢٦ - رجال عرفتهم
- ٢٧ - سيرة
- ٢٨ - الإسلام دمية عالية
- ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين
- ٣٠ - ما يقال عن الإسلام
- ٣١ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
- ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية
- ٣٣ - لفلسفة لغزائية
- ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام
- ٣٥ - في الحضارة الأوروبية
- ٣٦ - لغة العربة
- ٣٧ - لغة الشاعرة
- ٣٨ - شعراء مصر وبيتهم
- ٣٩ - أشعار مجتمعات
- ٤٠ - حياة قلم
- ٤١ - خلاصة اليومية والسنو
- ٤٢ - مذهب ذوي الصفات
- ٤٣ - لا شيوعية ولا استعمار
- ٤٤ - الشيوعية والإنسانية
- ٤٥ - الصهيونية العالمية
- ٤٦ - أسوان
- ٤٧ - أنا
- ٤٨ - عبقرية الصديق
- ٤٩ - الصديقة بنت الصديق
- ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية
- ٥١ - مجمع الأحياء
- ٥٢ - الحكم المطلق
- ٥٣ - يوميات جزء أول
- ٥٤ - يوميات جزء ثاني
- ٥٥ - عالم الصدود والقيود
- ٥٦ - مع عامل الجيرة العربية
- ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والسياسة
- ٥٨ - دراسات في لغز الأدب والاجتماعية
- ٥٩ - آراء في الأدب والفنون
- ٦٠ - بحث في لغة والأدب
- ٦١ - خواطر في الفن والفن
- ٦٢ - دين وفن وفلسفة
- ٦٣ - فنون وشجون
- ٦٤ - قيم ومعايير
- ٦٥ - ديوان في الأدب والفن
- ٦٦ - عبد القلم
- ٦٧ - وند وحده

فهرس

٢	تقديم بقلم ماهر الطناحي
٢٠	ولادة قسم
٤٩	الصحافة قبل خمسين سنة
٧٨	أزمة قسم
٨٦	بين الأمر واليأس
٩٥	بين الوظيفة والصحافة
١٠٥	في الحرب العالمية الأولى
١١٢	بين الموت والحياة
١٢٢	تكريات وشخصيات
١٦٦	في أرض الميعاد
١٨٠	دين وفلسفة
٢٠٧	في الشعر العربي
٢٢٣	أدب وفن
٢٤١	المدسة الرمزية

